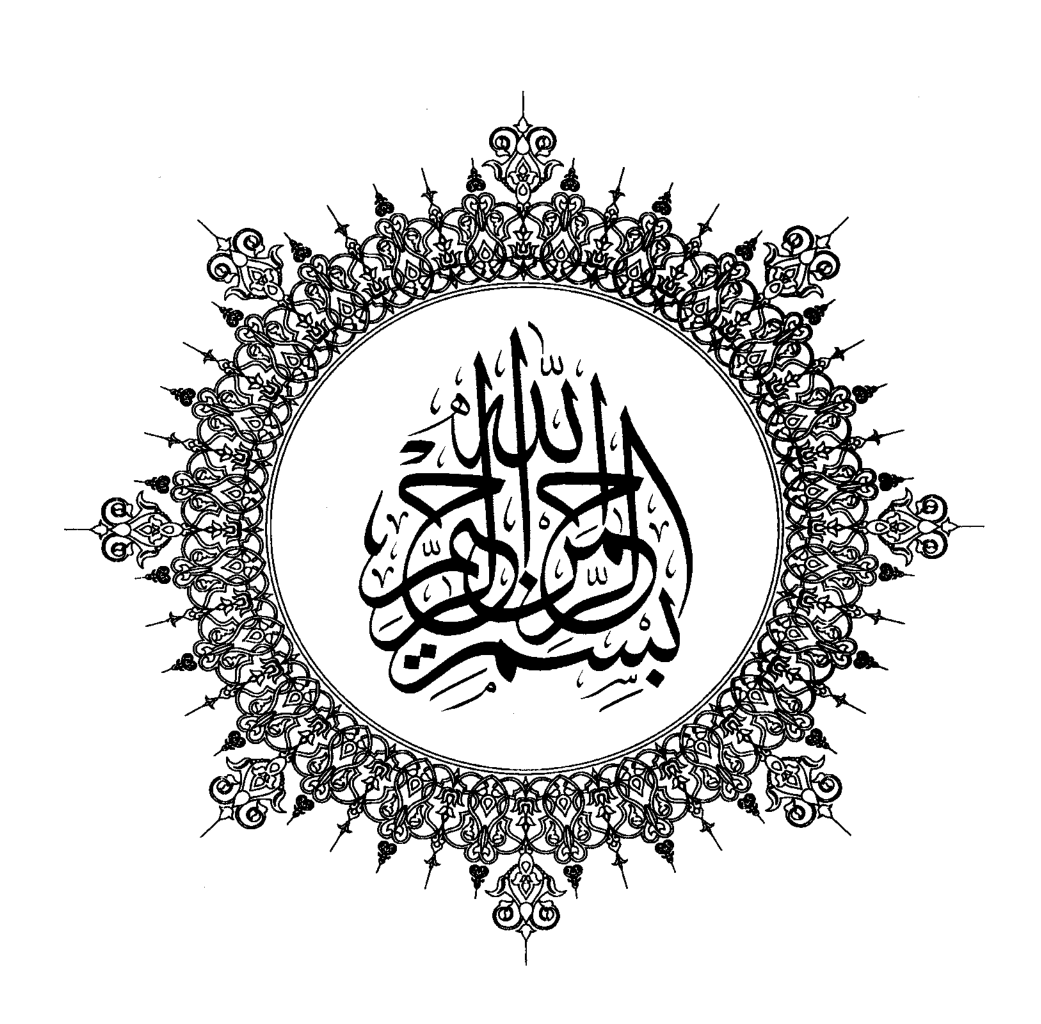
قراءة في الاستراتيجية الغربية لحرب الإسلام
بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م

ولتستبين سبيل المجرمين

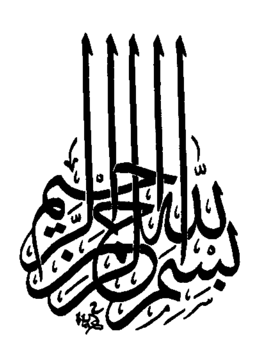
تأليف

د. محمد يسري إبراهيم




بسم الله الرحمن الرحيم


قراءة في الاستراتيجية الغربية لحرب الإسلام
بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م
ولتستبين سبيل المجرمين

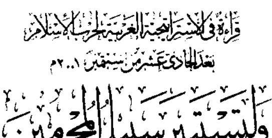






رقم الإيداع

٢٠١١/٥٤١٣



الطبعة الثانية ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

إبراهيم، محمد يسري

ولتستبين سبيل المجرمين : قراءة في الإستراتيجية الغربية لحرب الإسلام بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م

محمد يسري إبراهيم

القاهرة، دار اليسر ٢٠١١م.

٢٢٤ص، ١٧سم × ٢٤سم.

١- الصراع السياسي.

٢- العالم العربي - الأحوال السياسية

أ- العنوان

٣٢٢,٤٣

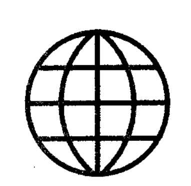
٢٠ ش عبد العزيز عيسى، المنطقة التاسعة الحي الثامن ، مدينة نصر، القاهرة.

تليفون : ٠٢٢٤٧٠٩٢٦٩ ٠٠٢

فاكس: ٠٢٢٤٧١٤٨٠١ ٠٠٢

محمول: ٠١٦٢٢٧٦٢٠٨ ٠٠٢

Email: alyousr@gmail.com



المقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على النبيِّ الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، **أما بعد:**

فإن أمتنا الإسلامية اليوم تمرُّ بمخاضٍ حقيقيٍّ، تشقُّ من خلاله طريقها نحو استعادة المسلوب من عِزَّتِهَا وكرامتها، وهي في كل صقع ومِصْرٍ تواجه سلسلة معقَّدة من الصراعات التي تُفرض عليها فرضًا، وتعاني كثيرًا من ركام عقودٍ تطاولت، وسبلٍ تعددت لم يَأْلُ أعداؤها في صرفها إليها، عبر صراع يتسم باستراتيجية بعيدة المدى، طويلة النَّفَس، يرثها اللاحق عن السابق، وتتواصى بها الأجيال، وتشمل كل المجالات، وتحشد في أتونها كل القوى والإمكانات.

وهذا الصراع المفروض على أمتنا جوهره عَقَدِيٌّ أيديولوجي، وقد يتجلَّى أحيانًا في صراع على المصالح، وعن هذا عبر «برنارد لويس»، بقوله: «إنها حربٌ

بين الأديان»[1]، وعن هذا عبر -أيضًا- بعض مفكرينا المعاصرين فقال: «الصراع بين الحضارات إنما هو في جوهره صراعٌ بين معتقدات، لا بين طبقات وعِرْقِيَّات»[2].

وهذا الصراع تخطط له في الغرب مؤسسات بحثية متعدِّدةٌ، وتديرُهُ المؤسسات التنفيذية السياسية والعسكرية والاقتصادية والأمنية... وغيرها، وتعتمد هذه الجهات على دراسات وبحوث استراتيجية تقوم على معلومات تفصيلية وبيانات إحصائية وبحوث ميدانية تقدم في النهاية خططًا، وأخرى بديلة، وتساهم في إدارة الصراع بشكل علميٍّ ومؤسَّسي.

ولقد كان بدهيًا أن تقوم استراتيجية إسلامية قوية في مواجهة تلك الاستراتيجية الغربية المدججة بكثير من الوسائل والأساليب المتقدمة، والمدعومة من جميع الجوانب بواسطة المنظومة الغربية بأسرها؛ إلا أنه -ومع الأسف- لا توجد استراتيجيةٌ إسلامية؛ بل ولا عربية تقوم في مواجهةٍ أو تصمد في مُنازَلةٍ، أو تحافظ على هوية، أو ترعى قيمة أو حرمة، وإن وجد شيء من ذلك فبشكل مُبْتَسَر لا يمثل سوى قُطر أو إقليم عربي أو مسلم، وهي مواجهةٌ تفتقد إلى رؤيةٍ متكاملة، ونظرٍ لعموم الأمة، وتنسيق دولي عربي أو إسلامي عالمي.

ولا تكاد تُعرف جهة إسلامية عالمية تقوم بهذا العمل الجليل، وهو تخطيط وتفكير ارتيادي يحوّل الصراع في نظر أهل الإسلام إلى تكاليف شرعية يقوم بها الأفراد والهيئات، فضلًا عن الدول والحكومات، كما لا توجد -في الواقع- تلك الهيئة أو الولاية التي تدير وتتابع وتُعَدِّل وتصحح مسيرة

---

(١) نقلًا عن مقال النيوزويك بقلم: «زاخاري كاربيل» في ٢٠٠٢/١/١٤م.

(٢) الإسلام لعصرنا، أ.د. جعفر شيخ إدريس، (ص١٣٤).

هذا الصراع، وتجلّي طريق الأمة للخروج منه ظافرةً منصورة.

وما من شك في أن أهل الحل والعقد في الأمة المسلمة اليوم من كل عالم شرعي صاحب منهج يقوم على الاتباع، وينحاز إلى أمته ومصالحها الشرعية، ومن كل صاحب شوكة وقدرة من إمارة أو ولاية- مسئولون عما تحملوا من التكليفات، وما تعلق بهم من الواجبات والتبعات.

غنيٌّ عن البيان أن إدارة هذا الصراع والتخطيط له من الناحية الشرعية تقع مسئوليته على أهل الحل والعقد في الأمة مجتمعين

وغَنِيٌّ عن البيان أنَّ إدارة هذا الصراع والتخطيط له من الناحية الشرعية تقع مسئوليته على أهل الحَلّ والعقد في الأمة مجتمعين في كياناتهم العالمية وهيئاتهم الدولية الرسمية وغير الرسمية، فإن لم يمكن اجتماعهم فبحسب ما يتيسر، والقاعدة الفقهية تقرر: أن الميسور لا يسقط بالمعسور[1].

وفي الحق أن حضارتنا الإسلامية حضارةٌ تقوم على نور الوحي، وتنبثق من عقيدة التوحيد، وتستند إلى قيم الأخلاق وحقوق الإنسان، وتشمل متطلبات الفرد والجماعة، وتستوعب جوانب الحياة بأَسْرِها، وتُعلي من شأن الدار الآخرة، وتفتح أبواب الحرية الحقيقية من خلال حكم الدنيا بالدين المطهَّر والشرع المنزَّل، وليس بالشرع المؤوَّل أو المبدَّل!!

ويوم حكمت شريعتنا وسادت أشاعت قيم العدل والإنصاف، وأقامت صروح العلم والثراء المعرفي في كل ما يفيد وينفع، وحققت السِّلم الاجتماعيَّ مع القوة المرهوبة الجانب، فاطمأنت بحضارتنا الحياةُ، وسعدتْ بريادتنا

(١) الأشباه والنظائر، للسيوطي، (١/٢٧٣)، ط دار الكتب العلمية - بيروت.

المجتمعات، وذابت في حضارتنا حضاراتٌ، وغابت في بحر لغتنا لغات ولهجات، فلا غرو إذن أَنِ اجتمعت الصفوف، والتقت الأفئدة، وحَلَّ الائتلاف محلَّ الخلاف.

وأما يوم أن غُيِّبتْ شريعتنا كليًّا أو جزئيًّا فقد استبدلنا السفح الهابط بالقمة السامقة فضربت الفرقة بجرانها، وغُلبت الأمة على مقدَّساتها، وانتقصت من أطرافها، ولم تفلح سياستها ولا عسكريتها في استعادة فلسطين السليبة، ولا حماية القدس الحبيبة، ووقعت الأمة في أسر تبعية فكرية واقتصادية معًا! وأما عن التخلُّف العلمي والثقافي والتقني فحدِّثْ ولا حرج!

ومع كل ما قد يقال فإنه لا تزال هذه الأمة حَيَّةً تقاوم، وقادرة تجاهد، ومعطاءة تبذل، وصابرة ثابتة تناضل وتراغم!

وليس لهذا من سبب إلا ما كتبه الله من خيريتها، وما أكرمها به من كتابه وسنة نبيه ﷺ، ومن يجدد الله بهم دِينَـهَا من غراس خير يستعملهم الله تعالى في طاعته إلى يوم القيامة(١).

ومن هذا الغراس المبارك وُجد ما يسمى اليوم بـ«الصحوة الإسلامية» والتي عَمَّتْ ربوع العالم؛ فلا يكاد يخلو مجتمع من آثارها، ولا بلد من حسناتها، ولا مجالٌ -من مجالات الحياة- من بصماتها.

وهذه الآثار المباركة للدعوة الإسلامية المعاصرة ونجاحاتها لا تمنع من رؤية ضعف إمكاناتها وعدم وضوح مشروعها للكافة، وتمثُّلها في كثير من الأحيان بأفراد أو كيانات غير ممكَّنة في مجتمعاتها، وهذا يعني: ضعفًا سياسيًّا

---

(١) في الحديث عن أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: **«لن يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم فيه بطاعته إلى يوم القيامة»**. أخرجه ابن ماجه (٨)، وأحمد (٤/٢٠٠)، وابن حبان (٣٢/٢)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/٥).

وعمليًا، مع ما يعتريها من داخلها من أسباب الضعف المنهجي أو الفكري أو الثقافي، وهذا كله يجتمع ليؤكد أن بينها وبين استحقاقها لأن تكون في ندِّية الصراع الحضاري اليوم بَوْنًا لا يزال شاسعًا، وطريقًا يبدو طويلًا.

وانطلاقًا من الحقائق والمبادئ السالفة جميعًا، ومن الحاجة إلى وعي واعٍ بحقائق الصراع على أرض الواقع- تأتي هذه القراءةُ في استراتيجياتٍ معاصرةٍ تهدف إلى حرب الإسلام ومحاصرته أيديولوجيًا وحضاريًا.

وهي دراسةٌ مختصرة مركزة متتابعة الحلقات ومتصلة الفصول، يأخذ بعضها بحُجَز بعض، حتى تسلِّم إلى ما انتهي إليه من إجراءات في سياق الحرب الباردة المباشرة وغير المباشرة على الإسلام وأهله في عالم اليوم.

وقد جاءت هذه القراءة لتصل بين ما هو ضاربٌ في شعاب الزمن من تاريخ العداء المتأصل للإسلام وأهله، وما هو مستقرٌّ على أرض الواقع اليوم من استباحة الدماء والأعراض والمقدَّسات الإسلامية على حد سواء.

ولقد ركزت هذه القراءة الاستراتيجية على الفترة الزمنية التي تبدأ من إرهاصات أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م إلى اليوم؛ لتلقي أضواءً على مسيرة عشر سنوات بدت عجافًا لدى البعض وإن كنا نراها -متفائلين ومتيقنين- تعلن عن إفلاس غربي على المستويات كافة، وتبشر بظهور هذا الدين في العالمين، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ [النور: ١١].

لقد جاءت هذه «القراءة» في تسعة فصول وخاتمة بعد المقدمة، دار أولها عن عقدة الصراع عند الغرب وعقيدته، أو كما عبر عنها عبد الحليم هوبرت بقوله: «إن الغرب قام على أساس منطق نَفْي وتدمير الحضارات الأخرى»[1].

---

(١) الإسلام والغرب - الحاضر والمستقبل، لزكي ميلاد، وتركي علي، (ص١٠٩-١١٠).

ودار الفصل الثاني حول محاولةٍ لفهمٍ أعمقَ لهذا الموقف الدموي التدميري، وإدراك ملامح المنظومة الغربية؛ بإلقاء أضواء كاشفة على مصادر ومكونات الثقافة الغربية؛ بدءًا بالحضارة اليونانية القديمة، وانتهاء بالحضارة المادية الحديثة.

وفي الفصل الثالث تناولٌ لإرهاصات أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وما سبقها من مواقف سياسية و ثقافية و إعلامية.

وأما الحدث الجلل ونقطة التحول الفارقة في الحادي عشر من سبتمبر وما احتفَّ بها من إيجابيات وسلبيات فقد كان محور الفصل الرابع من هذه الدراسة.

ويعتبر الفصل الخامس نقطة الارتكاز؛ حيث دار حول التوجهات والاستراتيجيات الغربية المعاصرة في مواجهة الإسلام بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

وفي الفصل السادس رَصْدٌ لواقع مشهود، ودعم مقصود للطائفية والمذهبية المسلكية لتشتيت الأمة الإسلامية، وتفريق الوحدة الإيمانية، والذي تحول إلى مظاهرة عالمية لدعم غلاة الطرق الصوفية، وتأجيج الفتنة بين الصحوة الإسلامية بطوائفها الدعوية والتربوية والعلمية والسياسية والجهادية على حدٍّ سواء وبين الطرق الصوفية؛ التي تعتبر اليوم عند الغرب - مع الفرق الكلامية- الحصان الرابح في الحرب ضد الدعوة الإسلامية بأَسْرِها، وعلى اختلاف أطيافها.

وهؤلاء الأعداء الاستراتيجيون حين يقرِّبون ويدعمون طوائف من غلاة أهل البدع لا يهدفون إلى هداية أو إصلاح، وإنما ينتعلون حذاءً ويمتطون مركبًا يَعْبُرُون به إلى فاسد غرضهم، فإذا تحقق مرادهم ألقَوْه إلى الجحيم!

وتناول الفصل السابع رصد ما يجري على أرض الواقع من ضرب أهل السنة بالفرق الكلامية، ومحاولة تشتيت الوحدة الإسلامية في مواجهة الغرب غير المسلم بما بين أهل القبلة من خلافات، وإشعال نار الحرب على الرموز السلفية والاختيارات العلمية لهذه المدارس المنتشرة في ربوع العالم الإسلامي.

وفي الفصل الثامن تنبيه إلى خطوط عامة في الاستراتيجية الإسلامية لمواجهة هذه التحديات المعاصرة؛ بما يُبطل كَيْدَها ويَرُدُّ إفْكَهَا في نحور أصحابها، ويؤمِّن الصحوة الإسلامية من غوائلها، ولتذكِّر بأهمية إعداد دراسة استراتيجية أكثر عمقًا في هذا المضمار.

وأخيرًا انتهت الدراسة في فصلها التاسع بمحاولة استشراف للمستقبل القريب، وإطلالة على مستقبل الحرب الباردة بين الغرب والإسلام.

وهذه الدراسة أعدت لكل مهتم بأمر أمته غيور على دينه راغبٍ في معرفة واجبه وعلى رأسهم القادة الميدانيون من العلماء والدعاة في معترك الصراع العَقَدي الأيديولوجي، والموجهون الرواد في طلائع العمل الإسلامي المرابطون على ثغور هذا الدين، وأهل الحل والعقد في الواقع المعاصر

وهذه الدراسة أعدت لكل مهتمٍ بأمر أمته غيور على دينه راغبٍ في معرفة واجبه وعلى رأسهم القادة الميدانيون من العلماء والدعاة في معترك الصراع العَقَدي الأيديولوجي، والموجهون الرواد في طلائع العمل الإسلامي المرابطون على ثغور هذا الدين، وأهل الحل والعقد في الواقع المعاصر من أصحاب المنهج السديد والرأي الرشيد والنظر لمصالح الأمة المحمدية؛ وذلك ليقدروا للخطر القادم قدره، وليعدوا للمعركة المقبلة بجدتها.

ومن أهم ما تهدف إليه هذه الدراسة: أن يُدَقَّ ناقوسُ خطرٍ واقعٍ أو متوقَّع يهدف إلى تحذير المسلمين جميعًا من الانحراف عن صحيح دينهم،

وصافي معتقدهم، ولتتأكد -من جديد- الدعوةُ إلى أهمية اجتماع أهل السنة في مواجهة أعدائها؛ ذلك أن الأعداء الحاليين للأمة الإسلامية لا يفرقون بين من كان ذا انتساب دعويٍ «سلفي» أو «إخواني» أو «جهادي» أو «تبليغي»، ولا يهادِنون جمعيات تنتسب إلى صحيح الدين، أو ترفع راية الكتاب والسنة؛ فالجميع لديهم أصوليون متطرفون! أو لِنَقُلْ -بعبارة أدق-: مسلمون!!

وهذه الدراسة التي ضمت في عنوانها قوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يُرجى أن يتبين من خلالها أهلُ الإسلام سبيلَ المجرمين والمفسدين من الكفار والمنافقين؛ ليقابلوا كيدهم بما يُذهبه، ومكرَهم بما يُبطله، مستعينين بالله ومقتدين بهدي رسول الله ﷺ، معتقدين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

وأخيرًا: فإن أمر حفظ الهوية الإسلامية جدٌّ لا هزل فيه، ومحاربة البدع -على اختلاف أشكالها وصورها- حقٌّ لا باطل فيه، والانتهاض في معركة الثوابت الإيمانية والحريات والحقوق الشرعية واجبٌ لا حراء فيه! والله أكبر على من طغى وتجبر، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

كتبه

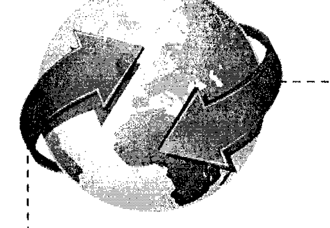
د. محمد يسري إبراهيم

القاهرة - مدينة نصر

غرة شهر صفر ١٤٣٢ هـ

٥ يناير ٢٠١١ م

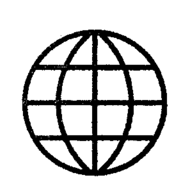
الفصل الأول



1

عقدة الصراع عند الغرب وعقيدته





عقدة الصراع عند الغرب وعقيدته

حقيقة شرعية تاريخية واقعية مدوّية على مرِّ العصور وكرِّ الدهور، قال عنها جلَّ من قائلٍ عليمًا: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧]، **وقال سبحانه:** ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[آل عمران: ١١٨] **فلا غاية تُرتجَى ولا نهاية تنتظر لهذه الحرب وتلك البغضاء إلاّ بالتحوُّل والارتداد عن دين الحق الظاهر القاهر، وقد قال تعالى:** ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[البقرة: ٢١٧].

وبطبيعة الأمر فإن ذلك العداء والشنآن الغربي للإسلام وأهله لا يمكن بحال أن يُردَّ تاريخه إلى أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام واحد وألفين ميلادية، أو إلى تنامي ظاهرة الرُّهاب من الإسلام «الإسلاموفوبيا»، أو حتى الحملات الصليبية الثمانية، والتي دامت لقرنين من الزمان (٤٨٩-٦٩٠هـ).

إن ذلك العدوان يبدأ تاريخه من بزوغ فجر الإسلام وتحرير الإنسانية -بتوحيد رب البرية- من طغيان الوثنية الرومانية، التي تزيَّت بزي المسيحية، فقدَّست الإنسان وعَبَدَتْهُ من دون الرحمن! فجاء حقُّ الوحي ليبطل عقيدة الضلال والغيِّ، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

ثم كرَّ الوحي المطهر على عقيدة التثليث بالنقض والإبطال؛ فقال ذو الجلال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[المائدة: ٧٣]، وهكذا مضى الوحيُ الشريفُ يهدم عقائدَ باطلة، ويمحو مناهج زائفة؛ **حتى قال قائلهم**: «فمن خلال تعميم مطلق غير محدود للتوحيد ألغى الإسلام -في حقيقة الأمر- أيَّ إمكان لتجسيد الطبيعة الإلهية، مع نفي تامٍّ لفكرة الثالوث المسيحية، وبذلك التوجه العقائدي حطم الإسلام النظام البنيوي-اللاهوتي- الذي كان مهيمنًا في التصورات المسيحية -لا سيما في العصر الوسيط- حول التكوين الإلهي للتاريخ، وحول التقديس وتجسيد الإله ذاته، وهكذا كان ظهور الإسلام بالنسبة للديانتين اليهودية والمسيحية نوعًا من التحدي الديني والتاريخي»[١].

(١) تأثير الإسلام على أوربا في القرون الوسطى، مونتغمري وات، موسكو، ١٩٧٦م، (ص٨: ١٠).

ولئن ذهبت د.كارين أرمسترونج[1] إلى أن الاتجاه العدائي ضد الإسلام في الغرب هو جزء من منظومة القيم الغربية؛ فإن القائد الإنجليزي «جلوب» (ت:١٩٨٦م) قال: «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد، وهو قرن بزوغ الإسلام»[2].

والحق أن الإسلام لو ظهر قبل ذلك بقرون لَلَقِيَ نبيُّه ﷺ وكتابُه المُنَزل نَفْسَ العداء من أتباع عقيدةٍ انحرفتْ عن مسارها، وخرجتْ عن هدي أنبيائها وما أنزله الله إليهم، فلا معنى إذًا للحزن والأسى، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المائدة: ٦٨].

والمتتبع للتاريخ الأوروبي والغربي القديم والمعاصر يقف على نفسية دموية عنيفة، تمارس إقصائية فكرية وعملية، تحتكر الحق ولا تمنح وكالة عنه لأحد كائنًا من كان!

والمتتبع للتاريخ الأوروبي والغربي القديم والمعاصر يقف على نفسية دموية عنيفة، تمارس إقصائية فكرية وعملية.

إن تاريخ الإغريق وتراثهم إنما قام على الخصام والصدام؛ فالآلهة الباطلة تتصارع لديهم حتى إنها لتبدو وكأنها في غرف عمليات عسكرية تحرك الجيوش على الأرض كقِطَعِ الشطرنج، ومطالعة ملحمتي: «الإلياذة» و«الأوديسا» لهوميروس يكفي في تأكيد هذه الفكرة[3].

---

(١) باحثة بريطانية في مقارنة الأديان وتعمل بوظيفة أستاذة الإسلاميات بجامعة فرجينيا بأمريكا، ولها كتابات منصفة عن الإسلام ونبيه ﷺ.

(٢) مقال بجريدة الشرق الأوسط عدد (٩٩١٣) في ١٤٢٦/١٢/١٨هـ نقلًا عن كتاب: «محمد» لكارين أرمسترونج.

(٣) الإلياذة، لهوميروس، دار العلم، الطبعة الخامسة ١٩٨٢م، بيروت، (ص ١٦، ١٧).

ولقد أثرت تلك الأساطير في الفنون الغربية على مر التاريخ، وكانت تلك الأساطير مصدر إلهام للأدباء والشعراء والمفكرين الذين قاموا بدورهم بإضفاء هالةٍ من القداسة عليها، وأصبح هذا التراث القديم هو الـمَعِين الذي يستلهم منه الأوروبيون الكثيرَ من الأفكار والسلوكيات في مجالاتٍ شَتَّى.

إن هذه الأساطير في الحضارة القديمة توضح أن فكرة الصراع لها جذورها المغروسة في التربة الغربية، وأنها غالبةٌ على ما عداها من قيم(١).

وبظهور الرومان ونشوء إمبراطوريتهم ارتفعتْ حِدَّةُ فكرة الصراع ودوَّى صوتها في تاريخهم، حتى غدتِ الإمبراطورية الرومانية أكبرَ دولة استعمارية في التاريخ القديم، ولقد اتسعت حتى امتد رواقها من شمال بريطانيا إلى البحر الأحمر والخليج العربي، ولـمَّا تحول الرومان إلى المسيحية -كَدِينٍ- قاموا بعسكرتها مباشرة، وذلك حين واجهوا تعاليم المسيحية الداعية للسلام والكارهة للصدام؛ فقام الصراع عنيفًا بين دعاة المسيحية، ورجال الحكم في روما، وانتهى الأمر بانقلاب المسيحية من دين متسامح إلى دين محارب على يد القديس «أوغسطين» (ت:٤٣٠م)، وذلك من خلال مؤلَّفيه:«العقيدة المخالفة» و«مدينة الرب».

حيث ساد اعتقاد بأن مملكة الرب لا تقوم في الأرض إلَّا باستخدام القوة العسكرية لفرض العقيدة الدينية!(٢).

ظهر على يد أوغسطين مصطلح: «الحرب العادلة» والذي بات الغرب اليوم يجد فيه المشروعية الزائفة في شن الحروب وتبرير العدوان.

وظهر على يد أوغسطين مصطلح: **«الحرب العادلة»** والذي بات الغرب اليوم يجد فيه المشروعية الزائفة في شن الحروب وتبرير العدوان، ولا شك أن الرومان قد

---

(١) الغرب أصل الصراع، عامر عبد المنعم، إصدار المركز العربي للدراسات الإنسانية، عـدد (٢) ذو الحجة ١٤٢٧هـ(ص١١).

(٢) أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية، د.حامد سلطان (ص ١٠٢).

تَبَنَّوْا سياسةَ الإقصاء والإبعاد والتمييز ضد من لم يدخل في المسيحية الجديدة حتى وصل الأمر إلى السجن والتعذيب والإعدام[1].

وامتدت عقيدةُ الصراع واستشرتْ عقدتُهُ ليقتتل الأوروبيون أنفسهم بعد ذلك، وليذيق بعضهم بأس بعض!

وعلى سبيل المثال فقد أدَّى مولد البروتستانتية مطلع القرن السادس عشر الميلادي إلى الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت لمدة قرن من الزمان!

حتى انتقلنا إلى الحربين العالميتين والتي راح ضحيتهما نحو سبعين مليون إنسان، وأضعاف ذلك من الجرحى والمعوقين.

كما انتقل الصراع وعقيدته مع المهاجرين الجدد الذين هاجروا فرارًا بدينهم من الاضطهاد المسيحي إلى الأرض الجديدة «أمريكا»؛ فقد هاجر «المتطهرون» من الإنجليز الأوائل إلى الولايات المتحدة حاملين معهم العقيدة الأكثر دموية في تاريخ البشرية، ومسلحين بفكرة الشعب المختار، مقننين فكرة الإبادة وكأنها -حسب روايتهم- إلهية!.

وقد مارس هؤلاء أَعْتَى ضروب القسوة والإجرام مع سكان البلاد الأصليين، وقد تعدَّدت الأرقام حول الضحايا الهنود الذين أُبيدوا على يد الرجل الأبيض، إلَّا أن إحدى التقديرات تشير إلى أن «عدد سكان الأرض في عام (١٥٠٠م) يبلغ نحو ٤٠٠ مليون نسمة، يسكن ٨٠ مليون نسمة منهم القارتين الأمريكيتين، وبحلول أواسط القرن السادس عشر تبقَّى من هذه الملايين الثمانين عشرة ملايين فحسب!

---

(١) صعود البروتستانتية الإيفانجليكية في أمريكا، د. محمد عارف، الشروق الدولية (ص١٩١، ١٩٢).

أما سكان المكسيك فقد تقلصوا إلى مليون بعد أن كانوا خمسة وعشرين مليونًا!!»[١]، وإن لم تكن هذه حرب الإبادة، فما هي إذًا؟!!

ولما فرغوا من سكان البلاد الأصليين عادوا على أنفسهم بالحرب الأهلية بين الولايات الأمريكية الشمالية والجنوبية حتى بلغ عدد القتلى من الطرفين ٦٢٠ ألفًا[٢].

كل ذلك يؤكد على هذه النزعة العدوانية المفرطة، والتي تجلّت في القرن العشرين بوضوح في استخدام السلاح النووي الفتّاك، وأسلحة الدمار الشامل ضد اليابان، والجيش العراقي في حرب الخليج الأولى، ودولة طالبان المسلمة بأفغانستان، والمدنيين في الفلوجة عقب الغزو الأمريكي للعراق٢٠٠٣م.

وهذه النزعة الإبادية العنصرية زادتها الحضارة المادية شراسة وعنادًا، وكما تجلَّت عسكريًا فقد تجلَّت هذه العقدة اجتماعيًا وثقافيًا وفنيًا، فالحضارات في حالة صدام دائم! وعلى سبيل المثل فإن السينما الأمريكية هي صانعة العنف عندهم باقتدار، والموسيقى الأمريكية هي أعنفُ أنواع الموسيقى وأصخبها بإطلاق، ورياضات الأمريكيين المفضَّلة على رأسها المصارعة الحرة، ورياضة الرجبي، وهي مصارعة أيضًا!!

فشعبٌ بهذه الروح العدائية هل يمكن أن يفهم غير سياسة القوة المادية، وأسلوب العنف؟!

---

(١) فتح أمريكا مسألة الآخر، ترمنيتان تودوروف، دار العالم الثالث (ص١٥٥)، «وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية»، للمطران برتولومي دي لاس كازاس من كتاب: «المسيحية والسيف» منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية (ص٢٦).

(٢) راجع موقع ساحات الطيران العربي ملف «الحرب الأهلية الأمريكية» على هذا الرابط: www.flying.com

وإذا اضطر المسلمون في تاريخهم القديم أو الحديث أن يدفعوا عن أنفسهم هذه الهمجية البربرية، وهذه العنصرية النازية الفاشية، فهل سيوصفون بالعداء والبغضاء، أم أن غيرهم هو الجدير بهذه الأوصاف![1].



يقول ريتشارد نيكسون: إن العداء للمسلمين هو الأمر الأكثر شيوعًا، والأسوأ صورة لدى جمهور الأمريكيين.

كتاب الفرصة السانحة

يقول الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه «الفرصة السانحة»: «إن العداء للمسلمين هو الأمر الأكثر شيوعًا، والأسوأ صورة لدى جمهور الأمريكيين».

ويقول -معللًا هذا الحكم-: «فكثير من الأمريكيين يتصورون أن المسلمين هم شعوبٌ غير متحضرة، ودمويون، وغير منطقيين، ويعتقدون أن سيوف محمد وأتباعه هي السبب في انتشار الدين الإسلامي في آسيا وأفريقيا، وحتى أوروبا...؛ ولذلك فإن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء...، وليس هناك صورة أسوأ في ذهن وضمير المواطن الأمريكي من صورة العالم الإسلامي».

ثم يغري بالحرب ويَدُقُّ طبولها فيقول: «ويحذر بعض المراقبين من أن الإسلام والغرب متضادان...، وأن الإسلام سوف يصبح قوة «جيوبوليتيكية» متطرفة، وأنه مع التزايد السكاني والإمكانات المادية المتاحة سوف يؤلف المسلمون مخاطر

---

(١) نشرت مجلة الإيكونومست عنوانًا على غلافها كتبت فيه: «الإسلام: الإيديولوجية البربرية المعادية للغرب!!». موقع الإسلام في صراع الحضارات، محمد السماك، (ص١٧).

كبيرة...، وأنهم يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب، وسوف يُضطرُّ الغرب إلى أن يتحد مع موسكو؛ ليواجه الخطر العدواني للعالم الإسلامي»[١].

ولقد ألقى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي السابق في ربيع ١٩٩٠م خطابًا أمام المؤتمر السنوي لغرفة التجارة الدولية قال فيه: «إن الجبهة الجديدة التي على الغرب مواجهتها هي العالم العربي الإسلامي، باعتبار هذا العالم هو العدو الجديد للغرب»[٢].

«إن الجبهة الجديدة التي على الغرب مواجهتها هي العالم العربي الإسلامي، باعتبار هذا العالم هو العدو الجديد للغرب» كيسنجر

وإذا كان ريتشارد نيكسون قد أعلن: «أنه ليست هناك صورة في ذهن وضمير المواطن الأمريكي أسوأ من صورة العالم الإسلامي»؛ فإن صناعة هذه الصورة -في الثقافة الغربية والضمير الغربي- سابقة على قيام إسرائيل، وحقبة النفط، وحركات الجهاد الإسلامي -بلا شك-.

يقول د. محمد عمارة: فالشهادات الألمانية تحدثنا عن أن الإفرنج منذ الحروب الصليبية -أي: قبل نحو ألف عام- كانوا يطلقون على العرب والمسلمين صفات الجنس الحيواني الحقير والكلاب والخنازير!

وهي الصفات التي لا تزال شائعة في صحافة الغرب المعاصر، وفي أفلام هوليوود![٣].

---

(١) الفرصة السانحة، لريتشارد نيكسون، ترجمة أحمد صدقي مراد، طبعة القاهرة ١٩٩٢م، (ص٢٨، ١٣٨، ١٤١، ١٥٢، ١٥٣).

(٢) موقع الإسلام في صراع الحضارات، محمد السماك (ص١٧).

(٣) في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، د. محمد عمارة، طبعة دار الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٣م، (ص١٤٠).

وإذا قال الغرب بفكرة صراع الحضارات الآن -كما روَّج فوكوياما[1] وهنتنجتون[2]، بل وكما أعلنها برنارد لويس[3] صريحة بأنها صراع أديان- أفلا يكون من حقنا محاكمة ثقافة وحضارة الغرب على أساس دورها الهدَّام للثقافات الأخرى، طبقًا للفكرة الملعونة (الشعب المختار) التي تم عبرها رفض الآخر وإنكاره حتى إبادته.

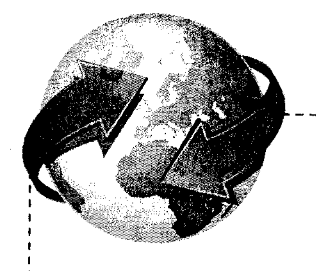
الغرب يرفض ويدين المختلفين، وهو بهذا الرفض للأشكال الإنسانية الأخرى يحمل أسباب انهياره النهائي، ويضع مستقبل الإنسانية في خطر حقيقي[4].



(١) فرانسيس فوكوياما أستاذ بجامعة هارفارد، صاحب كتاب: «نهاية التاريخ» أصدره عام ١٩٩٢م.
(٢) صامويل هنتنجتون كاتب استراتيجي يهودي أمريكي، صاحب كتاب: «صراع الحضارات» أصدره عام ١٩٩٢م، ثم أصدر كتابا آخر بعنوان: «من نحن» عام ٢٠٠٤م.
(٣) برنارد لويس مستشار البيت الأبيض الأمريكي، أكاديمي ومستشرق يهودي من أصل إنجليزي له كتب تحرض على العالم الإسلامي، منها: ما هو الخطأ الحادث في العلاقة بين الإسلام والغرب؟ وغيرها من البحوث والدراسات.
(٤) أمريكا طليعة الانحطاط، روجيه جارودي، دار الشروق، (ص١٤٢).



الفصل الثاني

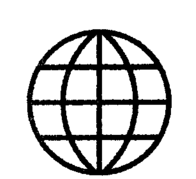


2

ملامح المنظومة الغربية...

محاولة للفهم





ملامح المنظومة الغربية... محاولة للفهم

إن التعرف على صورة الإسلام في الخطاب الغربي وثقافته وأدبياته يتحتَّم أن تسبقه محاولة التعرف على الغرب ذاته من خلال منظومة القيم التي تحكمه، والتضاريس الفكرية والثقافية التي تنشأ في محيط جغرافيته المتنوعة وغير المتجانسة، وهو أمر صعب وليس باليسير؛ وذلك لأن الغرب بمثابة فضاء معرفي جغرافي، حدودُهُ متغيرة ومتداخلة بسبب عناصره المتباينة، والتي تؤثر في الرؤية الأيديولوجية له، أما الإسلام فهو نَسَقٌ متكامل يقوم على قاعدة التوحيد، ومنظومة متكاملة الانسجام من المبادئ والقيم الحاكمة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان.

فالأبعاد الجغرافية تضيق عن احتواء مضامين هذا الدين الذي يصل الغيب بالشهادة، والدنيا بالآخرة، والدين بالحياة، والمخلوق بخالقه تعالى.

وقد تقدَّم أن الغرب يحمل في طياته التاريخية ثقافة صراع بين الإنسان وخالقه، وهي ثقافةٌ تنادي بموت الإله أو صَلْبِهِ؛ ليحل محله إله آخر هو الإنسان، فهي ثقافةٌ تحمل بذورًا إلحادية، وتوجهات وثنية!

أما رؤية الغرب اليوم لنفسه فهي جِدُّ متباينة ومضطربة، وهذا ينعكس بالضرورة على الموقف من الإسلام على الصعيد الأيديولوجي والفكري، وكذا الصعيد الإعلامي والثقافي، وذلك مع الخلفيات التاريخية والنفسية لدى الغرب.

ولعله من المفيد التعرف على تضاريس الغرب الفكرية ومكوِّناته الثقافية ومصادره الدينية والفلسفية؛ ليتمكن الباحث من رؤيةٍ دقيقةٍ وموضوعية لموقف الغرب من المنظومة الإسلامية بقيمها الحضارية الشاملة، وليجيب عن أسئلة ما يسمى (بالرُّهاب الإسلامي) أو (الخوف من الإسلام) (Islamophobia)، والتي قد تَرِدُ حول الموقف من الجهاد الإسلامي، أو العلمانية والديموقراطية، أو الحرية الدينية، أو المرأة... وغيرها من القضايا.

وفيما يلي أضواءٌ على مصادر ومكونات الثقافة الغربية بشيء من الاختصار:

أولاً: الفلسفة والحضارة اليونانية:

يتباهى الغرب ويتعاجب بأصوله الفكرية اليونانية القديمة، ويَعدُّون الفلسفة الغربية الحديثة بمثابة الحواشي على كتابات أفلاطون، ويعدون أرسطو واضعَ أسس التفكير العقلاني المنطقي.

والحضارة اليونانية كانت حضارة شرك وفحش، فلم يكن شركها منحصرًا في جانب الألوهية فحسب؛ بل كان شركًا في الربوبية أيضًا؛ فهذا ربُّ

للجمال، وثانٍ للحب، وثالثٌ للحرب!

وهذه الآلهة قَلَّ أن تتفق على أمر في أساطيرهم الإغريقية![1] فهو تراثٌ قائم على الخصام والصدام، فقد كان «زيوس» رب الأرباب -بزعمهم- لا يُكِنُّ حبًا لزوجته، وهي لا تثق في زوجها، وانقسما فيما بينهما في تأييد المتقاتلين من الإغريق والطرواد، ويحكي هذا التراث الإغريقي أنه مع اندلاع الحرب فقد «ثار بين الآلهة خصام عنيف، وراحوا يتصادمون تصادمًا تردَّد صداه في فسيح الأرجاء، فلما سمع بهذا «زيوس» دعا الآلهة إلى مجلس يعقد في أعالي ذرى الأولمب، وخاطبهم بأن كل من يسعى منهم إلى نصرة أي الفريقين من الإغريق أو الطرواد فسيضربه بصاعقة، أو يلقي به في مهاوي الظلمات»![2].

والحضارة اليونانية كانت حضارة فحش وعري، تشير إلى ذلك تماثيلهم المنحوتة، وصورهم المرسومة، وأساطيرهم المدونة، وقصصهم المسطَّرة الطافحة بصور الشذوذ الجنسي والانحراف الخلقي، والذي كان سمةَ ذلك المجتمع حتى في الصفوة من مفكرين وفلاسفة، وقد نُشر عدد من الكتب التي رصدت حالة التردي الأخلاقي عند اليونان من أهمها: كتاب «Greck homosexuality» للكاتب k.j.dover.

الحضارة اليونانية كانت حضارة فحش وعري، تشير إلى ذلك تماثيلهم المنحوتة، وصورهم المرسومة، وأساطيرهم المدونة، وقصصهم المسطَّرة الطافحة بصور الشذوذ الجنسي والانحراف الخلقي.

وغير خافٍ أن فكرة التحرر الجنسي في الغرب قد انطلقت من

---

(١) عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القيم الغربية، د. جعفر شيخ إدريس، بحث ضمن فعاليات وبحوث مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام بالكويت، (ص١١٨-١١٩).

(٢) الإلياذة، لهوميروس، (ص١١١).

سبعينيات القرن الماضي منطلقة مما يسمى بثقافة الجسد، والتي تعني: أن الجسد مِلْكٌ لصاحبه، يجوز له أن يتصرف فيه بالشكل الذي يراه مناسبًا له، وعن هذا نتج الانفلاتُ الجنسيُّ الجامح، وممارسة الجنس خارجَ أُطُرِ الأعراف أو التقاليد، وبعيدًا عن حدود الدين والأخلاق.

وكان مقدَّرًا لهذا الانفلات أن يفضي إلى نتيجة حتمية دَوَّنَتْهَا إحصائيةٌ رسمية فرنسية عام ٢٠٠٥م، حددت فيها نسبة الولادات خارج مؤسسة الزواج بـ ٤٨,٣٪[1].

ولا تزال تلك الضجة التي أثارتْها إحدى المجلات الفرنسية الأسبوعية ماثلةً أمام العيان، حين نشرت قائمة بأسماء عدد من النساء اللاتي قمن بالإجهاض عام ١٩٧١م في فرنسا وقتَ كان الإجهاض ممنوعًا منه تحت شعار: «بطوننا ملك لنا»، وأنهن في كفاح لِيَكُنَّ نسوةً دون أن يَكُنَّ بالضرورة أمهات!

وفي ظل هذا المناخ المتردِّي اعترفتْ أوربا وأمريكا بحقوق الشواذ جنسيًا بشكل متلاحق ومتسارع، فقد اعترفت الدنمارك بزواج المثليين عام ١٩٨٩م، ثم تبعتها بقية الدول الإسكندنافية، فهولندا عام ٢٠٠٠م، ثم ألمانيا عام ٢٠٠١م، وبلجيكا عام ٢٠٠٣م، وبريطانيا عام ٢٠٠٤م، وسويسرا عام ٢٠٠٥م، و فنلندا وإسبانيا عام ٢٠٠٥م.

وفي عام ٢٠٠٦م اعترفت محكمة النقض الفرنسية بحق الأسرة المثلية في أن تكون لها سلطاتٌ أبوية على غرار ما هو حاصل في الأسر التقليدية[2].

وهذا ما حدا بعدد من المفكرين الغربيين إلى التحذير من خطورة تردي الأوضاع الأخلاقية في الغرب، وتطرق الفوضى إلى هدم بنيان الأسرة الغربية[3].

---

(١) من قضايا الإسلام والإعلام في الغرب، د. عبد الكريم بوفرة، ط١، ٢٠٠٨م، وزارة الأوقاف الكويتية، (ص٣٤).

(٢) من قضايا الإسلام والإعلام في الغرب، د. عبد الكريم بوفرة، (ص٦٦-٦٧).

(٣) نتج عن تفسخ المنظومة الأخلاقية في المجتمع الغربي حالة من الفوضى وكان من ملامحها انتشار الزنا والدعارة ليس بين الكبار فقط، أو الشباب فقط؛ بل بين الأطفال من البنين=

وأصبح الجسد -وفق هذا المفهوم- مرتبطًا بانتماء وهوية جديدة، تؤكد على ذاتيةٍ وشخصيةٍ بعيدةٍ كلَّ البعد عن أية اعتبارات صحية أو اجتماعية أو دينية!

ثانيًا: الديانتان اليهودية والنصرانية:

اليهوديةُ والنصرانية دينان مُنَزَّلان بالتوحيد الخالص، ولقد تحوَّلَتا على يد من استأمنهم الله تعالى على وحيه إلى ديانتي شرك بالله.

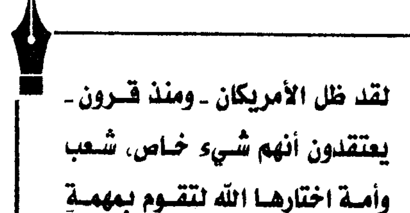
اليهوديةُ والنصرانية دينان مُنَزَّلان بالتوحيد الخالص، ولقد تحوَّلَتا على يد من استأمنهم الله تعالى على وحيه إلى ديانتي شرك بالله تعالى حين عبدوا مع الله غيره، وحين حرَّفوا كتاب الله تعالى، وأدخلوا فيه ما ليس منه، وكتموا ما أنزل الله على أنبيائه، وسرى في الديانتين فهمٌ مغلوطٌ لفضل الله المنزَّل على بني إسرائيل، حتى قالوا: نحن أبناء الله وأَحِبَّاؤه! وظهرت فكرة: «**شعب الله المختار**» لدى اليهود، وعنهم انتقلت إلى البروتستانتية النصرانية، حتى صارت هذه الفكرة دينًا متوارثًا ومنقولًا عن السابق إلى اللاحق!

وهي فكرة لم تختصَّ بها الشعوب البريطانية، أو الأمريكية، أو الأفريقية التي حكمت جنوب إفريقيا، فلقد ظل الأمريكان -ومنذ قرون-

---

= والبنات ومن ثم انتشرت الأمراض التناسلية وهذا دعا بعض المفكرين الغربيين إلى التحذير من تردي هذه الأوضاع المأساوية، فها هو ذا «باتريك جيه بوكنان» يصنف كتابًا يشي عنوانه بما هو مقبل عليه العالم الغربي من أفول شمسه فقد صنف كتابه موت الغرب (the death of the west) ذاهبًا فيه إلى أن الغرب وأوروبا وأمريكا يتجهان نحو الموت والفناء والذوبان؛ لأن مؤسسة الزواج والعائلة باتت عبئًا في ظل شيوع الثقافة الجنسية التي تلبي اللذة فحسب.

يقول باتريك جيه بوكنان -في كتابه موت الغرب ص ٩٦-: «هذا الزنا المتعدد غير المنضبط والطلاق على نطاق واسع وانفجار الكتابة العارية وشيوع فلسفة «بليبوي» في التيار العام وقيام دافع الضرائب بتمويل الإجهاض، وسيأتي يوم تستطيع فيه أن تقرأ في أمريكا عن فتيات في العشرين الثانية من أعمارهن يرمين مواليدهن الجدد في حاويات القمامة ويتركنهم في الثلج» ط ١، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية.



يعتقدون أنهـم شيء خـاص، شـعب وأمـة اختارها الله لتقوم بمهمةٍ فريدةٍ، بل خَيِّـرَةٍ في العالم، والرؤساء المنتخبـون يجنحـون إلى الدعوة إلى هذه الخصوصية ويؤكدونها.

ولقد كان «ويلسون» -الرئيس الأمريكي الثامن والعشرون في تاريخ أمريكا (١٨٥٦ – ١٩٢٤م)- يتبنَّى سياسة عالمية تقوم على تصدير النموذج الأمريكي إلى الجنس البشري قاطبة؛ لأنه «**نموذج إلهي**»!

حيث كان يعتقد جازمًا أَنَّ الله هو الذي أنشأ أمريكا، وأنه اختار الأمريكيين ليوضِّحوا الطريق أمام شعوب العالم التي تقود إلى الحرية، وانطلاقًا من هذا التصور يتحول الأمريكيون إلى «شعب الله المختار»[١].

وهذه «العنصرية» الدينية تعبر عنها النساء، كما عبر عنها الرجال سواء بسواء، تقول مادلين أولبرايت: «إننا معشر الأمريكيين أُمَّةٌ ترتفع قامتُها فوق جميع الشعوب، وتمتد رؤيتُها أبعدَ من جميع الشعوب».[٢]

وبطبيعة الحال فليس هنا من حرج أن يدعو أرباب كل فكرة صحيحة إلى فكرتهم، وأن يسلكوا مسلكًا رشيدًا في دعوتهم، ولكن المشكلة الكبرى والبليَّةَ العظمى هي في الانحراف عن شرائع الأنبياء، وتحريف الكتب المنزَّلة من السماء.

وبناءً على ما تقدَّم فقد انتهى تاريخ اليهود وتراثهم المحرَّف إلى جملة من الحروب والمحن المبنية على قطيعة كبرى بينهم، وبين شريعة موسى عليه السلام.

---

(١) حرب القيم، عبد الكريم بوفرة (ص١٥٠).

(٢) صحيفة الأهرام القاهرية ٣٠/١٠/٢٠٠١م.

انتهى تاريخ اليهود وتراثهم المحرّف إلى جملة من الحروب والمحن المبنية على قطيعة كبرى بينهم وبين شريعة موسى عليه السلام.

جاء في سفر حزقيال، إصحاح (١٧: ٢٠) في قول الرب لأورشليم: «أخذت بنيك وبناتك الذين ولدتهم لي وذبحتهم لها طعامًا».

وقد جاء في شرح هذه العبارة: «أهل أورشليم قد مارسوا كل عبادة الكنعانيين الفاسدة، كما مارسوا وثنية غيرهم من الأمم الوثنية كالآشوريين، والمصريين، والكلدانيين، والأموريين، والحيثيين، بل إنهم فاقوهم في ممارسة هذه الوثنية، حيث أخذوا بنيهم وبناتهم وذبحوهم للآلهة الوثنية طعامًا، بل وأجازوهم في النار».

ولقد تعرض اليهود -عبر تاريخهم- لذلك البلاء الذي أوقعه بهم ملك بابل «نبوخذ نصر الثاني [٦٠٥ -٥٦٢ ق.م]» والذي بلغ ذروته في محنة السبي البابلي [٥٨٦ ق.م].

وغني عن البيان أن العهد القديم مشحون بروح الانتقام والتدمير، وذلك كله باسم الرب! والذي صوروه محاربًا دمويًا وسمَّوْه: ربَّ الجنود! حتى كتبوا أوامر الرب بإحراق المدن وإبادة خضرائها وتشريد أهلها، وقَتْل رجالها، وسَبْي نسائها وأطفالها؛ لأنهم شعب مختار مقدَّس!!

جاء في سفر التثنية، إصحاح (٧: ١-٣، ٦- ٧، ١٤ -١٦): «سبع شعوب دفعهم الربُّ إلهك أمامك وضربتهم، فإنك تحرمهم [أي: تبيدهم وتدمرهم]، لا تقطع لهم عهدًا، ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم؛ لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك، قد اختارك الرب إلهك لتكون له شعبًا أخصَّ من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض... تأكل كل الشعوب الذين الربُّ إلهُك يدفع إليك، لا تشفق عيناك عليهم»!

«فقتلاهم تطرح، وجيفهم تصعد نتانتها، وتسيل الجبال بدمائهم، ويُغنِّي

كل جند السموات للربِّ الذي امتلأ سيفه دمًا!».

والحق أن شريعة نبي الله موسى ﷺ بريئة من كل نزعة عنصرية حاقدة، ومن كل لَوْثةٍ وثنيةٍ ضالة؛ فقد كان موسى عليه السلام من أحسن الناس قولًا وألينهم حديثًا وأَحْلَمِهم على الخلق.

ومن المسلَّم به أن كثيرًا مما دُوِّن عن الحروب في العهد القديم كان مجرد أساطير منقولة عما صوَّره «هوميروس» في إلياذته في القرن التاسع قبل الميلاد! وهو ما حدا ببعض الباحثين في العهد القديم أن يكتب قائلًا: «إننا أمام نصوص بشرية عبرية، تمثِّل إنتاجًا فكريًا للمجتمعات القديمة... ونصوص الحرب فيها إنما تنتمي إلى إنتاجات فكرية لكُتَّابِ العهد القديم، أكثر من كونها أوصافًا للحرب التي حدثت في الواقع والتاريخ»[1].

وإذا كانت مدونات اليهود تبلغ بضحايا الحروب رقمًا هائلًا خياليًّا، يُقطع بكذبه، وهو مليونا قتيل[2]؛ فإن جملة شهداء المسلمين وقتلى المشركين إبَّان العهد النبوي الكريم لم تبلغ بكل حال أربعمائة إنسان! [3].

وعندئذٍ لا يستكثر ولا يستشنع ما يفعله الصهاينة الدمويون بأهلنا في فلسطين من مجازر ومذابح بمرأى ومسمع من العالم بأسره!!

ولا شك أن النصرانية -بعد تحريفها وشَوْبها- قد تحولتْ عن وجهتها الأولى الرافضة للحرب الدينية وغير الدينية إلى وجهة طغتْ فيها النزعةُ العنيفةُ المادية على القول المنسوب لعيسى عليه السلام: «من لطمك على خدك الأيمن

---

(١) فلسفة الحرب في الفكر الديني الإسرائيلي، لروبرت كارول (ص ٧٨)، نقلًا عن الغرب والإسلام، د. محمد عمارة (ص١١٣).

(٢) الغرب والإسلام، أين الخطأ وأين الصواب؟، د. محمد عمارة ط١، ١٤٢٤ هـ، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة،(ص١١٤).

(٣) الدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر، تحقيق: د. شوقي ضيف، القاهرة ١٩٦٦م.

فحوِّل له الآخر أيضًا! ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضًا! ومن سخَّرك ميلًا واحدًا فاذهب معه اثنين!»[١].

ولقد تحوَّل تراث النصرانية الغربية -دون الشرقية- إلى تلك الطبيعة اليونانية المقاتلة، والتي كانت جزءًا من حياة روما اليونانية والرومانية، حتى إن الكنيسة الغربية قد تحالفت مع روما الاستعمارية ضد الكنيسة الشرقية، وهو ما دعا ميخائيل السرياني أن يقول: «لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة؛ ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل؛ لينقذونا من أيدي الرومان، وتَرَكَنَا العرب نمارس عقائدنا بحرية وعشنا في سلام»[٢].

لا ينسى الشرق المسلم حملات الصليبيين الحاقدة المدفوعة من الكنيسة الغربية الاستعمارية، والتي استمرت لقرنين من الزمان.

ولا ينسى الشرق المسلم حملات الصليبيين الحاقدة المدفوعة من الكنيسة الغربية الاستعمارية، والتي استمرت لقرنين من الزمان، حشد فيها البابا «أوربان الثاني» قوى أوربا ضد أهل الإسلام بزعم تخليص الأرض المقدسة! وخاطب من كانوا لصوصًا بأن يبقوا لصوصًا، ولكن في صورة جنود!!

وطاف «بطرس الناسك» حافي القدمين بتكليف من البابا أقاليم فرنسا مناصرًا البابا في دعوته ومناديًا إلى حملته.

وانتشر بينهم قول «أوربان الثاني»: «وهذا هو الحين الذي فيه أنتم تفدون

---

(١) إنجيل متى، إصحاح: (٥: ٣٨ — ٤١).

(٢) تاريخ مصر في العصر البيزنطي، د. حمدي أبو الخير، (ص٦٢)، ط: القاهرة ٢٠٠١م.

عن كثرة الاغتصابات التي مارستموها عدوانًا... ومن حيث إنكم صبغتم أيديكم بالظلم فاغسلوها بدم غير المؤمنين»[1].

فلما وقع المحذور واحتل هؤلاء الحاقدون مدينة القدس حكموا بقتل كل مسلم في المدينة لمدة سبعة أيام، حتى إن من احتمى بمسجد عمر بن الخطاب من المسلمين قتل في المسجد وارتفع الدم في المسجد إلى ركب الخيل[2].

ولا يفوت أن النصرانية الغربية فرضت عقيدتها بحد السيف، كما فعل«شارلمان» (٧٤٢-٨١٤م) في السكسونيين.

وكذا فعل «كنوت» في الدنمارك (٩٩٥ - ١٠٣٥م)، وفي المجر أرغم «شارل روبرت» (١٣١٦ - ١٣٧٨م) غير المسيحيين على التنصُّر، أو النفي خارج البلاد ١٣٤٠م، وفي الجبل الأسود ذبح «دانيال بيتروفيتش» غير المسيحيين -بمن فيهم من المسلمين- ليلة عيد الميلاد سنة ١٧٠٣م.

وما وقع بين الكاثوليك والبروتستانت لمدة قرنين متعاقبين من الزمان من مذابح قد كان مخزيًا بقدر ما كان مضحكًا، فقد اشتعلتِ الحرب لمدة قرنين كاملين ليذهب ٤٠٪ من سكان وسط أوربا ضحية الحروب الإحدى عشر، وليقتل فيها عشرة ملايين وفقًا لإحصاء فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨م)[3].

أما صفحة محاكم التفتيش - والتي امتدت لثلاثة قرون في بلاد الأندلس السليب من القرن الثالث

إن صفحة محاكم التفتيش - والتي امتدت لثلاثة قرون في بلاد الأندلس السليب من القرن الثالث عشر إلى السابع عشر - قد مثّلت تاريخ العار في الحروب الدينية بأسرها.

(١) تاريخ الحروب المقدسة في الشرق المدعوة حرب الصليب، مكسيموس مونرون، (٤١٣/١) ترجمة مكسيموس مظلوم.

(٢) المصدر السابق (١٧٢/١-١٧٣).

(٣) قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: عبد الحميد يونس، (٤/٣)، (٣٦/٤ - ٥٣) القاهرة ١٩٧١م.

عشر إلى السابع عشر- فقد مثّلتْ تاريخ العار في الحروب الدينية بأسرها.

وأما الحديث عن الحروب الحالية التي خاضتها الدول الغربية متحالفة مع أمريكا في العراق وأفغانستان بعد الحادي عشر من سبتمبر فسيكون لها مجال آخر!

لكن المقصود هنا أن نشير إلى أثر الديانتين اليهودية والنصرانية في العقلية الغربية بشكل عام، ومنهجية الدعوة إلى تلك الديانتين عند أتباعها بشكل خاص، وهو ما يشير إلى أسباب ودوافع كثير من الظواهر المؤلمة في الوقت الراهن من التطاول على الأنبياء والمقدسات، ويُظْهِر -بالضرورة- البَوْنَ شاسعًا بين من أُرسلوا بدينهم رحمةً للعالمين -ممّنْ يَعتبرون غيرهم من الأمم داخلين في أمة الدعوة أين كانوا وحيث وجدوا- وبين من يشنون حروب الإبادة باسم الصليب، لا باسم الله!

أين هذا كله من قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[البقرة: ٢٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف: ٢٩].

هذه هي الحقيقة المدوية، والقضية الواضحة لتلك الحروب القديمة والحديثة على حدٍّ سواء، هي صَرْف الناس عن الحق إلى الباطل وعن الإيمان الحق إلى الكفر، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾[البقرة: ١٠٩].

ثالثًا: حركات الإصلاح والتنوير:

نتيجة أنواع متعدِّدة من الانحرافات في موروثات الفكر الغربي فقد تفاقم الخلل في بنيان العقلية والممارسة الغربية، فتارة تحصل الثورة على أنظمة دينية بالية، وأخرى على أنظمةِ حُكْمٍ جائرة، وثالثة على قيم ثقافية وفكرية ومجتمعية بائدة.

ونتيجة لذلك عُرفت حركات تنوير وعقلانية في التاريخ الغربي عبر قرون مضتْ، حتى ليقال كثيرًا في تقسيم مراحل الفكر الأوروبي: «عصر التنوير».

وقد ارْتَدَتْ تلك الحركات ثَوْبَ تحرير العقل من الدين الكنسي المحرَّف

أولًا، ثم تطورت إلى المطالبة بالتحرُّر من كل دين، وصار مألوفًا أيضًا أن تقوم حركاتٌ على إعادة تفسير الدين وقراءته بشكل جديد، وإن لم يكن فيها تجديدٌ!

ومن غير جدال فإن القرن الثامن عشر هو عصر التنوير الأوروبي، ولقد برز فيه أمثال «فولتير» (١٧٣٤- ١٧٧٨م)، و«روسو» (١٧١٢- ١٧٧٨م) و«جوته» (١٧٤٩ - ١٨٣٢م) و«كانط» (١٧٢٤ - ١٨٠٤م).

ويعتبر «فولتير» أبرز رموز هذا التيار الذي عاش حياته في ظل دائرة الإنكار الكامل، والإلحاد التام، مقدِّسًا العقلَ بدلًا عن الدين، بل ومنتقدًا للدين ورموزه، ولما مال في أخريات حياته إلى التسليم بوجود إله رآه مختلفًا عن إله النصرانية.

وكان الإسلام ونبيه ﷺ مثالًا للتعصبِ والتطرف في فكره، فيقول: «إنني أصوِّر محمدًا متعصبًا، عنيفًا ومحتالًا وعارًا على الجنس البشري، الذي حَوَّلَ التاجر ليصبح نبيًا، مشرِّعًا وملكًا... محمد إنه يجسد خطر التعصب»[1].

كل ما سبق قد مَهَّدَ السبيل أمام العلمانية الإلحادية لتنتشر في أوروبا شرقًا وغربًا، وبما يمثل ثورة حقيقية على الدين ورموزه وثوابته وأصوله، في محاولة للتحرر من سلطان مطبق ومطلق لرجال دين فاسدين، ونظريات علمية ثبت بطلانها.

وظهرت للعلمانية تجلياتٌ شتى في الحياة الغربية والأوربية -كما في نظرية السيادة القانونية ذات الأصول الفرنسية- لتمثل العلمانية في ساحة القضاء والقانون والسلطة التشريعية.

وظهرتِ الديموقراطية في مقابلة الدكتاتورية السائدة في الاتحاد السوفيتي وغيره؛ لتكون نظامَ الحكم والسياسة، وإن أعطتِ البشرَ حقَّ الألوهية والتشريع وسلبتْه عن الخالق تعالى.

---

(١) لماذا يكرهونه، (ص٥٢-٥٣)، نقلًا عن: «حول مفهوم الشخصية» أ.ب كوبزيف، (ص٦٧٦).

ونشأت الليبرالية الغربية لتعظِّم حقوق الفرد وتُطلق حريته، ولكن تم تفسيرها لتؤدي إلى الرأسمالية، وهي عَلْمَنَةٌ اقتصادية.

ومن عجبٍ أن المذاهب الغربية جميعًا كانت تعنَى بفتح الطريق أمام التحرر العقلي والفكري؛ لتنتهي بالتحرر الجنسي !

ومن عجبٍ أن تلك المذاهب جميعًا كانت تُعْنَى بفتح الطريق أمام التحرر العقلي والفكري؛ لتنتهي بالتحرر الجنسي، والذي بلغ ذِرْوَتَهُ في ظل هذه الفلسفات الوجودية، والنزعات العقلية، التي دعتْ إلى تسويغ الفواحش وتزيينها، وإضعاف الأُسَر والمجتمعات، حتى قال قائلهم: إننا لم نعد نحتاج إلى عدوٍّ خارجي يهزمنا، بل نحن الذين نهزم أنفسنا بهذا النوع من الانتحار!

وهل تحتاج الديمقراطية إلى صناعة فحش مقدارها بليون دولار لتكون ديموقراطية حقًّا؟ وهل تحتاج إلى معدل إجهاض يبلغ عشرات الملايين؟[1].

ومن مظاهر الغرور والتعالي الجاهل: اعتقاد الغربيين -اليوم- أن كل حضارة وثقافة ودين لم تمرَّ -عبر تاريخها- بحركات من جنس حركاتهم الإلحادية، وانقلابات فكرية من جنس انقلاباتهم الأيديولوجية -فهي لم تصل إلى النضج الذي وصلوا إليه!

وأغرب من هذا أن يردِّد بعض المتغرِّبين من أبناء المسلمين لمقولاتهم، آملين أن يحصل هذا في الشرق المسلم!

الغرب المعاصر قد عمل ولعقود على دعم وتكوين تيارات إسلامية تتقاطع مع علمانية أو تتقارب مع ليبرالية ليخرج في النهاية المسلم العلماني، أو الليبرالي المسلم.

وليس بخافٍ على أحد أن الغرب المعاصر قد عمل -ولعقود- على دعم وتكوين تيارات إسلامية تتقاطع مع علمانية أو تتقارب مع ليبرالية

---

(١) عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القيم الغربية، د. جعفر شيخ إدريس، (ص ١٢٣-١٢٤).

ليخرج في النهاية المسلم العلماني، أو الليبرالي المسلم! بحيث يعاد فهم أصول الإسلام من جديد، وعلى نحو يكون فيه تجديد -بحسب زعمهم- فظهرتْ مصطلحات: «الإسلام العقلاني» وذلك بإعادة إحياء أصول أهل الاعتزال، والتوافق مع فلسفات الغربيين الإلحادية المعاصرة.

وأحيانًا أخرى طرح الإسلام العصراني أو الإصلاحي استنادًا للمدرسة الإصلاحية الحديثة، ومحاولة إيجاد زوايا التقاء ونقاط اقتراب.

وفي كل مرة تبرز رموز، وتظهر مؤسسات، وترتفع في سماء بلاد المسلمين لافتات تحمل شعارات الإسلام الأمريكي المعتدل حينًا، والمنكفئ أحيانًا أخرى!! ولكن الحصيلة لا تكون بقدر ما بذل من أموال، وما أنفق من وقت وجهد!

وفي كل مرة تبرز رموز، وتظهر مؤسسات، وترتفع في سماء بلاد المسلمين لافتات تحمل شعارات الإسلام الأمريكي المعتدل حينًا، والمنكفئ أحيانًا أخرى!! ولكن الحصيلة لا تكون بقدر ما بذل من أموال، وما أُنفق من وقت وجهد! قال الله تعالى: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وأخيرًا تنبَّه دهاقنة الإفك الغربي إلى أن ثمَّة من يدغدغ أحلامهم السخيفة ليبتز أموالهم ويستغفل عقولهم، فتغيَّرتِ الوجهةُ، وتحوَّلَتِ الدَّفة، ولكن إلى خيار آخر -كما سيأتي قريبًا-!.

رابعًا: العلوم والتقنية المعاصرة:

إن الثورة الصناعية وما تبعها من كشوفات ومنجزات وما ترتَّب عليها من تقنيات- كانت من أسباب تملُّك أَزِمَّة القوة المادية، وتحقيق الحياة الرغدة والرفاهية، ولكون ذلك تَرَافَقَ مع نزعات علمانية وإلحادية، فقد قوَّى من شأن تلك المذاهب،

ورفع بين الغربيين مِن قدرها، كما أنه -في ذات الوقت- قد حقق التفوق العسكري الغربي، وهو ما مكَّن من استعمار طويل لكثير من البلاد والعباد.

ولـمَّا كانت عقيدة الصراع تمثل عقدة كبرى في منظومة الفكر والقيم الغربية، فقد دعمت التقنية -بشكل مباشر- هذه التوجهات، وتحولت التقنية إلى فتنة حقيقية للغرب حين حملتهم على الإلحاد حملًا، وإنكارِ الأديان المعتمدة على الوحي الإلهي والإيمان بالغيب.

وعلى صعيد آخر: فقد نظروا لغيرهم من الأمم والشعوب نظرةً دونية، ومثَّل هذا فتنة من جهة أخرى حيث عزوْا تخلُّفَ الأمم -ومنها: الأمة المسلمة- إلى ارتباطهم بالدين وتمسُّكهم به، دون التعويل على عقلانية ومنطقية موروثة عن اليونان، وعليه فإن الفكر الخرافي عند غيرهم هو السبب في تخلفهم وتراجعهم.

انتهى الساسة الغربيون إلى أن القوة العسكرية هي العامل الحاسم في تحقيق أهداف وغايات السياسة الخارجية للدول الكبرى.

وانتهى الساسة الغربيون إلى أن القوة العسكرية هي العاملُ الحاسمُ في تحقيق أهدافِ وغاياتِ السياسةِ الخارجية للدول الكبرى، وبناءً عليه فقد استخدم الغرب آلته العسكرية للتوسع واستنزاف طاقات العالم العربي والإسلامي على حدٍّ سواء، وعملت جيوشه الغازية على التنكيل بحركات المقاومة والجهاد للاستعمار والمستعمر، لا فرق في ذلك لديهم بين مسلم وغير مسلم، وإلى الحد الذي سوَّغ لديهم استخدام السلاح النووي!

ولا شك أن نجاحاتٍ تحقَّقتْ جراءَ هذه الآلة العسكرية التقنية الباطشة، إلا أن هذا النوع من القوة لم يكن كافيًا لحسم جميع النزاعات، وتحقيق الغايات.

ولقد حاولت أمريكا -بكل آلتها العسكرية خلال الستينيات- أن تُخضع فيتنام فباءت بفشل ذريع، ولقيتِ الموت المريع، ولم ينسَ الأمريكيون دروس حرب فيتنام إلى اليوم!

وعلى دربها خاضت روسيا في الثمانينيات حربها الأفغانية -غير متَّعظة- والتي كان من نتائجها تقويض أركان الاتحاد السوفيتي وتحلله!

وحاول الصهاينة اليهود عام ١٩٨٢م غزو لبنان للقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية، وفرض تسوية مجحفة للصراع العربي الإسرائيلي، إلا أنها كانت محاولة محكومة بالفشل، وآلت إلى كثير من الخزي والعار.

غير أن الجانب الأكثر دلالة اليوم هو الفشل العسكري الأمريكي في العراق وأفغانستان في الحرب الشاملة، والتي كانت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر(١).

وبكل حال فقد بان جليًا أن القوة التقنية المتغطرسة والتي استعملت عسكريًا لم تكفِ أو تفِ بحسم صراعات مع دول أقل تقنية، وأضعف عسكريًا، وهو أمر أقرَّ به الغرب مؤخرًا؛ ليبحث في أنواع أخرى من القوة التي قد تفيد في حسم الصراع.

بان جليًا أن القوة التقنية المتغطرسة والتي استعملت عسكريًا لم تكف أو تف بحسم صراعات مع دول أقل تقنية، وأضعف عسكريًا.

ولا يفوتنا الآن أن نذكّر بملامح التفرُّد الإسلامي في منهج وأسلوب التعامل مع القوة، فهي لم تُستعمل إلا لغايات نبيلة ومعانٍ سامية، ترفع عن الناس آصار وأغلال الشرك والوثنية، وتتوق إلى عمارة الأرض وإقامة العدل،

---

(١) القوة العسكرية وحسم الصراعات، الولايات المتحدة نموذجًا، بشير عبد الفتاح، (ص٢٠-٢١)، المركز العربي للدراسات، عام ١٤٢٩هـ.

وتحترم حقوق الإنسان، وتحمي حرية أهل البلاد المفتوحة في ممارسة أديانهم وطقوسهم، وتحفظ على الناس كرامتهم.

وإذا كان المسلمون قد انتصروا في معارك حاسمة فإنه لم يُؤثر عنهم تنكيلٌ بخصومهم، ولا تخريبٌ لديارهم؛ وذلك لأن قوة أهل الإسلام لم تؤججها نزعاتُ هيمنةٍ، أو عقدة صراع، مثلما كان الحال لدى الغربيين.

لم يكن استنادُ أهل الإسلام في مواجهة خصومهم إلى القوة العسكرية فحسب، وإنما كان التعويل على القوة القلبية والمعنوية المستندة إلى توحيد ربِّ البرية.

ولم يكن استنادُ أهل الإسلام في مواجهة خصومهم إلى القوة العسكرية فحسب، وإنما كان التعويل على القوة القلبية والمعنوية المستندة إلى توحيد ربِّ البرية، وبهذا دَخَلَ الناس في دين الله أفواجًا، وآتت الحرب الإسلامية ثمارها البنَّاءة، ودخل أُناسٌ بالدعوة وقوة الحجة والإقناع في الإسلام أكثر ممن دخلوه بفتح البلاد عسكريًّا، وهكذا كان الحال في ماليزيا وأندونيسيا والفلبين، وكثير من عمق بلاد إفريقيا والهند.

وليس هذا تاريخًا يكتبه مسلم عن أمجاد أمته وواقع حضارته، وإنما هو ما سطَّره المنصفون من المستشرقين والمؤرِّخين، كما فعل توماس آرنولد البريطاني في كتابه: «الدعوة إلى الإسلام» والذي أصدره عام ١٩٨٦م.

وبعد؛ فإن كل تلك المكونات -على تنافُرها- قد عملت عملها في العقلية والنفسية الغربية فأنتجتْ ما يسمَّى بمنظومة القيم الغربية، والتي يَتَدَاخَلُ فيها التاريخُ بالحاضر، واللاهوت بالناسوت، والدين الإلهي بالدين الطبيعي، والحرب المشروعة بالبغي والعدوان.

وأيًا ما كان الأمر فقد مَثَّلَتِ العلمانية الغربية وما ارتبط بها من قيم وأفكار إطارًا فكريًا، وسياجًا ثقافيًا، ونظامًا قانونيًا، وإن كان هذا لا يمنع أبدًا من أن تُرصد تطوراتٌ جديدة على الساحة الدينية في الغرب اليوم، كَمَا أن رصد المواقف الجديدة من الإسلام يرتبط مباشرة بمواقف الغربيين من الدين بشكل عام.

ولما كانت وجهة هذا البحث ترتبط أصالةً بالموقف الغربي من الإسلام، والخطاب الغربي المعاصر على وجه أكثر تحديدًا- فإن عين المراقب لا تخطئ وجود أمور مهمة نشير إليها في إيجاز على النحو التالي:

أولًا: الحديث عن الإسلام في كتابات الغربيين لا بد أن يدخل في سياق عام يرتبط بمكانة الدين لدى تلك المجتمعات عمومًا، ومكانة النصرانية داخل المجتمعات الأوروبية على وجه خاص.

ثانيًا: الغرب ليس كتلة واحدة، وبالتالي فإن موقفه من الإسلام ونظرته إليه لن تكون واحدة أيضًا، ومع أن أهل الكفر -على تفاوت مِلَلِهِمْ- يجمعهم مصطلح: «الكفار» إلا أن عداوتهم متباينة الدرجات، قال الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾[المائدة: ٨٢].

فقانون العدل يقتضي التمييز بين الألوان المتداخلة، والتنبُّه إلى الفروق الدقيقة؛ مما يفيد في تحييد فئام، واستصلاح آخرين، وقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾[آل عمران: ١١٣].

ثالثًا: الإطار الفكري لأكثرية الخطاب الغربي عن الإسلام هو خطاب تبريريٌّ وتسويغي للغطرسة الغربية والهيمنة الظالمة التي يُراد فرضها على العالم

الإسلامي بأسره، وقد اتضح هذا المَعْلَمُ بشكل مباشر بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ الذي دعا «روبرت دريفوس» إلى أن يقول: «على الولايات المتحدة أن تَكُفَّ عن محاولة فرض أفضلياتها على الشرق الأوسط»[1].

فالرؤية الفكرية والثقافية والإعلامية تساند ما تصنعه الآلة العسكرية على الأرض، وعليه فلسنا بصدد أفكار نظرية فقط، أو صور سلبية فحسب.

رابعًا: ينزع الخطاب الغربي إلى أن يعتبر الغربَ مركزَ الكون! فهو مصدر الثقافة الوحيد، ومركز الفكر المطلق، وقطب الحضارة المنتجة.

وما على الآخر -أيًّا كان موقعه أو مكانه- إلا أن يستهلك هذه البضائع، أو يستنسخ تلك الأفكار.

حتى لو كان الآخر أبيضَ البشرة أوروبيَّ القسمات كمسلمي البوسنة، وألبانيا، وكوسوفا، والجبل الأسود، وتركيا... وغيرها.

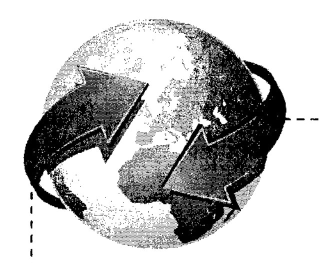
والحديث عن هذه المركزية يعبر عن توجهٍ استكباريٍّ استعماريٍّ يُحَوِّل الغربَ إلى نواةٍ للكون، يدور في فلكها أجرامٌ بشرية مغلوبة على أمرها.

ولأمر يتعلَّق بما نتحدث عنه ظهرتْ مصطلحات: «العالم الثالث» و«الدول النامية» و«نادي الكبار»، وغير تلك المصطلحات ذات الدلالة التي لا تخفى.



(١) لعبة الشيطان، لروبرت دريفوس، ط: دار الثقافة الجديدة، (ص٣٠).



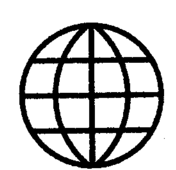


الفصل الثالث



ملامح ما قبل الحادي عشر من سبتمبر





ملامح ما قبل الحادي عشر من سبتمبر

لئلا يتوهم متوهم أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر هي المحرك الرئيس، والمؤجج الأول لما ترتب عليها من آثار لا بد وأن نقف بعض وقفات مع تصريحات وكلمات للقادة الغربيين على المستويين السياسيّ والدينيّ قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وليبق في الأذهان قولُ ربِّنا -قبل تلك الأحداث وبعدها-: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة: ١٢٠]، **وقوله تعالى:** ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾[الطارق: ١٥].

مواقف سياسية:

يقول المفكر الاستراتيجي «ريتشارد نيكسون» -قبل الحادي عشر من سبتمبر بسنوات عديدة-: «ويُحذِّر بعض المراقبين من أن الإسلام والغرب متضادان»، «وأن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية متطرفة». «وأنه مع التزايد في السكان والإمكانات المادية المتاحة سوف يؤلِّفُ المسلمون مخاطر كبيرة... وأنهم يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب... وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدواني للعالم الإسلامي»[١].

ويصف أهل الإسلام بأنهم: «هم المصممون على:

- استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بَعْث الماضي.
- والذين يهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية.
- وينادون بأن الإسلام دين ودولة.
- وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضي، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار»[٢].

مواقف دينية:

وهذا الاستعداء السافر للغرب على الإسلام وأهله، والذي يصدر عن رئيس أكبر دولة في العالم يتجاوب معه استعداءٌ صادرٌ عن أكبر قساوسة العالم!

فهذا الكاردينال «بول بوبار» مساعد بابا الفاتيكان، ومسئول المجلس الفاتيكاني للثقافة، يقول في حديثه لصحيفة: «الفيجارو» الفرنسية -وذلك

(١) الفرصة السانحة، للرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون، (ص١٥٢ - ١٥٣).
(٢) الفرصة السانحة، (ص ١٤٠).

قبل الحادي عشر من سبتمبر بعامين اثنين-: «إن الإسلام يشكل تحديًا بالنسبة لأوربا وللغرب عمومًا»[1].

وقال المونسيور «جوزيبي برناrديني»[2]: «إنَّ العالم الإسلامي قد بدأ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط... وهو يبني المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين في الدول المسيحية؛ فكيف يمكننا ألَّا نرى في ذلك برنامجًا واضحًا للتوسع وفتحًا جديدًا»[3].

لقد قال هذا الكلام في حضرة بابا الفاتيكان وتناقلته الصحف ووسائل الإعلام.

وإذا كانت هذه هي تصريحات الساسة والقادة الدينيين؛ فإن المتوقع من الإعلام الغربي أن ينطبع بهذه البصمة المشوِّهة للإسلام والمستعدية على أهله.

مواقف إعلامية:

ولقد نَحَى الإعلام الغربي مناحي عدةً ليشوه الصورة، بل ليقدم صورة مختلفة تمامًا عن الإسلام لدى الغرب، ومن تلك الأساليب ما يلي:

١- **التخويف من الإسلام: وذلك عبر عناوين صحفية وإعلامية، نحو:**

- ماذا لو تـملَّكت الدول الإسلامية القنبلة النووية؟
- الإسلام هو العدو المقبل بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.
- الإسلام يناقض الأديان الغربية، وينسفها من الجذور.

٢- **التخويف من المسلمين: وذلك عبر عناوين أكثر إثارة، نحو:**

- الدين الأكثر انتشارًا في أوربا هو الإسلام.

---

(١) انظر مقال الدكتور محمد عمارة: ظاهرة القمص زكريا بطرس.. لماذا؟، منتديات أتباع المرسلين، على هذا الرابط: www.ebnmaryam.com/vb/t.html8368

(٢) التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي، الترجمة العربية لوثائق مؤتمر كلورادو، (ص٧٧٠) طبعة: مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ١٩٩١م.

(٣) صحيفة الشرق الأوسط ١٣/١٠/١٩٩٩م.

- المواليد المسلمون هم أكثر المواليد في العالم اليوم.
- المسلمون المقيمون في الغرب كأقليات ينافسون على الوظائف، ويزاحمون الغربيين عليها!
- أوروبا إسلامية ٢٠٢٠م.
- الاغتيالات التي تعرض لها مواطنون غربيون في بلاد الإسلام يمكن أن تتطور وأن تتسارع!

مما سبق يتضح أن الصورة الإعلامية عن الإسلام قبل الحادي عشر من سبتمبر صورةٌ منفِّرة، حيث وُصف المسلمون بأوصاف همجية، إلا ما قلَّ وندر.

وقد استخدمت العناوين المثيرة والمخيفة مع التكرار والاجترار لأحداث العنف في محاولة لربط الإسلام بالإرهاب، بحيث صار التطرف والإرهاب صناعة إسلامية!

كما سعى الإعلام الغربي إلى الضرب على وتر المشاعر والأحاسيس الإنسانية، واستخدم عبارات موحية، واستُعملت الآلةُ الإعلامية لتضخيم أخطاء الجالية المسلمة التي تعيش في الغرب.

كما عُنِيَ الإعلام الغربي بتسويق مجموعة من الشعارات والمفاهيم والصور المغلوطة عن الإسلام، ومن ذلك:

- الإسلام دين العنف والإرهاب.
- المسلمون يعبدون إلهًا مختلفًا.
- الإسلام ضد حرية الاعتقاد.
- الإسلام يظلم المرأة.
- الإسلام ضد الحرية والديمقراطية.

- الإسلام دين بربريٌّ رجعيٌّ.
- الإسلام يعادي السامية.

إلى غير ذلك من الشعارات الإعلامية المكذوبة.

مواقف تعليمية وعلمية وتنصيرية:

وأما موقف مناهج التعليم في الغرب من الإسلام فكان لها النصيب الأكبر في تشكيل عَقْل الناشئة بصورة منحرفة ضد الإسلام وثقافته وحضارته وتاريخه.

«وقبل تدوين أية ملاحظات حول مسألة عرض الإسلام في المناهج الغربية تجدر الإشارة إلى أن هذه المناهج قد تأثرت وبشكل مباشر بما خلَّفتْه الحركة الاستشراقية من تراث، والذي يمتد إلى قرابة قرنين من الزمان، وخلَّف نحوًا من ٦٠,٠٠٠ كتاب عن الشرق المسلم»(١).

«لا ريب أن أصدق مفهوم للاستشراق هو العلم في خدمة السياسة والاستعمار، وهدفه إذابة الشخصية الإسلامية».
أنور الجندي

ولا ريب أن أصدق مفهوم للاستشراق هو العلم في خدمة السياسة والاستعمار، وهدفُه إذابةُ الشخصية الإسلامية، وتغييرُ ما بنفس المسلمين من إيمان بالإسلام ومُثُلِه، ونُظُمِه ولغته وحضارته، والتنكر لكل هذا، وقطع الصلة بين المسلم، وبين دينه وربه ونبيه(٢).

وحركة التنصير هي صنو حركة الاستشراق في تشويه صورة الإسلام.

وحركة التنصير هي صنو حركة الاستشراق في تشويه صورة الإسلام،

---

(١) Orientalism and the west: An attack on learned Ignorange Time April

(٢) الإسلام والدعوات الهدامة، أنور الجندي، طبع: المختار الإسلامي، القاهرة ١٤١١هـ (ص ٢١).

فقد كان المنصِّرون روَّادًا في مهنة التعليم في الغرب؛ حيث كانت المدارس في أوروبا تقام في الكنائس، وفي أمريكا تولَّى مهمة التعليم الآباءُ المنصرون الفارُّون بدينهم من الاضطهاد الذي لقوه بأوروبا، وقد كان في طليعة أهدافهم تشويه مواد الدراسات الإسلامية، حتى يقطعوا الطريق على الإسلام، وكان عليهم أن يصوِّروا العقيدة الإسلامية بصورة منكرة؛ حتى يبذل مواطنوهم أقصى جهد لتنصير المسلمين، وإنقاذهم من هذا الدين الوثني، كما يصورونه لهم[1].

وفيما يلي عدد من الملاحظات حول موقف المناهج الدراسية في الغرب من الإسلام:

- في دراسة علمية أعدَّها كل من «سوزان دوغلاس» و«روس دون» بعنوان: «تفسير الإسلام في المدارس الأمريكية» استعرض الباحثان محتويات ستة كتب تعليمية تعرضت للإسلام ودُرِّست للطلاب من الصف السادس إلى الثاني عشر.

وقد أشارت الدراسة إلى أن الطالب فيما سبق كان يتخرج من الدراسة الجامعية لا يعرف شيئًا عن الإسلام، إلَّا أن تحسنًا طرأ في هذا الاتجاه بعد تغير في الدستور الأمريكي سنة ١٩٨٨م الذي سمح بتدريس الأديان كافة في المناهج التعليمية، فنال الإسلام حظًّا من ذلك الاهتمام.

ولكن الذي ورد في هذه المناهج الدراسية يثير عجبًا، حيث قيل: إن الإسلام نسخة معدلة عن الديانتين اليهودية والنصرانية، وقطعت الصلة بين الإسلام والمسلمين من جهة، وبين إبراهيم عليه السلام من جهة أخرى، ثم حملت هذه الكتب على انتشار الإسلام على أساس كونه لم ينتشر إلَّا بالسيف! وأنه يضطهد غير المسلمين، ويصادر حقوق المرأة، وفي نفس الوقت لا تذكر تلك

---

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، د. مصطفى الخالدي، د.عمر فروخ، المكتبة القصرية، صيدا، ١٩٧٧م، (ص ٣٩-٤٥).

المناهج عن حضارة الإسلام شيئًا!!

وقد علَّق الباحثان على أن هذه الكتب حين تنصف الإسلام فإنها تكتفي بذكر حقائق جافة، ولا تعطيها التفسير الصحيح اللائق، حتى إنها تصور عبادات المسلمين على أنها جزء من بقايا الوثنية، وهو ما يتطابق مع كلام المستشرقين القدماء(1).

وفي دراسة أعدها: «د. مايكل سليمان» أستاذ العلوم السياسية بجامعة «كنساس» بأمريكا بعنوان: «تأثير المقررات الدراسية في الثانوية على تكوين المخيلة الأمريكية لشعوب الشرق الأوسط»، ومن خلال استطلاع إحصائي لآراء الأساتذة والطلاب في المدارس الثانوية في ست ولايات أمريكية انتهى الباحث إلى أن هذه الشريحة يعبرون عن آراء تعميمية سلبية عدائية عن الإسلام والمسلمين، وقلَّما يعبرون عن آراء إيجابية.

وقد نقل في دراسته قول بعضهم في تعريفهم للإسلام: «إنه دين زائف»، أو «إنه الإيمان الذي يعوق التفكير الخلَّاق»، أو «إنه الدين الذي يسبب تخلفًا في نمو نهضة أتباعه».

أما تصور الطلاب للمسلمين فهو أنهم «قوم يحبون الحروب بطبيعتهم»، أو «قوم متدينون مخدوعون من رجال الدين»، أو «أنهم أصحاب الدين العجيب غريب الأطوار».

وفي دراسات أخرى عُنيت بالمناهج الدراسية الأوروبية في ذات المراحل، ظهر أن المناهج في إنجلترا تميل إلى تجاهل المسلمين، وتبخيس معطياتهم

---

(1) Susan L. Duglass and Rosse. Dunn «Interpreting Islam in American Schools» The Annual of American academy of political and social sciences p. 588 july 2003 p.620

الحضارية، وأن تحسنًا ملحوظًا قد بدا في المناهج الفرنسية، في حين أن المناهج الدراسية الألمانية لا تزال مشبَّعة بنزعة عدائية شديدة تجاه الإسلام وأهله، بتأثير التراث الاستشراقي الذي خلَّفه أمثال: «جوزيف شاخت» و«أوغست فيشر»، ولوحظ الاستخفاف بالإسلام وتاريخه وثقافته في المناهج البلجيكية، وأما المناهج في كندا فإن سياستها الصارمة في هذا الأمر هي الحيادية التامة، فهي تطبق علمانية لا تبيح لمؤلفي الكتب المدرسية أن يتهجموا فيها على أي دين -بما في ذلك الإسلام-[1].

وأما في الجامعات الغربية فإن دراسة الإسلام فيها يرجع إلى القرون الوسطى، وهذا تاريخ له دلالته وتوجهه، الأمر الذي صبغ الدراسات القديمة بصبغة تحريف وتشويه وافتراء، إلا أنه وبالجملة قد بدأت هذه المناهج بالتغير وإحلال الكتب الجديدة مكان القديمة، وهذه سياسة تنتهجها الجامعات الغربية عمومًا، مما أدى إلى تكاثر نسبي في الكتب المحسنة؛ الأمر الذي سيؤدي إلى مزيد من التحسن في نظرة الغربيين إلى الإسلام وأهله.

وعمومًا فإن كتب الدراسات الجامعية تدور محاورُها حول القضايا التي يهتم بها الغربيون عادةً، مثل: قضايا الجهاد، والفلسفة، والتصوف، والمرأة، وما يدعونه «بالوهابية» هي الأكثر عناية من قِبل هذه المقررات، في مقابل ضعف ظاهر في دراسة السنة والسيرة والتشريع الإسلامي.

وفي الأدب الغربي القديم وقصص وأشعار ومذكرات الرحالة يعدون ما يسمونه بالشرق الأوسط مكان الغموض والمكائد، يسكنه أناس غير

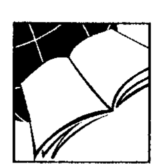
---

(١) يراجع: الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة، د. محمد وقيع الله، ط١ عن جائزة الأمير نايف للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، ١٤٢٦ هـ (ص ٦٩-١٦٥).

متحضرين وغير مؤمنين، وأصحاب مكيدة، ومسلمون، ومحمديون، وغير متمدِّنين، وغير مهذبين، وأنها أرض القراصنة والأتراك! وهو اصطلاح يَنُمُّ في الغرب حتى اليوم عن الازدراء[1].

يبدو جليًّا أن ثمة أسبابًا دينية عقديَّة، وأخرى تاريخية، وثالثة فكرية وثقافية- تقف وراء هذا العداء المتجذر في عقلية الغرب.

مما سبق يبدو جليًا أن ثمة أسبابًا دينية عَقَدِيَّة، وأخرى تاريخية، وثالثة فكرية وثقافية- تقف وراء هذا العداء المتجذِّر في عقلية الغرب، وهذا القدر يكفي في القطع بأن ما نَجَمَ عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر من تداعيات وسلبيات ليست إلا دفعة قوية في نفس الاتجاه المتسارع من البغضاء والعداء للإسلام وأهله.



(١) لعبة الشيطان، لروبرت دريفوس، (ص٢٠).



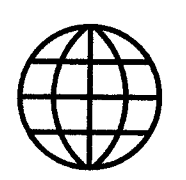
الفصل الرابع





الحدث الجلل ونقطة التحول الفارقة





الحدث الجلل ونقطة التحول الفارقة

تمهيد وتوطئة:

لا اختلاف على أنَّه بسقوط الشيوعية وانتهاء صلاحية شعار: (الروس قادمون) قد انتهى الجهاد والكفاح المشترك بين الغرب والعالم الإسلامي ضد الشيوعية في أفغانستان، وليس في هذا من عجب، وإنما العجب من أنه بمجرد تحقيق هذا الهدف قد سارع الغرب بإعلان الإسلام عدوًّا جديدًا! وذلك قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر بأكثر من عشر سنوات، وذلك حين دعاه مبكرًا داهية الغرب «نيكسون» بالخطر الأخضر الذي ينوب عن الخطر الأحمر.



ومما لا شك فيه أن الإسلام المقصود بالحرب ليس هو إسلام العقلانية، أو العصرانية، أو الشعوذة والخرافة، أو الفِرَق أو الطرق! وليس أصحابه بطبيعة الحال من المتسولين على موائد الغرب أو الشرق، وإنما هم «المصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضي... والذين يهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وينادُون بأن الإسلام دين ودولة، وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضي فإنهم يتخذون منه هدايةً للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوارٌ!»[1].

مما لا شك فيه أن الإسلام المقصود بالحرب ليس هو إسلام العقلانية، أو العصرانية، أو الشعوذة والخرافة، أو الفِرَق أو الطرق!

ومثل هذه التصريحات -والتي سبق طرفٌ منها- تُظهر بجلاء أن الحرب ليست على إرهاب يُنسب إلى الإسلام، ولا على جماعات تتبنى الجهاد، أو حتى تدين بالعنف! إنما هي حرب على إسلام العقائد والثوابت والأصول والمبادئ.

إنها حرب على الإسلام المقاوِم للهيمنة الغربية، والاستعمار، والعلمنة في جميع الميادين، وشتى مناحي الحياة.

إنها حرب على الإسلام المقاوِم للهيمنة الغربية، والاستعمار، والعلمنة في جميع الميادين، وشتى مناحي الحياة.

إرهاصات وبدايات:

إن محاولة التأريخ لهذا التوجُّه الجديد ضد الإسلام يرتبط بشكل مباشر بمعتقدات عُبر عنها بمصطلحات متعددة، منها:

ما يسمى «بالنظام العالمي الجديد»، وهو مصطلح دَشَّنَه الرئيس الأمريكي جورج بوش في خطابٍ وجَّهه إلى الأمة بأمريكا بعد أسبوع

---

(١) الفرصة السانحة، لريتشارد نيكسون، (ص ١٤١، ١٥٢، ١٥٣).

واحد من إرسال القوات الأمريكية إلى الخليج في أغسطس ١٩٩٠م.

وبانهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١م، وانتهاء الحرب الباردة، وتقلص مرحلة ونظام ثنائية القطبية- تبدأ مرحلة القطب الواحد، وتبدو أمريكا في دور شرطي العالم، وصاحبة الصلاحيات المطلقة في مهاجمة الدول الأخرى بسبب وبدون سبب[١]!

ونتج عن هذا النظام العالمي الجديد تراجعٌ في دور الأسلحة النووية في الصراع، وتفكيك حلف «وارسو» في مقابل تعزيز حلف «الأطلسي»، ووجود عسكري أمريكي في مناطق كثيرة من العالم على شكل قواعد عسكرية، وسفن حربية في مناطق المصالح الأمريكية، مع تراجع ملموس في دور المؤسسات الدولية في حل القضايا الدولية، وانطلاق لهيمنة الشركات الاقتصادية الضخمة متعددة الجنسيات، وعابرة القارات، مع التحول إلى مفهومِ **«العالم قرية صغيرة»** إعلاميًا، وتسويقٍ ظاهرٍ لعولمةٍ في الأفكار والتوجُّهات وأنماط السلوك، وتفعيلٍ لسياسات المقاطعة الاقتصادية والعزل والحصار لتأديب الدول المتمردة، واحتكارٍ غربيٍّ شبهِ كاملٍ للتقنية في مجالات حيوية كثيرة، وازديادٍ متنامٍ للفقر والتخلف فيما يسمى بدول العالم الثالث والدول النامية.

ويأتي -متزامنًا مع ذلك كله- صعود نجم ما يسمى «بالمحافظين الجدد»[٢] والمعتنقين لفكر الأصولية الإنجيلية المتشددة، والتي غدا الرؤساء والإدارات الأمريكية تدين بدينها البروتستانتي التوراتي المتعصب لليهود والصهيونية معًا،

---

(١) ضحايا بريئة للحرب العالمية على الإرهاب، د. محمد السلومي (ص٣٣)، ط١، ١٤٢٦- الرياض.

(٢) المحافظون الجدد: مصطلح ظهر عام ١٩٢١م، يُطلق على مجموعة سياسية متطرفة من اليمين المسيحي، تؤمن بأمريكا قوة عالمية ضاربة، وتميل بشدة إلى الصهيونية، وتتحالف مع إسرائيل، ويعد كل من «ديك تشيني» و«دونالد رامسفيلد» و«بول ولفيتيز»، و«دانيال بابيبس»، و«صامويل هنتنجتون» و«فرانسيس فوكوياما»، و«برنارد لويس» من أبرز رموزهم المعاصرين.

وعلى هذه الخلفية تُفَسَّرُ مواقف الإدارات الأمريكية المتعاقبة من القضية الفلسطينية والاعتداءات اليهودية على الأقصى، ولقد غدت السياسة الأمريكية الحالية تنطلق من فكرة ضرورة القيام بحرب صليبية عالمية جديدة، يكون لواءُها الإنجيل، والعدو فيها هو القرآن![1]

> **«لقد غدت السياسة الأمريكية الحالية تنطلق من فكرة ضرورة القيام بحرب صليبية عالمية جديدة، يكون لواؤها الإنجيل، والعدو فيها هو القرآن».**
> محمد يسري
> التطاول الغربي على الثوابت الإسلامية

وهذا التيار كما يتربع على عرش أمريكا فإن له أنصاره في أوروبا بأسرها، حتى إن رئيس فرنسا الحالي «نيكولا ساركوزي» من المعتنقين لمبادئه والمدافعين عنها![2]

ولقد نُشرت عام ٢٠٠٠م، وقبل سنة من أحداث الحادي عشر من سبتمبر وثيقةٌ بعنوان: «إعادة بناء دفاعات أمريكا»، أصدرتْها منظمة يقودها عدد من الشخصيات المهمة في إدارة الرئيس بوش، وكانت قد أطلقت برنامجًا بعنوان: «من أجل قرن إمبراطوري أمريكي جديد»، وتناولت تلك الوثيقة مطالبةً بزيادة الإنفاق العسكري؛ لأن السلام ينبغي أن يرتكز على أساسٍ آمنٍ هو التفوُّق العسكري الأمريكي المطلق، ويمكن لهذا التحول أن يحدث بشكل أسرع إذا تعرضت أمريكا لحدث كارثيٍّ محفزٍ، مثل: «بيرل هاربر» جديدة!

ومن اللافت للنظر: أنه بعد أحداث ١١ سبتمبر قال الرئيس الأمريكي بوش: «إنها شكلت بيرل هاربر جديدة»[3].

---

(١) التطاول الغربي على الثوابت الإسلامية، د. محمد يسري، ط١ ١٤٢٨ هـ، دار الصفوة، القاهرة (ص١٩-٢٢).

(٢) من قضايا الإسلام والإعلام في الغرب، د. عبد الكريم بوفرة (ص٩٢).

(٣) مقال، للكاتب إبراهيم غرايبة، بعنوان: «نهاية الحرب على الإرهاب بموقع الجزيرة بتاريخ الاثنين ١٤٢٧/٩/٢٤ - الموافق ٢٠٠٦/١٠/١٦ م.

ملحوظات حول الحدث:

بوقوع كارثة الحادي عشر من سبتمبر وجد العالم الإسلامي نفسه يسدد فاتورة ثقيلة التبعات، ففي مقابل برجي التجارة سقطت دولتان مسلمتان تحت وطأة الاحتلال الأمريكي السافر، وأبيد عشرات الألوف من أهل الإسلام، وامتد البلاء إلى سائر بلاد العالم الإسلامي بشكل ظاهر وبصور متنوعة، حتى كتب الأكاديمي والمحلل الأمريكي «بول كروجمان» في «النيويورك تايمز» منتقدًا: «ندرك اليوم أنه منذ البداية لم ترَ إدارة بوش -ومعها حلفاؤها في الكونجرس- أن تهديد الإرهاب معضلة يجب حلها؛ بل سانحة سياسية يجب استغلالها»[1].

فقد جاءت هذه الأحداث متسقة مع الرغبة الأمريكية العارمة والخطة الاستراتيجية الجامحة لتسلُّم زمام السيطرة على العالم.

وبات مؤكدًا اليوم أنه لو لم تقع أحداث الحادي عشر من سبتمبر من تلقاء نفسها لوجب تنظيم وقوعها[2].

«بات مؤكدًا اليوم أنه لو لم تقع أحداث الحادي عشر من سبتمبر من تلقاء نفسها لوجب تنظيم وقوعها».

وإن كان من ملاحظة حول مرتكبي هذا العمل -وفق ما صدر من رواية رسمية للحدث في يوليو ٢٠٠٤م، وبعد قرابة ثلاث سنوات- فإن مرتكبي الحادث غير مقطوع بأشخاصهم، ولا هوياتهم عند الغرب أنفسهم؛ فقد كتب «ديفيد راي جريفين» كتابًا بعنوان: «تقرير لجنة ٩/١١: إسقاطات وتحريضات».

---

(١) جريدة الشرق الأوسط، مقال بعنوان: ١١ سبتمبر المفصل الكارثي في تعايش الحضارات، للكاتب: إياد أبو شقرا، العدد ١٠١٤٩، بتاريخ ١٧ شعبان ١٤٢٧ /١١ سبتمبر ٢٠٠٦م.

(٢) «هل كانت أحداث ١١ سبتمبر الأمريكية مؤامرة»، مقال لفرغلي هارون في ٢٠٠٨/٩/١٠م، بمجلة ديوان العرب الإلكترونية.

ويذهب الكاتب والمؤرخ السويسري «دانييل جانزر» -المتخصص في أبحاث الحروب السرية والسلام- إلى تأكيد حقيقة أن النظريات التي خرجت في أحداث الحادي عشر من سبتمبر إنما هي نظريات مؤامرة، سواء أكانت مؤامرة إسلامية بعيدًا عن عِلم أمريكا، أو كانت بعلم أمريكا، وقد تركتها لتمضي كي يتم استغلال الحدث سياسيًا وعسكريًا، وليتمكنوا من شن الحروب التي تم التخطيط لها مسبقًا.

إلا أن كثيرين يذهبون إلى النظرية الثالثة وهي التي توجه أصابع الاتهام إلى أمريكا على أنها هي الفاعلة والمنفذة لهذا الحدث(١)، وليتسنى لها النفوذ إلى منابع النفط، وبسط السيطرة على الشرق، ودعم فكرة هَرْمَجِدُّون، والحرب الكونية العسكرية القادمة.

ومع صعوبة التسليم بقبول الخيار الثالث فإن عددًا من الباحثين الأمريكيين والأكاديميين الغربيين ذهبوا إلى زيف الرواية الرسمية للكارثة، حتى إنه تأسست منظمة يديرها خمسون أكاديميًا ومفكرًا أمريكيًا، منهم: خبراء عسكريون سابقون بهدف البحث عن حقيقة أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ومن يقف وراءها.

الآثار والتداعيات:

بعيدًا عن الجزم بمسئولية فئةٍ محددةٍ عن هذا الحدث الخطير وعن أحكامه الشرعية- فإن عين الراصد تدرك ألوانًا من التداعيات والسلبيات قد تكرستْ على أرض الواقع عامة، وفي بلاد الشرق الأوسط خاصة، وإن كان هذا لا يمنع مِنْ رصد إيجابيات ونقاط مضيئة وسط الظلام.

(١) الحادي عشر من سبتمبر، الإمبراطورية الأمريكية، المفكرون يتحدثون، دانييل جانزر، نقلًا عن: موقع الرؤية الإلكتروني.

فمن هذه السلبيات:

١ـ الحرب العسكرية الاستعمارية:

إطلاق الحملة العسكرية الصليبية الاستعمارية على بلاد الأفغان والرافدين، تحت شعار: «**الحرب على الإرهاب**» ومع غموض مصطلح الإرهاب، وعدم وضوح دلالته عند مُطْلِقِيه- فقد تبدَّى لكل ذي عينين ما مارستْه أمريكا وحلفاؤها من بغي وعدوان على المدنيين في بلاد الرافدين والأفغان، وما تعرضت له الأديان، والأوطان، والأعراض، والأبدان من أذى وامتهانٍ، وقد نقلت وكالات الأنباء ووسائل الإعلام صورًا ووثائق لما تعرض له المسلمون جراء تلك الحملات البربرية، كل هذا في محاولة يائسة للسيطرة والاستعمار.

يقول المفكر الأمريكي «نعوم تشومسكي»: «الواقع أن قيادة الولايات المتحدة الحالية متطرفة في هذا السياق، ولكن الأمريكيين ملتزمون بصراحة ووضوح باستخدام العنف للسيطرة على العالم، وهم يقولون ذلك علنًا»[١]. فأي إرهاب أكبر من هذا؟! وأي امتهان لما يُسمى بالشرعية الدولية أعنفُ من هذا؟!

> **«ولكن الأمريكيين ملتزمون بصراحة ووضوح باستخدام العنف للسيطرة على العالم، وهم يقولون ذلك علنًا».**
> القوة والإرهاب، نعوم تشومسكي

ثم يقول: «ويجب أَنْ نَعِيَ أن قسمًا كبيرًا من العالم يَعتبر نظام حكم واشنطن إرهابيًّا، ففي السنوات الأخيرة قامت الولايات المتحدة بأعمال، أو دعمت أعمالًا في

> **يجب أن نعي أن قسمًا كبيرًا من العالم يعتبر نظام حكم واشنطن إرهابيًّا.**

(١) القوة والإرهاب، لنعوم تشومسكي (ص٤٨).

كولومبيا، ونيكاراغوا، وبنما، والسودان، وتركيا، وهذه أمثلة قليلة فقط، تنطبق عليها التعريفات الأمريكية للإرهاب، وذلك عندما يطبق الأمريكيون المصطلح على الأعداء».

«بينما تندد الولايات المتحدة بانتظام ببلدان متنوعة «كدول مارقة» فإنها صارت تعتبر في أعين بلدان كثيرة الدولة العظمى المارقة»

صموئيل هنتنجتون

ثم يتابع قائلًا: «في أكثر نشرات المؤسسات الرسمية رزانة «فورين أفيرز» كتب «صموئيل هنتنجتون» يقول: بينما تندد الولايات المتحدة بانتظام ببلدان متنوعة «كدول مارقة» فإنها صارت تعتبر في أعين بلدان كثيرة الدولة العظمى المارقة... والتهديد الخارجي الأعظم لمجتمعاتها[1]».

وهكذا أصبح العالم الإسلامي بأسره مستهدَفًا للإرهاب الأمريكي، من إندونيسيا والفلبين إلى الصومال والسودان!

ومن غير شك فإن من أكبر السلبيات استئساد الأمريكان وكسر النظام العالمي نهائيًّا، واستهداف المسلمين والحيلولة دون صعود قوتهم أو تحقيق نهضتهم؛ وبهذا الفصل الدامي طوى الأمريكان صفحة القرن العشرين.

٢ـ تغيير الهوية واستبدال قيم المجتمعات الإسلامية (الحرب الفكرية):

وذلك بتدخلات عميقة في العملية التعليمية في بلاد المسلمين كافَّة، وبتغييرات جوهرية في مناهج التعليم خاصة، فالمدارس الإسلامية والشرعية في باكستان أغلقت بأمر أمريكا وبضغط منها، والمناهج الشرعية بمصر الأزهر والسعودية طالتها يد الحذف والاستبدال، واشتدت الحملة على

---

(١) جريدة الحياة العدد (١٤٤١٥) السبت ٢٠٠٢/٩/٧م.

مدارس وكليات تعليم البنات، وهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجمعيات تحفيظ القرآن الكريم... وغيرها من المؤسسات العلمية والشرعية.

وفتح الباب واسعًا بعد ذلك لكل الراغبين في خدمة الأجندة الأمريكية في المنطقة ليدلي بدلوه سياسيًّا ودينيًّا.

وغدا التلاعب بالمصطلحات ودلالتها عملًا رائجًا في سوق الفكر والصحافة والإعلام، فغدتِ المقاومةُ المشروعة إرهابًا، والجهادُ تطرفًا! والانفلاتُ الأخلاقيُّ والعمليات الاستشهادية انتحارًا والسلوكيُّ حريةً! والإلحادُ والفسوقُ إبداعًا! وحجابُ المرأة المسلمة رجعيةً وتخلفًا!

وأخيرًا: فقد رأى بعض المفكرين الغربيين ما يبرر إطلاق مصطلح: «الحرب العالمية الثالثة» على تلك الحرب العسكرية والفكرية التي خاضها الغرب غداةَ الحادي عشر من سبتمبر، لا سيما مع إطلاق مصطلحات ذات دلالة عميقة، مثل: «الحرب الصليبية» ومع تسيُّد الفكر الأصولي الإنجيلي المتطرف، والذي بات يحكم في أمريكا والغرب معًا.

أطلق بعض المفكرين الغربيين مصطلح: «الحرب العالمية الثالثة» على تلك الحرب العسكرية والفكرية التي خاضها الغرب غداةَ الحادي عشر من سبتمبر.

يقول «جيمي سواجرت»: «كنت أتمنى أن أستطيع القول: إننا سنحصل على السلام، ولكني أؤمن بأن «هرمجدون» مقبلة وسيخاض غمارها في وادي مجدون؛ إنهم يستطيعون أن يوقعوا على اتفاقيات

«إنهم يستطيعون أن يوقعوا على اتفاقيات السلام التي يريدون، إن ذلك لن يحقق شيئًا، هناك أيام سوداء قادمة».

جيمي سواجرت

السلام التي يريدون، إن ذلك لن يحقق شيئًا، هناك أيام سوداء قادمة»[١].

٣ـ التضييق على المقاومة الفلسطينية:

لقد تحققت للقضية الفلسطينية انتصارات قوية بانتفاضة الأقصى الباسلة عام ٢٠٠٠م، وقبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فلما وقعتْ تلك الأحداث عملت الآلة الإعلامية الصهيونية على تسويق أعمال المقاومة المشروعة على أنها صورة كربونية لما حدث في الحادي عشر من سبتمبر، وهو أمر أدَّى إلى فَقْدِ كثير من دعم الانتفاضة على المستوى الدولي، وأتاح للكيان الصهيوني توسيع نطاق عملياته ضد الشعب الفلسطيني، وتجاوُز كل الخطوط الحمراء التي كانت موضوعة من ذي قبل.

يقول «دوغلاس كريكر» -وهو أصوليٌّ نشط- محذِّرًا اليهود من اختيار المنهج السلمي: «إن إسرائيل تستطيع أن تستعمل الإنجيليين الأصوليين لتعكس من خلال شبكاتهم الإذاعية والتلفازية صورة إسرائيل التي يريدها ويتقبلها الأمريكيون، وذلك من خلال فكرة أن **الله** يريد إسرائيل عسكرية ومسلحة، وأنه كلما أصبحت إسرائيل عسكرية أكثر فإن اليمين الديني في الولايات المتحدة يؤيدها أكثر، ويصبح متعلقًا بها أكثر»[٢].

واستمر هذا الكيد الداعم للصهاينة سياسيًا من خلال حق النقض «الفيتو» في مجلس الأمن، وضد قرارات الأمم المتحدة مع الالتزام بالتفوق الإسرائيلي على الدول العربية اقتصاديًا وعسكريًا.

وأخيرًا -وليس آخرًا-: تمخض هذا التضييق على جميع منظمات المقاومة

---

(١) نقلًا عن شبكة النبأ المعلوماتية بتاريخ: الاثنين ٩ ذي الحجة ١٤٢٩هـ.

(١) النبوءة والسياسة، لغريس هالسل، ترجمة: محمد السماك، ط دار الشروق ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، القاهرة (ص١١٩).

الفلسطينية عن حصار أثيم للشعب الفلسطيني في غزة، ثم كانت الطامة بالهجوم الجوي والعسكري والقصف المكثف لأحياء غزة السكنية وارتكاب جرائم حرب بحق الإنسانية، وليشهد العالم بأسره عام ٢٠٠٨م فصلًا هو الأكثر دموية وشناعة في تاريخ القضية الفلسطينية، بدعم ومباركة غربية وأمريكية!.

٤ـ محاربة القطاع الخيري الإسلامي عالميًّا ومحليًّا:

اتخذت أمريكا وحلفاؤها من أحداث الحادي عشر من سبتمبر ذريعة مناسِبة لإلصاق تهمٍ بتمويل ومساعدة التنظيمات الجهادية بالهيئات الخيرية الإسلامية والمؤسسات الطوعية؛ فقامت بإدراج عدد كبير من هذه المنظمات في قائمة الإرهاب المزعوم! وأغلقت فروعًا عديدة لمؤسسات كثيرة حول العالم، وعملت على غلق عدد من الجمعيات والمنظمات العالمية في عدد من دول الخليج، حتى وصل الأمر إلى تجميد أموال اثنتين وستين منظمة وفرد، معظمها خيرية إنسانية تعمل في مجال الإغاثة الإنسانية[١].

كما قامت أمريكا وحلفاؤها بالضغط على الحكومات العربية والإسلامية لتتعاون في هذا الصدد، ولتحاصر أموال المحسنين من المسلمين حول العالم من أن تمتد لإغاثة الملهوفين، أو إعانة المنكوبين!

يحدث هذا في الوقت الذي تنتعش فيه المنظمات النصرانية الصهيونية التي تقوم بالأعمال الإرهابية، وتحرِّض ضد المسلمين، وتخطِّط لهدم المسجد الأقصى، وإقامة الهيكل على أنقاضه، ومن أهمِّ تلك المنظمات: منظمة الأغلبية

(١) في ذكرى ١١ سبتمبر هل استوعبنا الدرس، سمير العركي، موقع: الإسلام اليوم، على الشبكة العنكبوتية، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/١٠م.

الأخلاقية، ومؤسسات بات روبرتسون، والمنظمة النصرانية للقدس... وغيرها.

ويكفي أن يُعلَم أن حصيلة التبرعات الشعبية في أمريكا عام ٢٠٠٠م بلغت ٢٠٠ مليار دولار، عدا الهبات والمنح وعوائد الأوقاف والدعم الحكومي[١]!

٥- بروز أثر التيارات المنحرفة:

كنتيجة طبعية لوجود الاستعمار العسكري فقد وقع تحالف معلن وغير معلن مع التيارات الهدَّامة والمذاهب المنحرفة، سواء منها الموالية فكريًّا للغرب؛ كالليبرالية، أو لا؛ كغلاة الصوفية، والتيارات الخرافية، فأما الليبراليون فكانت فرصتهم سانحة لينعقوا بالضلال الغربيِّ من عقلانية اعتزالية، ومن وسطية تغريبية، ومن إسلام يلتقي مع العلمانية في منتصف الطريق، وكان ظرفًا مواتيًا لطرح ديموقراطي في باب السياسة، وفتح ملف المرأة وتحريرها من جديد! والتأكيد على الحداثة في الأدب، والأسلوبية الحديثة في البلاغة، وعولمة الفكر والسلوك، كما تسلل المنافقون إلى المنابر، وأمسكوا بالأقلام والمحابر، وصارت الفتنة الفكرية سيدة الموقف[٢].

وكرد فعل عادت تيارات الغلو بالتكفير للمسلمين من جديد لتطل برأسها، واهتزت الثقة بكثير من القناعات، وتقلص عمل كثير من العلماء، وحوصر عدد منهم في بلاد شتى، وأقيل عدد منهم من أعمالهم ومناصبهم في مناطق متعددة، وصحب ذلك مدٌّ شيعي متطرف مع انتشار مدعوم للصوفية الطرقية حول العالم، وغدت الصورة معتمة، والرؤية ضبابية، وانحرفت طوائف من أهل السنة عن مسيرتها، وغدا المتمسكون بالأمر الأول المأثور عن

---

(١) الخلفية التوراتية للموقف الأمريكي، إسماعيل الكيلاني، (ص١٩٤)، القطاع الخيري ودعاوى الإرهاب، د.محمد السلومي (ص١٥٠-١٦٢).

(٢) أحدَ عشرَ مَعْلَمًا في حقيقة الحادي عشر من سبتمبر بين السلب والإيجاب، د. سليمان العودة ١٤٣٠/٢/٢١هـ، موقع: المسلم الإلكتروني.

سلف الأمة من العلماء العاملين والمجاهدين الصادقين والدعاة المخلصين غرباء متفرقين في مواجهة قوى عالمية، وتكتلات دولية، وتحالفات بِدْعية، في ظل أوضاع إسلامية هشَّة، وتفكُّك داخلي لكثير من طوائف الدعوة والإصلاح!

لقد غدا المتمسكون بالأمر الأول المأثور عن سلف الأمة من العلماء العاملين والمجاهدين الصادقين والدعاة المخلصين غرباء متفرقين في مواجهة قوى عالمية، وتكتلات دولية، وتحالفات بدعية !

٦ـ الهجوم الشرس على الأقليات المسلمة:

تعرضت الأقليات المسلمة والتي تعيش في بلاد الغرب اليوم لحملة شعواء تمثلت في أنواع مختلفة من الأذى والتنكيل، حيث تعرض مسلمون إلى الفصل من وظائفهم بسبب ديانتهم، أو بسبب مظهرهم الذي يدل على عقيدتهم، ولقد نال المسلماتِ من ذلك كيدٌ وبلاءٌ شديدان.

كما تعرضت مراكز إسلامية ومساجد إلى اعتداءات متكررة من جماعات التعصب والعنف الصهيومسيحي، وأصيب جراء تلك الأحداث عشرات من المسلمين في بقاع شتَّى[(١)].

ومن آخر تلك الأحداث الدامية: الهجوم على الحجاب في فرنسا، وألمانيا، وما نجم عنه من مقتل المرأة المسلمة «مروة الشربيني» داخل مبنى المحكمة الألمانية بيد متعصب نازي معادٍ للإسلام وللحجاب الشرعي؛ حيث طعنها ثماني عشرة طعنة نافذة مزقت جسدها في أثناء محاكمته بتهمة التعدِّي عليها والإهانة لها ولحجابها الإسلامي[(٢)].

---

(١) جريدة الشرق الأوسط، خبر بعنوان: تزايد الاعتداءات على المساجد والمراكز الإسلامية في أمريكا وأوروبا العدد ٨٣٣٠ بتاريخ ٢٩ جمادى الثاني ١٤٢٢هـ- ١٨ سبتمبر ٢٠٠١م.

(٢) موقع «إسلام أون لاين» مقال بعنوان: «مروة الشربيني ضحية أجواء العداء في ألمانيا» =

واضطرتْ -جراء تلك الاعتداءات- شخصياتٌ إسلامية كثيرة كانت تعيش في بلاد الغرب إلى العودة إلى الشرق مرة أخرى، وعلى كُرْهٍ منها؛ وذلك لأنها إما تعرضت للاعتقال والمساءلة، أو صدرتْ بحقها أحكام بالإبعاد عن تلك البلاد، أو مُنعتْ من ممارسة أنشطتها الإسلامية.

وأما العامة من أبناء تلك الجاليات فقد لجأ كثير منهم إلى التخفِّي والابتعاد عن مراكزهم الإسلامية، ولجأ كثير من الشبان العرب الذين يحملون جنسيات البلدان الأوروبية إلى تغيير أسمائهم الشخصية، وذلك أملًا في إخفاء أصولهم العربية الإسلامية، وهكذا تحول اسم محمد إلى **MOHA**، و**MOMO** (١) !

وعليه فإن جهودًا كبيرة تبذل لتذويب هوية الأقليات المسلمة، ودمجها في المجتمعات الغربية، حتى إن خيار التعايش السلمي ليبدو بعيد المنال!!

التطاول الغربي على الثوابت الإسلامية:

ليس سرًّا أن من تداعيات تلك الأحداث: تجرّؤ شراذم من الغرب على الإسلام ورموزه الكبرى، وثوابته العظمى !

ليس سرًّا أن من تداعيات تلك الأحداث: تجرُّؤَ شراذم من الغرب على الإسلام ورموزه الكبرى، وثوابته العظمى، وما جرى في الدانمرك من نشر الرسوم المسيئة لشخص النبي ﷺ إنما هو في سياق حملة ظالمة ضد المقدسات والثوابت الإسلامية، ومما يدل على ذلك أن (١٤٣) جريدة في (٥٦) دولة أعادت نشرها كاملة أو ناقصة تعبيرًا منها على تضامنها مع الصحيفة الدانمركية، وفي محاولة لتشتيت الغضب الإسلامي،

= لنبيل شبيب، بتاريخ: السبت ٤ يوليو ٢٠٠٩م.

(١) من قضايا الإسلام والإعلام في الغرب، د. عبد الكريم بوفرة (ص ٧١).

وتغييب المسئول الأول عن الجريمة باقتسام المسئولية، ودفاعًا منها عما يسمونه بمبدأ «حرية التعبير»[1].

ولعله من المناسب أن يُذكر أن هذه الرسوم قد ظهرت في أثناء احتفال «حزب الشعب الدانمركي» بمرور الذكرى العاشرة على تأسيسه، وهو حزب يميني متطرف، ويمتلك أغلبية نيابية.

وهكذا مضى قطار التجاوزات والتعديات الظالمة حتى توقف عند بابا الفاتيكان «بينديكت السادس عشر»[2] ليسجل له كلمات أثيمات في حق خير البريات ﷺ، وصدق الله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

كما صاحب ذلك وتبعه حملاتٌ ضد الحجاب الإسلامي في أوروبا، وفي فرنسا وألمانيا على وجه الخصوص، وقد صدر في عام ٢٠١٠م قانون فرنسي يحظر النقاب وغطاء الوجه للمرأة المسلمة، ويعتبره جريمة يعاقب عليها قانونًا!

وبسبب تلك الضغوط قامت حرب على المآذن في سويسرا ليستصدر قانون بمنع بنائها هذا العام ٢٠١٠م.

لقد استعملت آلة الإعلام كوسيلة وآلة من آلات الحرب الظالمة ضد الإسلام وأهله.

واستصدرت قوانين ضد الإرهاب الإسلامي في بريطانيا.

واستُعملت آلة الإعلام كوسيلة وآلة من آلات الحرب الظالمة ضد الإسلام وأهله، حتى إنه في أكتوبر ٢٠٠٣م وقَّع وزير الدفاع

(١) ومن آخر ذلك: إقدام صحيفة نرويجية على إعادة نشر هذه الرسوم في ٢٠١٠/١/٨م تضامنًا مع ذلك الرسام الذي تعرض لمحاولة اغتيال غير ناجحة!!

(٢) بابا الفاتيكان «بينديكت السادس عشر»: هو أعلى رمز ديني في الغرب المسيحي، وقد اختار الرجل أن تكون مقدمة محاضرته التي ألقاها في جمع من العلماء الألمان في جامعة ريجينسبرج يوم ١٢ من سبتمبر ٢٠٠٦م هجومًا صريحًا على نبي الإسلام، حيث قال: «أرني ماذا قدَّم محمد من جديد؟ وسوف لن تجد إلا أمورًا شيطانية، وغير إنسانية». انظر مقال: «هذه المرة من الفاتيكان» موقع الإسلام اليوم - نوافذ، بتاريخ: السبت ٢٣ شعبان ١٤٢٧ الموافق ١٦ سبتمبر ٢٠٠٦م.

الأمريكي على قرار يأمر الجيش باستغلال وسائل الإعلام والرأي العام والإنترنت، واعتبارها أدوات حرب!

الإيجابيات

١ـ استبانة سبيل المجرمين:

ليس كالأزمات سبيلٌ لهلهلة العورات وكشف المخبوء من السوءات، لقد كشفت الأحداث الأخيرة وما تبعها من أزمات، وما نتج عنها من تداعيات كثيرًا من الشخصيات، وأسقطت عددًا من الأقنعة الزائفة عن أشخاص وأحزاب، وطوائف ودول!

فالغرب المتحضر ما هو إلا كائن همجيٌّ عدوانيٌّ، يأكل شعاراته حين يجوع ويتعطش للدماء، فلا ديموقراطية ولا حقوق إنسان إلا للإنسان الغربي فحسب!

الغرب المتحضر ما هو إلا كائن همجيٌّ عدوانيٌّ، يأكل شعاراته حين يجوع ويتعطش للدماء، فلا ديموقراطية ولا حقوق إنسان إلا للإنسان الغربي فحسب!

وغدا المصطلح الغربي «الحرب على الإرهاب» مرادفًا «للحرب على الإسلام» في واقع الأمر وحقيقة الحال!

كما تمحصت الصفوف وتمايزت المعسكرات، فمعسكر الكفر وأشياعه في جانبٍ، ومعسكر الإسلام وأتباعه في جانب! قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤١].

وكما خرج أهل الإيمان كالإبريز النقي من هذه الفتنة، وقد تحرر ولاؤهم لله ولرسوله وللمؤمنين، فقد سقط أهل الإرجافِ التغريبيِّ والنفاقِ العلمانيِّ

في مستنقع التسويغ والتبرير للأعداء.

وبشكل عام فقد نما الوعي المسلم بشكل سريعٍ وإيجابيٍّ بسبب تلك الاستفزازات، وأعيد طرح مفاهيم الولاء والبراء، والأخوة والعداء، وأسباب القوة، وأسباب الضعف، وعوامل النصر، وأسباب الهزيمة، وتلك محنةٌ تحمل في ثناياها منحةً ومِنَّةً!

٢ـ سقوط هيبة جيوش الكفار:

قامت الحرب على العراق بدعوى تخليص العالم من أسلحة الدمار الشامل، والحرب الكيمائية، والبيولوجية... إلى آخر قائمة أكاذيب يُسَاءَلُ أصحابُها اليوم من قِبَلِ جيوشهم وبرلماناتهم عن أسبابها الحقيقية! ولا يَبْعُدُ أن يدورَ الزمان دورة قريبة فيقدَّمون للمحاكمة، بسبب ما مُنيت به قواتهم من خسائر، وما نالهم من اندحار وانكسار على أرض بلاد الرافدين.

وأما ما جَرَّدوا لأجله الحرب على بلاد الأفغان من إسقاط طالبان، فأرض الواقع تحكي أن الأفغان هم من دقَّ المسمار الأول في نعش الدُّب الروسي الملحد، وهي تحكي اليوم أنهم أول من دقَّ مسمارًا في نعش القطب العالمي الأوحد! وليسجل التاريخ أن أهل الإسلام هم من قوَّض أخطر دولتين قام عليهما النظام العالمي!

أما ما وقع على أرض غزة من انتصار، فأمره فوق قدرة البشر، وما له من سبب ولا تدبير إلا قدرة القوي العزيز الكبير، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال: ١٧].

> **أما ما وقع على أرض غزة من انتصار، فأمره فوق قدرة البشر، وما له من سبب ولا تدبير إلا قدرة القوي العزيز الكبير.**

وهذا الصوت الجهادي المبارك الذي يتردد صداه في جنبات الأرض اليوم في

أنحاءٍ شتى إنما هو ثمرةٌ مباركة لجهاد الأفغان وأهل العراق وفلسطين والفلبين وكشمير، وهذا يبرهن عمليًّا بأن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، وأن الأمة -بحمد الله- بدأت في تحويل المعادلة وقلب الموازين ونفي الغثائية ومحاربة الوهن، وتجدد الأمل عبر المجاهدين الصادقين في تحرير المقدسات.

وأما ما وُجِّهَ نحو النبيِّ المختار من كيدِ أولئك الفجار فقد أعقبه حملة عظيمة للانتصار لدينه وللانتماء إلى سُنَّته، وللتعريف بعظمته ورحمته والبرهنة على نبوته، بحيث غدا التحول إلى دين الإسلام في أوروبا وأمريكا هو الأعلى نسبة، حتى أطلقوا اليوم مخاوفهم من أن تصير أوروبا مسلمة في غضون عقود قريبة!

فقد أطلق «جورج هاينز فاين» السكرتير الخاص لبابا الفاتيكان تحذيرًا مما وصفه «بأسلمة الغرب»، ولقد نشرت صحيفة «الفرانس ويست إكلير» إحصائياتٍ تشير إلى تزايد عدد في الإسلام مؤخرًا؛ ففي عام ٢٠٠٧م دخل حوالي ١١٤ ألف مسلم في فرنسا، وهولندا، وألمانيا، والجزء الشمالي من بلجيكا والنمسا، بحيث إن معدلات الإقبال على الإسلام بعد الحادي عشر من سبتمبر قد نمت إلى ثلاثة أضعاف ما قبل تلك الأحداث[(١)].

وإذَا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضيلةٍ ... طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حَسودِ!

لقد تأسَّست جراءَ هذه الأحداث الأليمة مؤسساتٌ كثيرة وجهاتٌ عديدة ومناشط لا يأتي عليها حصر في التعريف بالإسلام ونبيه ﷺ، وفي المنافحة عن سنته، وسيرته، وعقيدته، وشريعته ﷺ.

---

(١) «انتشار الإسلام في أوروبا وراء تحذيرات سكرتير البابا»، مقال، لخالد أبي بكر، موقع: إسلام أون لاين الإلكتروني، بتاريخ: الجمعة ٢٧يوليو ٢٠٠٧م.

٣ـ مواجهات إيجابية:

سجلت شعوب العالم بأسرها وعلى اختلاف أديانها ومذاهبها أعلى درجات الشجب والرفض ضد الهجوم الأمريكي الغربي على العراق مما وحَّد موقف الشعوب من العدوان الغربي على المسلمين في العراق.

وبسبب من هذه التعديات والتحديات تفجَّرت في المسلمين روحٌ عظيمة للمقاومة والثبات، وحراسة الثغور، والاستبسال في المواجهات، وهي ـ بحمد الله ـ في ازدياد.

وبسبب من هذه التعديات والتحديات تفجَّرت في المسلمين روحٌ عظيمة للمقاومة والثبات، وحراسة الثغور، والاستبسال في المواجهات، وأُنشئت المؤسسات في عدد كبير من المجالات، إضافةً لعدد لا يُحصى من المواقع الإلكترونية، والبرامج الفضائية؛ فمن هذه المنظمات:

- الهيئة العالمية للتعريف بالإسلام.
- منظمة النصرة العالمية.
- البرنامج العالمي لنصرة النبي ﷺ.
- الحملة العالمية لمقاومة العدوان.
- الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.
- رابطة علماء المسلمين.
- رابطة علماء الشريعة بدول الخليج.
- رابطة علماء أهل السنة.

وكلها عالميةٌ دوليةٌ ذاتُ مهمةٍ قيادية وريادية في إنهاض الأمة وتقوية شأنها، إضافةً إلى ما لا يدخل تحت حصر من الجمعيات المحلية، أو الداخلية في شتى بلدان العالم الإسلامي.

كل هذا مع تجاوب شعبي واسع النطاق من الرأي العام المسلم في شتى البلاد ومن سائر العباد.

وقد صاحب ذلك كلَّه ثورةٌ في مجال الإعلام الإسلامي المرئي عبر الفضائيات الإسلامية التي ناهزت الخمسين قناة اليوم، كلها على قلب رجلٍ واحد في مواجهة الحرب الإعلامية الغربية، وبث روح المقاومة الإسلامية، والتذكير بالواجبات الشرعية وطريق العزة الإيمانية.

وعلى صعيد الدول فثمةَ دولٌ كانت لها مواقف مشرفةً، وقامت بجهود ومساعٍ مشكورة، ووقفت مواقف مشهودة؛ فهذه تركيا الإسلامية تعود بوجهها المتوضئ من جديد؛ لتدلي بدلو يُذكِّر بماضي خلافة المسلمين التليد، ويشعل جذوة أمل في عودة إلى نصرة قضايا الأمة والتلاحم مع الجذور المسلمة في الشرق!

وعلى صعيد الأفراد فيكفي في ذلك ما نشرته صحيفة «ها آرتس» اليهودية مؤخرًا من أن أجهزة المخابرات الأمريكية والأوروبية والموساد قدموا تقارير مطوّلة إلى وكالة المخابرات الأمريكية يُحذرون من ارتفاع معدل انتشار الإسلام في الغرب رغم كل الأزمات التي تحيط بالمسلمين، وأن العامين الماضيين شهدا اعتناق أكثر من خمسين ألف شخص أوروبي للإسلام أغلبهم من النساء، وأن الإسلام أصبح ينتشر بطريقة مخيفة، وأن المسلمين الجدد يعملون على تأدية جميع شعائر وطقوس الإسلام بمنتهى الدقة، ويصبحون أكثر تدينًا من المسلمين بالوراثة[1].

---

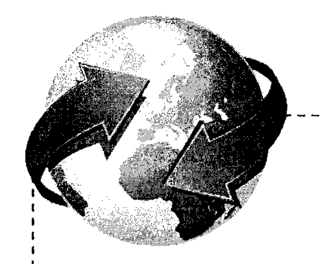
(١) ارتفاع معدل انتشار الإسلام في الغرب، موقع: بوابة الإسلام الإلكتروني، صحيفة لاكسبريس الفرنسية، من مقال بعنوان: عشرات الفرنسيين يقبلون على اعتناق الإسلام يوميًا، بقلم كلار شارتيه في ٢٠٠٦/٤/٣م.

٤ـ مراجعات لا تراجعات:

وبشكل عام لم يَخْلُ فردٌ مسلم، ولا طائفة من طوائف الدعاة إلى الله من تساؤل مفادُهُ: كيف السبيل لمواجهة هذه التحديات؟ وأين يكمن الخلل في مسيرة هذه الطوائف والجماعات؟ وارتفعتْ أصواتٌ ناقدة وأخرى منتقدة لتتفق الكلمة على أهمية المراجعة والتحذير من التراجع، والتركيز على إصلاح الذات والمجتمعات، مع المحافظة على التفاؤل والأمل، والسعي الحثيث والاجتهاد في العمل، وتنَادي العلماء الربانيين من كل حدب وصوب بالاجتماع والائتلاف ومعالجة قضايا ومسائل الخلاف والاختلاف، ودعم قضايا الأمة وتقوية جانبها، ومقاومة محاولات فرض الهيمنة الاستعمارية الغربية بكل صورها وأشكالها، وتجميع مختلف الطاقات والقوى في مواجهتها، واتخاذ الصهيونية عدوًّا مشتركًا، والانشغال بجهاد البناء والتربية في الداخل، وبجهاد دفع الشبهات والافتراءات في الخارج.





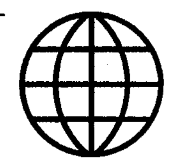


الفصل الخامس

5

التوجهات والاستراتيجيات الغربية الحديثة





التوجهات والاستراتيجيات الغربية الحديثة

إنَّ الوعي بما يجري على الأرض اليوم وظيفة لا غنى عنها لكل مسلم مشتغل بالدعوة والتوجيه العام، وهي واجب على القادة والساسة وأهل الحل والعقد في الأمة الإسلامية.

وواقع التداعي على قصعة الأمة المسلمة اليوم من كل حدب وصوب يُحتم التنبه إلى مكايد الأعداء الذين ينهشون الجسد الإسلامي بكل قسوة، ويتمالئون اليوم على الدم المسلم الذي يُسفح بغيًا وعَدْوًا على كل أرض، وتحت كل سماء.

وبسبب من غياب الرؤية والإدراك الكافي لهذه المخططات وضعف مقاومتها على كل صعيد تمكن هؤلاء الدمويون من الولوغ في دماء المسلمين وتدنيس مقدساتهم وانتهاب مقدَّراتهم.

والعالم الإسلامي اليوم يمر بمنعطف خطير ومرحلة دقيقة، وحرب شاملة تُستعمل فيها الآلة العسكرية جنبًا إلى جنب مع معاول الهدم الفكري، والغزو التنصيري والصهيوني على حد سواء، ويتحالف فيها مع أرباب التوجه البدعي في الأمة؛ بحيث تُستلب في النهاية الهوية الإسلامية الأصيلة، وتنحرف بالأمة المحمدية المسيرة.

وإذا كان المسلمون اليوم يُدعون لمواجهة ومنازلة في كل ميدان، فإن خطوة المواجهة الأولى هي دراسة كل موقع، ومعرفة ما يؤثر فيه، وما ينبغي أن يُعد من أسلحة فاعلة تعزز ثوابت الأمة، وتنصر عقيدتها، وتمكِّنها من كسب الجولة، واستعادة زمام المبادرة، والتخلص من التبعية للغرب، وتحقيق التمكين لهذا الدين.

وإذا كان المسلمون اليوم يُدعون لمواجهة ومنازلة في كل ميدان، فإن خطوة المواجهة الأولى هي دراسة كل موقع، ومعرفة ما يؤثر فيه، وما ينبغي أن يُعد من أسلحة فاعلة تعزز ثوابت الأمة.

وفي الصفحات التالية رصد متتابع للتوجهات والاستراتيجيات الغربية الجديدة ضد أمتنا الإسلامية، ولا سيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، يُرجى من ورائه تجلية الصورة وانقشاع الضباب، والتهيؤ لمواجهة هذا الكيد والعداء بما يُبطله ويَردُّه في نحور أصحابه.

أولاً: اعتماد خيار القوة الضاربة:

بغض النظر عن كون أحداث الحادي عشر من سبتمبر أمريكية الصنع أو

لا -فإنه لم يكن أمرًا مفاجئًا ولا بعيدًا عن التوقع أن يُهرول الغرب بعدها مباشرةً نحو خيارات القوة والإرهاب والعنف! وهذا التوجه لا يحتاج إقامة أدلة عليه؛ فإن المعرفة بالطبيعة الغربية تقتضيه، والتصرفات الأولى بعد الأحداث تؤكده، وما جرى على أرض الواقع خير شاهد عليه.

إنه وبوقوع تلك الأحداث جرى تدشين مرحلة جديدة وصفها الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن بأنها «حرب صليبية» ووصفها غيره بأنها «حرب عالمية ثالثة»، ووصفها آخرون «بأنها حرب كونية»! ولا يخفى أن آخرين نظروا إليها على أنها حرب استباقية تهدف إلى استدعاء الأمة الإسلامية بأسرها إلى حلبة الصراع مع الغرب تحت ستار تلك الأحداث.

ويخطئ من يظن أن انطلاق تلك الحرب العدوانية الظالمة كان قرارًا سياسيًا أو عسكريًا فحسب؛ بل هو في الأصل - أيضًا- خيار استراتيجي وموقف أيديولوجي وفكري متطرف أيضًا!.

ويخطئ من يظن أن انطلاق تلك الحرب العدوانية الظالمة كان قرارًا سياسيًّا أو عسكريًّا فحسب؛ بل هو في الأصل - أيضًا - خيار استراتيجي وموقف أيديولوجي وفكري متطرف أيضًا!.

فمن غير المستغرب إذًا أن يُصدر معهد القيم بالولايات المتحدة الأمريكية في فبراير ٢٠٠٢م بيانًا وقَّع عليه ستون شخصية من كبار المفكرين والفلاسفة والشخصيات الاعتبارية بأمريكا بعنوان: «على أي أساس نقاتل»؛ قاموا فيه بتسويغ وتبرير وتمرير الحرب الأمريكية المقبلة ووصفوها بالحرب العادلة! وهو مصطلح له دلالاته في الخلفية والذهنية التاريخية والفكرية لدى الغرب[1].

---

(١) مقال «بيان المثقفين الأمريكيين على أي أساس نقاتل»، واشنطن ١٥ فبراير ٢٠٠٢م الموافق ٣ ذو الحجة ١٤٢٢هـ، وهو منشور على موقع أون إسلام وغيره.

وبدهي أن «صامويل هنتنجتون» و«فرانسيس فوكوياما» من أبرز الموقعين عليه.

لقد أمدَّ هذا البيانُ العسكريين والسياسيين الأمريكيين بغطاءٍ من المشروعية الأخلاقية؛ حيث قال المثقفون الأمريكيون في بيانهم:

«إنا نعلم بمقتضى العقل، ومن خلال التأمل الدقيق في الأخلاق أنه في بعض الأحيان يكون أول وأهم ما يقام به لمواجهة الشرِّ هو إيقافه، وفي بعض الأوقات لا يكون الشروع في الحرب جائزًا فحسب، بل واجبًا أخلاقيًا»[1].

ومن هنا ظهر مصطلح: «محور الشر» في الخطاب السياسي الأمريكي ليشمل عدة دول إسلامية وعربية! ورافقه -أيضًا- مصطلح: «الحرب على الإرهاب»!.

واختيار هذين المصطلحين وإطلاقهما لا يخلو من دهاء؛ فإن الغرب لا يستطيع شنَّ حرب شاملة على الشرق المسلم بأسره، فهذه المصطلحات تجزِّئ المواجهة، وتؤجل الصدام مع بعض الدول المسلمة، بينما يُجهَز على البعض الآخر!

وفي يونيو ٢٠٠٢م خرج بوش الابن ليعلن مبادئ استراتيجيته الجديدة للأمن القومي الأمريكي في **خمس نقاط محددة، هي:**

أولًا: سوف تبذل أمريكا ما في وسعها للحفاظ على تفوقها عسكريًا.

ثانيًا: تحتفظ لنفسها بحق ممارسة الفعل العسكري الوقائي.

ثالثًا: العلاقات الدولية هي علاقات قوة، وليست علاقات قانون.

رابعًا: أمريكا في وضع يؤهلها لفرض رؤيتها ومصالحها وقيمها على العالم بأسره.

خامسًا: بما أن إدارة «كلينتون» و«بوش» الأب لم تنجح في الاستفادة الكاملة من القوة الصلبة فإن على أمريكا (بوش) أن تؤكد تفوقها في العالم[2].

---

(١) نفس الهامش قبل السابق.

(٢) المحافظون الجدد والنظام الدولي، جوناثان كلارك وستيفان هالبر، كمبردج، ٢٠٠٥م.

وبناءً على ما سبق فإن قرار دخول الحرب مع أفغانستان كان جاهزًا، وكان الهدف المعلن من وراء تلك الحرب هو توقيف، أو اغتيال «بن لادن» و«الظواهري» ومعاونيهما، وحشدت أمريكا ٥٠٠ مقاتلة، و١٥٠ سفينة حربية، ومشاة من القوات البرية، ومشاة الأسطول بما يزيد عن ٢٥٠ ألف مقاتل، بجانب قوات الحلفاء البريطانيين، ودعم من حلف الناتو، وبعد فترة وجيزة أعلنت أمريكا أنها حققت شيئًا كثيرًا من أهدافها بإسقاط طالبان، وتحجيم القاعدة!.

وهذا التوجه يتسق تمامًا مع العقيدة البروتستانتية اليهودية المتطرِّفة، والتي يعتقد أربابها في أمريكا وأوروبا اليوم أن العودة الثانية للمسيح والحكم الألفي الذي ورد في سفر: «الرؤيا» سوف تسبقها حروب مدمرة تنتهي بحرب «هرمجدون» في فلسطين والتي سيقتل فيها الملايين! وأن هذه الحروب أمر حتمي كي يعود المسيح عليه السلام ويَحكم الأرض لألف عام تأتي!

ولا خلاف بين الأمريكيين المتدينين، والأمريكيين العلمانيين؛ فهُمْ سواء في اعتناق ذات العقيدة، لا فرق بين «جيري فالويل»[١] و«بات روبرتسون»[٢] وغيرهما من قادة اليمين المسيحي، وآراء مفكرين علمانيين مثل: «فرانسيس فوكوياما» صاحب: «نهاية التاريخ» وصامويل هنتنجتون صاحب: «صدام الحضارات»؛ فالفريق الأول يؤصل لحرب «هرمجدون» برؤية

---

(١) جيري فالويل: قسيس إنجيلي معروف بولاية فرجينيا الأمريكية، يملك جامعة خاصة أصولية، وله برنامج إذاعي وتلفزيوني أسبوعي، يهاجم فيه النبي ﷺ، كما أنه يُرَوِّجُ من خلال موقعه الإلكتروني لكتاب: «فلنتقدم إلى معركة هرمجدون»، وهي معركة نهاية التاريخ في معتقدات الإنجيليين.

(٢) بات روبرتسون: قسيس إنجيلي معروف بتأييده المطلق لإسرائيل، يمتلك عددًا من المؤسسات الإعلامية، كما يمتلك محطة فضائية، وهي محطة «البث النصراني Christian Broadcasting»، والرجل يقف خلف إنشاء أقوى تحالفٍ سياسيٍّ دينيٍّ في الحزب الجمهوريِّ.

دينية، بينما يتبنَّى الفريق الثاني ذات العقيدة، ولكن برؤية علمانية[1].

وما من شكٍّ أن وصول المحافظين الجدد إلى سُدَّة الحكم في أمريكا قد عجَّل الصدام الغربي المحتوم بأهل الإسلام، قال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

إن «كهنتهم يبشرون بإله الغضب والانتقام والحرب، إنهم يعلنون أن الله لا يريدنا أن نعمل من أجل السلام، إنما يطلب منا أن نشنَّ حربًا نووية تدمر الكرة الأرضية»[2].

إنهم يعتقدون أن كارثة نووية فقط يمكن أن تعيد المسيح ﷺ إلى الأرض، إن هذه الرسالة تبث عبر ١٤٠٠ محطة دينية في أمريكا، ومن بين ٨٠,٠٠٠ قسيس إنجيلي يذيعون يوميًا من خلال ٤٠٠ محطة راديو، فإن الأكثرية الساحقة منهم من التدبيريين الذين يعتقدون هذه العقيدة، وينتظرون حدوثها، ويجدون في دعم دولة اليهود بكل ما تحتاج إليه من أسباب القوة هو الطريق الموصل إلى هذه النبوءة[3].

إنهم يعتقدون أن كارثة نووية فقط يمكن أن تعيد المسيح ﷺ إلى الأرض، وإن هذه الرسالة تبث عبر ١٤٠٠ محطة دينية في أمريكا.

وفي المقابل لما وصل خبر بيان المثقفين الغربيين إلى أسماع عدد من طلبة العلم والمثقفين في المملكة العربية السعودية قام جمعٌ منهم بكتابة بيان للرد، يتألَّفُ القلوب ويُحاول أن يهدئ من تأجج روح الغضب، وربما وصفه البعض بأنه لا يخلو من مداراة، بل وبعبارة فيها ما يُستدرك على كاتبيه والموقعين عليه، حتى إن

---

(١) الغرب أصل الصراع، عامر عبد المنعم (ص٤٣ - ٤٤).

(٢) يد الله: لماذا تضحي أمريكا بمصالحها من أجل إسرائيل، غريس هالسل (ص١٤) دار الشروق، القاهرة - والنبوءة والسياسة، جريس هالسل، (ص٧، ٤٥).

(٣) النبوءة والسياسة، غريس هالسل، (ص٢٦).

بعض من وافق عليه من غير قراءة متأنية له قام بسحب توقيعه عليه، وبالرغم من ذلك كله لم يتجاوب المثقفون الغربيون معه، ولم يلتفتوا إليه، وكأنه أمرٌ لا يعنيهم! وهذا كله في مواصلة للغطرسة الأمريكية المعهودة!

وللإنصاف فإن بعض الأمريكيين قد كتب منتقدًا تلك السياسة، وذلك التوجه؛ ليكون بذلك شاهدًا عليهم من أنفسهم، فقد قال الكاتب الأمريكي توني يوت: «إن بعض العداء الذي تثيره الولايات المتحدة هو إحدى وظائف وجودها، فقبل ارتقائها إلى الهيمنة على الكون كان زُوَّارها من الخارج ينتقدون اعتزازها الوقح بنفسها وثقة الأمريكيين النرجسية بتفوق القيم والممارسات الأمريكية»[1]!

ومن غير شك فإن هذه المواقف تدعم فكرة أن تلك الحرب لا يمكن النظر إليها، أو اعتبارها مجرد ردِّ فعل على أحداث الحادي عشر من سبتمبر، أو أنها وليدة أحداث استثنائية؛ ذلك أنها متفقة مع السياق العقدي المنحرف، والسلوك العدواني للغرب مع المسلمين! قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وبكل حال فقد دارت رحى الحروب التي اجتمع عليها الحلفاء من كل حَدَبٍ وصَوْبٍ تدمر الأخضر واليابس، وتحصد الأرواح والمهج، وتشحن في الجهة الأخرى الأمة المسلمة بطاقة كبرى من كراهية الغرب الكافر الفاجر، وتشحذ همة القلوب المؤمنة لمقاومة الغازي الجديد، وبدأت المقاومة تحت اسم الجهاد، وبدا أن مهمة الحلفاء لن تكون سهلة ولا تبدو قصيرة -كما كان متوقعًا- وهنا صار الخيار حتميًّا لإلحاق الحرب العسكرية بفرض مشاريع للهيمنة الثقافية والاجتماعية والسياسية، وهو ما واكب الهجمة العسكرية ورافقها بعد مدة يسيرة من إعلان الحرب.

---

(١) الإسلاميون والتحديات المعاصرة، د. سامي الدلال (ص٧٧).

ثانيًا: فرض مشاريع الهيمنة الغربية:

بعد انطلاق آلة الحرب الأمريكية برفقة حلفائها الغربيين إلى نزهة التهام القصعة الأفغانية، ثم العراقية، ثم... وهلم جرًّا، كان لا بد لاكتمال حلقات المكر السياسي، والدجل العالمي أن تنطلق مشاريع أخرى على الصعيد السياسي، وكان هذا فيما عرف بـ «مبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية».

وهذه المبادرة أطلقها وزير الخارجية الأمريكي «كولن باول» في ١٢/١٢/٢٠٠٢م، وذلك في إثر وثيقة الشروط الأمريكية التي صدرت من مكتب مستشارة الأمن القومي آنذاك «كونداليزا رايس» والتي تتضمن تأكيدًا على ربط المنح والمساعدات للدول العربية بالديموقراطية ذات النظام الحزبي المتعدد، والفصل بين منصبي رئيس الدولة، ورئيس الوزراء، ورعاية حقوق الإنسان، وإيجاد ضمانات لحمايتها ورعايتها.

وقد اجتمعت على صياغة هذه المبادرة فرق عمل متعددة وخبراء متخصصون في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية، وعُني «ريتشارد هاس» - مدير إدارة التخطيط بوزارة الخارجية الأمريكية- بوضع قواعدها التأصيلية، وعُنيت «كونداليزا رايس» بترتيب بنودها، وعمل «باول» على إعداد خارطة الساحة التنفيذية للمبادرة[(١)].

وقد هدفتِ المبادرة -من خلال مذكرتها التنفيذية- إلى عدة أمور، نذكرها إجمالًا فيما يلي:

---

(١) محاربة الإرهاب والدعوة الأمريكية للديموقراطية، السيد يس، صحيفة القبس الكويتية، يناير ٢٠٠٣م، مجلة الفرقان ٣ ديسمبر /٢٠٠٢م عدد (٢٢٦).

١ـ محاربةُ الإرهابِ ووَأدُه:

وذلك على خلفية كون النسبة الغالبة من الإرهابيين (٨٢٪) ينتمون إلى الدول العربية!!

> **وما من شك أن هذا الصراع الحالي ليس معركة ضد الإرهاب، ولكنه ضد الأصولية الإسلامية، التي تقف ضد الحداثة الغربية.**

وما من شك أن هذا الصراع الحالي ليس معركة ضد الإرهاب، ولكنه ضد الأصولية الإسلامية، التي تقف ضد الحداثة الغربية، وهذا التحدي بالنسبة لأمريكا هو أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية[١].

ولقد كان نائب وزير الدفاع الأمريكي صريحًا جدًّا في ندوة مؤسسة بروكنجز في ٢٠٠٢/٩/٥م، والتي كانت تحت عنوان «١١ سبتمبر بعد عام» حين قال: «إن الصراع الأكبر ضمن الحرب على الإرهاب هو أوسع نطاقًا عما كان متصورًا عقب أحداث ١١ سبتمبر مباشرة؛ فالصراع الأكبر ضمن الحرب ضد الإرهاب قد تضمن رسالة الرئيس جورج دبليو بوش عن حالة الاتحاد ٢٠٠٢م، وهو البعد الذي لم يَلْقَ التوضيح الكافي ويتلخص في أن الحرب الأوسع التي نواجهها هي حرب الأفكار، أي: الصراع حول الحداثة والفردية والعلمانية والديموقراطية والتنمية الاقتصادية».

٢ـ تغيير أنظمة ومناهج التعليم في البلاد العربية والإسلامية:

وذلك على أساس أن الأغلبية الساحقة من إرهابيي الدول العربية هي أغلبية متعلمة تعليمًا جامعيًا عاليًا!!

---

(١) تراجع: دراسات فوكوياما وهنتنجتون في العدد السنوي من مجلة النيوزويك الأمريكية، ديسمبر ٢٠٠١م، فبراير ٢٠٠٢م.

وهذا يعني أن المشكلة في المناهج التي يتلقاها هؤلاء الدارسون؛ وعليه فيجب أن تُجرى عملية تطوير شاملة للمناهج!! ولا سيما الشرعية منها!!

وعليه، فإن يد التطوير يجب أن تطال التعليم في كل من باكستان والسعودية ومصر، وقد كان! فصدرت الأوامر بتغييرات جذرية تناولت التعليم الديني؛ ليقف عند حدود الشعائر والنسك، وإلغاء ما يتناول الجوانبَ السياسية، أو الجهادية، أو السِّيَرَ والمغازي، مع اختصار حصص هذا التعليم الديني إلى أربع ساعات فقط، بدلًا من أربع وعشرين ساعة في بعض الدول[١]، ذلك أن الحرب الحقيقية -كما يقول «توماس فريدمان» - هي في المدارس[٢].

ولأجل هذه الحرب رُصدت الميزانيات الطائلة ترغيبًا، «فخصصت أمريكا لباكستان مائة مليون دولار؛ لكي تراجع كتب الثقافة الإسلامية!»[٣].

فخصصت أمريكا لباكستان مائة مليون دولار؛ لكي تراجع كتب الثقافة الإسلامية !

وأما من لم يستجب فلا مانع من الترهيب! حيث أعلن الرئيس اليمني علي عبدالله صالح في تصريح صحافي: «أن بلاده هُددت بالقصف الأمريكي ما لم يتم إلحاق المعاهد الدينية بوزارة التعليم وفرض الإشراف الحكومي عليها»[٤].

وعلى خطٍّ موازٍ فإن عددًا من المدارس الغربية التغريبية يجب أن تفتح في

---

(١) التطاول الغربي على الثوابت الإسلامية، د. محمد يسري (ص٥٤).

(٢) نيويورك تايمز الأمريكية، والنقل عن صحيفة «وطني» القاهرية في ٢٠٠٥/١/٢٥م.

(٣) انظر مقال الدكتور محمد عمارة: «تتريك الدول الإسلامية»، موقع إسلام ويب، بتاريخ ٢٠٠٧/٧/٢٧م.

(٤) «هل يستهدف الغرب الإسلام» مقال لفهمي هويدي بموقع الإسلام اليوم الإلكتروني، وأصله ورقة قدمها في مؤتمر: «الإسلام والغرب في عالم متغير» والذي عُقد في السودان في الفترة من ١٩-٢١ شوال عام ١٤٢٤.

الشرق الأوسط؛ ليلتحق طلابها بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ودول الخليج!

وقد ضُرب موعد لانتهاء بناء هذه المدارس والمراكز هو عام ٢٠٠٥م، وقد شهدت البلاد العربية حركةَ تعليمٍ تغريبيٍّ نشطةً في السنوات الأخيرة، وبالطبع فإن خريجي تلك المدارس هم الأجدر بالوظائف والمراكز المرموقة في بلادهم.

وتتأكد تلك الغاية وتتحقق بالعناية باللغة الإنجليزية والتخفف من دراسة العربية وبرامجها التي تسوِّق الفكر الغربي مع اللغة، حتى إن أساتذة الكليات الشرعية في الجامعات الإسلامية يحضرون كطلاب في مراكز أُنشئت داخل الجامعة لهذا الغرض، كما في جامعة الأزهر بمصر، أو يُسافرون مبتعَثين إلى الغرب، كما في بعض دول الخليج اليوم!

٣ـ العناية بالتدريب الموجَّه:

وذلك من خلال عقد دورات تدريبية وبرامج متعددة تُحقق القناعةَ بالديموقراطية منهجًا للسياسة، وبالاقتصاد الربوي مرتكزًا للنظام الاقتصادي، وبالعولمة الأمريكية منهجًا للحياة؛ بدءًا من أسلوب التفكير إلى الوجبات السريعة! وتشجيع الترجمة التي تدعم تحقيق هذه الأهداف على المستوى الشعبي.

٤ـ التأكيد على استقلالية المجالس التشريعية:

وهذا يعني أن تتحرر تلك المجالس في البلاد العربية ذات النظام البرلماني من كل رقابة شرعية، أو تأثير ديني؛ حتى تغدو محادَّةً لله تعالى ولرسوله ﷺ بشكل مطلق، وعلى تلك الدول التي تنص دساتيرها على أن الدين الإسلامي هو مصدر التشريع الأساس أن تعيد النظر بذلك، على أساس وجود أقليات غير مسلمة تعيش على أرضها![1]

---

(١) ولا يزال الغرب يوعز إلى الأقليات غير المسلمة في بلاد الشرق الأوسط أن تطلب بحذف هذه المادة من دساتير دولها؛ لنزع الأثر الإسلامي عنها ووصمها بالعلمانية والليبرالية معًا.

لقد عاد «هنتنجتون» بعد سبتمبر ٢٠٠١م، داعيًا إلى ما أسماه بـ«حرب داخل الإسلام»، حتى يقبل بالحداثة الغربية، والعلمانية الغربية... والمبدأ المسيحي: فصل الدين عن الدولة.

لقد عاد «هنتنجتون» بعد سبتمبر ٢٠٠١م، داعيًا إلى ما أسماه بـ«حرب داخل الإسلام»، حتى يقبل بالحداثة الغربية، والعلمانية الغربية...

وهو بهذا يصادق على كلام «فوكوياما» الذي قال: «وإن التطور الأهم يجب أن يأتي من داخل الإسلام نفسه، وعلى المجتمع الإسلامي أن يصل إلى وضع سلمي مع الحداثة، وخاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساس حول الدولة العلمانية»[1].

ولا يكتفي «فوكوياما» بهذه المطالبة؛ بل يضيف أنه «يجب على المسلمين أن يتوقفوا عن لوم الغرب، وأن يتحركوا لعزل المتطرفين بينهم، وتقويض شرعيتهم، وهناك بعض الدلائل على أن ذلك يحصل الآن فلنلحق به من المنبع ولنجفف المنبع!!»

وبكل حال: فإن الإدارة الأمريكية -في تلك الفترة- من خلال هذا التطوير تُنحِّي التيار الإسلامي، وتؤكد على تعويق قيامه بدوره في إصلاح أنظمة الحكم في الدول العربية، كما تسعى لمحاصرة الهوية الإسلامية وتقليصها.

ومن اللافت للنظر أن يدَّعي «باول» -وهو يملي هذه المبادرة إملاءً- أنه درسها مع شركائهم في المنطقة!!

كل هذا يتزامن في تنفيذه مع الاجتياح العسكري للبلاد الإسلامية، الذي كما يصادر الحريات يُصادر -أيضًا- الثروات والخيرات، ويصادر على الأمة حقَّها في الانتماء إلى تراثها المجيد.

---

(١) تراجع دراسات فوكوياما وهنتنجتون في: العدد السنوي من مجلة النيوز ويك الأمريكية، ديسمبر ٢٠٠١م، فبراير ٢٠٠٢م.

٥ـ العبث بملف المرأة العربية:

> **يعتبر الغرب أن أي نجاح سيبقى محدودًا بالمقارنة بإخراج المرأة العربية إلى الحياة العامة؛ وذلك لتحاكي المرأةُ العربية نظيرتَها الغربية في كل شأن !**

يعتبر الغرب أن أي نجاح سيبقى محدودًا بالمقارنة بإخراج المرأة العربية إلى الحياة العامة؛ وذلك بالتشجيع على ممارسة المرأة للسياسة بمختلف صورها، ومشاركتها في البرلمانات وغيرها، ومع ما يستتبع ذلك من حقوق وحريات! وذلك لتحاكي المرأةُ العربية نظيرتَها الغربية في كل شأن، مع توصية بإنشاء مجالس عليا للمرأة؛ لتنفيذ بعض السياسات العاجلة!.

ولا شك أن وتر المرأة يُضرب عليه في الآونة الأخيرة بشدة في الخليج وفي السعودية خاصة، أما في مصر فقد تولت المرأة منصب القضاء مؤخرًا! وغدتْ مشاركتها البرلمانية مألوفة! وما يزال في الجعبة مزيدٌ!.

وغير خافٍ أن ملف المرأة هو الغائب الحاضر في المفاوضات الغربية الرئاسية مع دول الشرق الأوسط؛ لتحقيق مزيد من الانفلات باسم الحريات.

ثالثًا: خيار الفوضى الخلاقة:

اعتمدت القيادة العسكرية والسياسة الأمريكية تقارير مخابراتية تقول: إن الطريق ممهدة لدخول العراق الذي يئن من وطأة نظام صدام حسين، وبمجرد إعلان حرب التحرير فسيبادر الجميع باستقبال حافل للجيش الأمريكي، وهو المخلص المنتظَر! وأن الحرب على محور الشرِّ لن تكون إلَّا عملًا عسكريًا محدودًا، وسترفرف الأعلام الأمريكية على تلك الدول بين عشية أو ضحاها! ومع هذا فلا بد من أخذ الأُهْبَةِ والاستعداد الكامل ليتأتَّى استعراضٌ مَهِيْبٌ

للقوة الأمريكية الصُّلبة!

وبمجرد أن قُرعت طبولُ الحرب ودارت الآلة العسكرية، ذاق الأمريكيون الذلَّ ألوانًا، فلا النصر تحقق، ولا الخير تدفق، وتساءل الساسة والقادة الغربيون أنَّى هذا؟! وسُقط في أيديهم، ورَأَوْا أنهم قد ضلوا طريقهم، وفقدوا كرامتهم وغرقوا في المستنقع العراقي! وغاصوا في الوحل الأفغاني!

وعرف اليأس مكانه في تصريحاتهم، وشُوهد التخبط في قراراتهم، فبعد نحو سنتين من الترنُّح على أرض منفجرة بألغام المقاومة العراقية الباسلة خرجت السياسة الأمريكية لتعلن فشلها عسكريًا من خلال إطلاق وتدشين مصطلح جديد هو: «**الفوضى الخلَّاقة**» وذلك تحديدًا على لسان «كوندوليزا رايس» في أبريل ٢٠٠٥م ولصحيفة «الواشنطن بوست».

بعد نحو سنتين من الترنـُّح على أرض منفجـرة بألغـام المقاومـة العراقيـة الباسـلة خرجت السياسة الأمريكيـة لتعلن فشلها عسكريًّا وبجدارة !

وهذا المصطلح الذي تمَّ صَكُّهُ وإطلاقه يتضمن أصالةً معنى التدمير والإبادة في كل اتجاه ومن غير تمييز، بحيث ينتهي هذا العدوان الهمجي ببناء صراعات إقليمية، وإنشاء محنٍ عِرْقِيَّة، ولَعِب بأوراق الطائفية، وتقسيم للديار الإسلامية، ينال من وحدتها وسلامتها، ويسمح بتمرير القيم الغربية والنظم الأمريكية من خلال صعود قوي جديدة، وإبراز شخصيات أخرى على حساب من تجري تصفيتهم دمويًا أو فكريًّا[1].

وغدا المصطلح اللقيط منتسبًا إلى سلالة أخرى من المصطلحات سيئة

(١) جريدة الحياة اللندنية ٢٠٠٥/٤/٦م، من مقال للدكتور/حسن نافعة.

السمعة كمصطلح: «**الشرق الأوسط الجديد**» والذي ذاع صيته للمرة الأولى بعد حرب الخليج ١٩٩١م، وفي أثناء مفاوضات التسوية بين الدول العربية والكيان الصهيوني، وتبناه وأعلن عنه في كتابه «الشرق الأوسط الجديد» رئيس وزرائهم «شيمون بيريز»، ثم عاد مُـحَوَّرًا أو مُؤمركًا على لسان «بوش» الابن ليطلق -بزعمه- العنان لموجة الإصلاح السياسي والديموقراطي في المنطقة، وليعيد بناء ورسم ملامح ما أسماه بـ«**الشرق الأوسط الكبير**»[١]!

ومن عجب أن هذا «الكبير» لم يولد بعد! ويبدو أنه لن يولد وفق الوصفة الأمريكية أبدًا![٢]

ومبدأ الفوضى أو العشوائية «anthropic principle» هو في الأصل مبدأ إلحاديٌّ له خلفياته وظلاله الإلحادية، إلا أنه استُعير من قِبل الإدارة الأمريكية لتبرير المجازر من جهة، والتغطية على الفشل الاستراتيجي من جهة أخرى.

وإن كان الرئيس الأمريكي «بوش» الابن لا يُخفي أن كتاب: «قضية الديموقراطية» هو المؤسس للفكر السياسي المعتمد لمصطلح: «الفوضى الخلَّاقة» وهو كتاب من تأليف المنشقِّ السوفيتي «ناتان شارانسكي» المهاجر إلى إسرائيل، والذي شغل منصبًا وزاريًّا في حكومة «شارون»، وتتلخص رؤيته في أن الإسلام كدين وحضارة يعتبر حركة إرهابية لا تهدد إسرائيل فقط، وإنما العالم الغربي بأسره، وأن علاجها هو باقتلاعها من الجذور؛ ليتفق في النهاية مع طرح «هنتنجتون»[٣]!

ومع المضي في استراتيجية «الفوضى الخلاقة» مدة لم تكن قصيرة، ضربوا فيها

---

(١) جريدة الغد الأردنية ١٨/٣/٢٠٠٦م، من مقال للأستاذ/حسن أبو هنية.

(٢) بحسب تعريف بوش الابن للشرق الأوسط الجديد؛ فإنه يضم العالم العربي وإسرائيل وإيران وباكستان وتركيا وأفغانستان. «الشرق الأوسط الكبير» مقال د. محمد مورو بموقع العرب نيوز، بتاريخ ٥/٣/٢٠٠٤م.

(٣) «الشرق الأوسط الجديد تحالفات حروب وصفقات» مقال لمحمد أبو رمان، بموقع: العصر الإلكتروني، بتاريخ ٢٤/٧/٢٠٠٦م.

بكل عنف في بلاد الأفغان وعمق بلاد الرافدين إلا أن شيئًا من الأهداف المعلنة لم يتحقق وبدأ هذا التحالف -تحت ضربات المجاهدين الموجِعة- في التشقق، واستفاق الأمريكان وحلفاؤهم على نعوش طائرة تحمل لهم نذر الفشل وأمارات الهزيمة.

وبدا الضغط سياسيًّا وشعبيًّا على الإدارات الغربية البريطانية والأمريكية للإفاقة من وهم القوة الضاربة، أو خدعة الفوضى الخلاقة؛ ليجري البحث عن خيار استراتيجي بديل.

رابعًا: تطبيق استراتيجية القوة الناعمة:

لقد مرت فترة طويلة والقوة العسكرية هي أبرز مقومات القوة، وهي العامل الحاسم في تحقيق أهداف وغايات السياسة الخارجية للدول الغربية الكبرى.

ومع أن دروس التاريخ في القديم والحديث لا تدعم هذه الفكرة؛ بل وتنقضها أحيانًا كثيرة -فلقد هزم المسلمون الرومان النصارى في «اليرموك» وغيرها، وكانوا في عُشر قوة الرومان العددية، واستبسل المسلمون على قِلَّتهم في مواطنَ كثيرةٍ فظفروا بالنصر المبين.

ولا شك أن سلاح الإيمان الصحيح والثقة بنصر الله، مع التجاسر على الظالم وطلب الموت في سبيل الله، والأخذ بالمقدور من الأسباب -مما يتحقق معه النصر على الظالمين والمعتدين.

ولا شك أن سلاح الإيمان الصحيح والثقة بنصر الله، مع التجاسر على الظالم والاستهانة بالموت في سبيل الله، والأخذ بالمقدور من الأسباب -مما يتحقق معه النصر على الظالمين والمعتدين.

والمسلمون الأوائل مع إدراكهم لأهمية القوة العسكرية إلَّا أنهم لم يعتمدوها وحدها، ولم يُعوِّلوا عليها دون سواها، بل كانت قوة الإيمان،

وطاقة اليقين هي الأساس، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

كما أن الغايات التي وُظِّفتِ القوةُ العسكرية لأجل تحقيقها عند المسلمين كانت غاياتٍ نبيلةً وأهدافًا ساميةً، تسعى لعمارة الأرض، وصيانة العِرْض، وتحقيق التمكين لدين رب العالمين.

وعند الظفر لم يكن ثمة طغيانٌ، أو بغيٌ، أو عدوانٌ، وإنما هي الرحمة، والتواضع، والصفح، والعفو، والتخلية بين الناس وما يدينون.

فكان استعمال القوة العسكرية مُرَشَّدًا في التاريخ الإسلامي، بل كانت قوة الإقناع وسلطان الدعوة على القلوب أقوى من سلطان السيف والقهر.

وعلى مستوى البلاد المفتوحة بالدعوة إلى الله سلمًا كانت الأعدادُ الداخلة في الإسلام تفوق بكثير تلك البلاد التي كان الدخول إليها بالسيف فتحًا.

وعلى مستوى البلاد المفتوحة بالدعوة إلى الله سِلْمًا كانت الأعدادُ الداخلة في الإسلام تفوق بكثير تلك البلاد التي كان الدخول إليها بالسيف فتحًا، فإن بلادًا كإندونيسيا دخلت في الإسلام بكاملها، وقد فتحها التجار الذين يحملون رسالة الإسلام، وفي حين أن بلدًا كمصر وقد فتحت عنوة تَحَوَّلَ أهلها إلى الإسلام تدريجيًّا عبر عشرات السنين، وإلى الآن فإن الأغلبية المسلمة في إندونيسيا الإسلامية هي أكثر من تلك الأغلبية المسلمة في مصر العربية[1]!

وهذا الأمر قرره المستشرقون، كما قرره المسلمون، وقد يكون من الصحيح أن المسلمين فتحوا البلاد بقوة جيوشهم، وروحهم المعنوية، ولكن

(١) يراجع: كتاب الدعوة إلى الإسلام، للمستشرق البريطاني توماس أرنولد، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن وزميليه.

ليس من الصحيح أبدًا أن المسلمين فتحوا القلوب بالقوة أيضًا؛ لأن هذا من المحالات، بل فتحوا هذه القلوب بمبادئهم السمحة العادلة التي سبقتهم إلى قلوب الشعوب فرحبتْ بهم وسَهَّلتْ لهم شيئًا من عناء الفتح، ثم أقبلت على الإسلام، وسرُّ ذلك أن هذا الدين بعقائده وعباداته وأخلاقياته وتشريعاته تتوافر فيه عناصر جذب عديدة، أهمها:

موافقة الفطرة، وملائمة العقل، وتزكية النفس، وسمو الروح، وصحة الجسم، وتماسك الأسرة، وترابط المجتمع، وتحقيق العدل، وجلب المصالح، ودرء المفاسد، وإشاعة الخيرات، ومكافحة الشرور بقدر الإمكان، وأبرز ما في هذا الدين سهولة عقائده التي ليس فيها غموض ولا التواء ولا تناقض، ومن ثَم تقبلها الفطرة السليمة، ويسلِّم لها العقل المستقيم»[1].

وفي المقابل تمامًا يتعامل الغرب مع خيار القوة العسكرية الضاربة، فإنهم بَدَوْا متمسكين بهذا الخيار نتيجة لأمور سبق تناولها في العقلية والخلفية التاريخية الغربية القديمة.

وبالرغم من كون القوة العسكرية قد خذلت الغرب مرارًا في تحقيق أهدافه إلا أنه بدا -وإلى ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر- متمسكًا بها.

وبالرغم من كون القوة العسكرية قد خذلت الغرب مرارًا في تحقيق أهدافه إلا أنه بدا ـ وإلى ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ـ متمسكًا بها.

ولا تنسى أمريكا هزيمةً مُذِلة لها خلال الستينيات والسبعينيات في فيتنام، ولم يتعظ الاتحاد السوفيتي فخاض حربه الأخيرة مع المجاهدين الأفغان في الثمانينيات ليخرج مهزومًا، وليودع الدنيا بأسرها متبوعًا باللعنات!

---

(١) نظرية الحرب في الإسلام، للشيخ محمد أبي زهرة (ص٣٠) وما بعدها.

وفي عام ١٩٨٢م حاول الكيان الصهيوني القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية، وفرض تسوية مجحفة للصراع العربي الإسرائيلي فباءت محاولته بالفشل أيضًا، وتسببت من حيث لا تدري بنشوء حزب الله الشيعي الذي أجبر اليهود بعد ثمانية عشر عامًا على انسحاب مُذِلٍّ من الجنوب اللبناني!

وعلى نفس المنوال وفي مطلع التسعينيات لقيت أمريكا هزيمة أخرى في الصومال!

وبصعود تيار المحافظين الجدد تعززت مكانة القوة العسكرية والدعوة إلى تفعيل «القوة الصُّلبة» عالميًا وفي الخارج، وتبلورت ملامح نظرية المحافظين الجدد في: اختزال تعريف القوة بزيادة التركيز على القوة العسكرية، والتوسع باللجوء للضربات والحروب الاستباقية، وتبنِّي فلسفة «تغيير الأنظمة المارقة»! بما يعنيه من عدم احترام فكرة السيادة، كل ذلك ضمن انفراد أمريكا بالقيادة والسيطرة[١].

كل ذلك مع التقليل من مكانة وأهمية وكالات الدبلوماسية التقليدية؛ كالخارجية الأمريكية، والمؤسسات التي تتبنَّى التوجهات نحو عالم متعدد الأطراف[٢].

ولذا لم يكن مستغربًا -بحال- أن تلجأ أمريكا بمجرد وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى القوة الصلبة مجددًا.

لم تمرَّ فترة طويلة حتى خيَّم الفشل بظلاله على هذه الحرب التي لم تُسفر عن مقتل أيٍّ من المطلوبين الأفغان أو العرب، ولم تقهر قوة طالبان، أو القاعدة، ولا حتى الحزب الإسلامي الذي يتزعمه «قلب الدين حكمت يار» !

إلا أنه لم تمرَّ فترة طويلة حتى خيَّم الفشل بظلاله على هذه الحرب التي لم تُسفر عن

(١) يراجع: أمريكا والعالم: إغراء القوة ومداها، غسان سلامة، بيروت، دار النهار، ٢٠٠٥م.
(٢) المحافظون الجدد والنظام الدولي، جوناثان كلارك، وستيفان هالبر، كمبردج، ٢٠٠٥م.

مقتل أيٍّ من المطلوبين الأفغان أو العرب، ولم تقهر قوة طالبان، أو القاعدة، ولا حتى الحزب الإسلامي الذي يتزعمه «قلب الدين حكمت يار»!.

وانقلب الحلفاء البريطان والألمان والطليان ناكصين على أعقابهم باحثين عن مخرج من مستنقع القتل الذي استحرَّ بصفوف رجالاتهم وأحرجهم بين أممهم!

وَرَدَ في تقرير لمجلة السياسة الخارجية للولايات المتحدة (يو إس فورين بوليسي)، المنشور في جريدة الوطن القطرية في ٢٠٠٦/٧/٦م أنها سألت مائة وستة عشر خبيرًا أمريكيًّا، فيهم وزير خارجية سابق، وشملت اللائحة اثنين من مدراء المخابرات الأمريكية السابقين وكبار المحللين، فكان رأي ٨٦٪ منهم أن خطة غزو العراق ومحاربة الإرهاب خاطئة، وأن العالم اليوم أقل أمانًا مما كان قبل الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، وأن الرئيس بوش وفريقه لديهم مفهوم غير واقعي إطلاقًا لـما يمكن إنجازه باستخدام القوة العسكرية [1].

وأُعلن في خلال قمة الناتو التي عقدت في لاتفيا ٢٠٠٦م أن قوات الحلف ستنسحب من أفغانستان عام ٢٠٠٨م، وبدا الرئيس الأمريكي في مشهد مضحك، وهو يحاول المحافظة على ائتلافه الذي فشل في تحقيق شيء من أهدافه مع ما مُني به من خسائر فادحة[2].

ثم بلغ الفشل غايته ووصل الخزي نهايته حين أعلن «حامد كرزاي» - الرئيس الأفغاني المفروض أمريكيًّا- عن دعوته زعيم حركة طالبان الملا «محمد عمر» في ٨ يناير ٢٠٠٦م من أجل المصالحة والحوار.

ثم بلغ الفشل غايته ووصل الخزي نهايته حين أعلن «حامد كرزاي» -الرئيس الأفغاني المفروض أمريكيًّا- عن دعوته زعيم حركة طالبان الملا «محمد

---

(١) جريدة الوطن القطرية في ٢٠٠٦/٧/٦م، نقلًا عن: us forign policy magazine.

(٢) عن الفشل الأمريكي في أفغانستان وعودة طالبان، بشير عبد الفتاح، مجلة السياسة الدولية، يناير ٢٠٠٧م، عن الحرب الأمريكية في أفغانستان، حسام سويلم، موقع: الجزيرة نت، ٢٠٠٦/٥/١٧م.

عمر» في ٨ يناير ٢٠٠٦م من أجل المصالحة والحوار؛ فردَّت الحركة بالرفض حتى تغادر أمريكا البلاد، ثم رفع الأفغان مع الأمريكان راية بيضاء حين وقع مجلس الشيوخ في كابول في ٨ مايو ٢٠٠٧م على مشروع قانون يقضي بالتفاوض مع طالبان، متضمنًا وقف إطلاق النار، وتحديد جدول زمني لبدء انسحاب القوات الأجنبية من أفغانستان! [١].

ومع هذا كله لم تقبل طالبان! وهو ما اضطر أمريكا لمزيد من التورط في مستنقع أفغانستان بإرسال «بوش» لقوات جديدة لم تفلح في تحقيق تقدم ملحوظ، ثم كان أن خرج الرئيس الأمريكي «بوش» بحذاء «الزايدي» العراقي من حلبة المعترك السياسي ليدخل «أوباما» دافعًا بمزيد من القوات الأمريكية المحمولة جوًّا في مقابل النعوش الأمريكية المحمولة جوًّا والعائدة من أفغانستان!

خرج الرئيس الأمريكي «بوش» بحذاء «الزايدي» العراقي من حلبة المعترك السياسي ليدخل «أوباما» دافعًا بمزيد من القوات الأمريكية المحمولة جوًّا في مقابل النعوش الأمريكية المحمولة جوًّا !

وأما الفشل في العراق فقد سارت بحديثه الرُّكبان، ففي دراسة أعدتها مجلة ناشيونال ريفيو (National Review) قدَّر المحللون الاقتصاديون التكلفة الإجمالية لمشروعات إعمار العراق بعد تدميره بـ٣٠ مليار دولار [٢].

---

(١) مستقبل المقاومة العراقية، أحمد محمد رجب، مجلة السياسة الدولية، عدد أبريل ٢٠٠٥م، شهادة الجنرال ويليام أودوم أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكي في إبريل ٢٠٠٧م، موقع: العرب أون لاين ٢٠٠٧/٥/١م.

(٢) مستقبل المقاومة العراقية، أحمد محمد رجب، مجلة السياسة الدولية، عدد أبريل ٢٠٠٥م، شهادة الجنرال ويليام أودوم، أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكي في إبريل ٢٠٠٧م، موقع: العرب أون لاين ٢٠٠٧/٥/١م.



> **وفي دراسة أخرى أعدها جوزيف ستجلر قدّر التكلفة الإجمالية للحرب في العراق بعد إضافة النفقات المستقبلية بتريليوني دولار**

وفي دراسة أخرى أعدها جوزيف ستجلر -أستاذ الاقتصاد بجامعة كولومبيا والحائز على جائزة نوبل- قدَّر التكلفة الإجمالية للحرب في العراق بعد إضافة النفقات المستقبلية بتريليوني دولار[1].

وما تزال مراكز البحوث الأمريكية عاكفة على صياغة نهائية لخروج الأمريكان مجللين بالخزي من العراق، في وقت لم تُجْدِ فيه كلُّ محاولات القوة الصلبة للسيطرة على العراق، أو القضاء على تنظيم القاعدة فيه.

وإلى تاريخ كتابة هذا البحث ما يزال الغربيون والأمريكان خاصة يتجرعون مرارات الهزيمة العسكرية والفشل الذريع ببلاد الأفغان والرافدين[2].

وفي نتيجة متوقعة سعى خبراء الاستراتيجية الأمريكيون في أخريات عهد بوش الابن لإيجاد بدائل أخرى للقوة الصلبة تحقق ما عجز المحافظون الجدد عن تحقيقه، وإذا كان وزير الدفاع الأمريكي الأسبق «دونالد رامسفيلد» لم يستوعب وجود بدائل أخرى للقوة الصلبة في محاولة منه للهرب من الاعتراف بمرارة الفشل العسكري الذي لم يكن متوقعًا، فإن الاعتراف قد جرى صريحًا على لسان «هنري كيسنجر» السياسي الأمريكي المخضرم، وأيده كل من «توني بلير» و«جاك

---

(١) مستقبل المقاومة العراقية، أحمد محمد رجب، مجلة السياسة الدولية، عدد إبريل ٢٠٠٥م، شهادة الجنرال وليام أودوم، أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكي في إبريل ٢٠٠٧م، موقع العرب أون لاين ٢٠٠٧/٥/١م.

(٢) ومن آخر مشاهد الخيبة في يونيو ٢٠١٠م: استقالة قائد القوات الأمريكية بأفغانستان، بعد هجومه الشديد والسافر على سياسة أمريكا أوباما، واتهامه لهم بمخادعة العالم!. الموقع الإلكتروني لقناة الجزيرة، في ٢٠١٠/٦/٢٤م.

شيراك» عندما قال: «إن هزيمة أمريكا في العراق تعني خسارة الحضارة الغربية لمائتي سنة من الانتصار والإنجاز»[1].

«إن هزيمة أمريكا في العراق تعني خسارة الحضارة الغربية لمائتي سنة من الانتصار والإنجاز».
كيسنجر

وفي استشراف للمستقبل القريب وخياراته أصدر «جوزيف ناي» عميد كلية «كنيدي» للعلوم الحكومية بجامعة «هارفارد» كتابه: «القوة الناعمة: سبل النجاح في عالم السياسة الدولية»[2].

وقد نصح أمريكا باستعمال «القوة الناعمة» أو «القوة الذكية» وهي مزيج من القوتين الصلبة والمرنة في وقت واحد، وهي ما استعملته أمريكا لإنهاء الحرب الباردة لصالحها، فإذا ما أرادت أن تنتصر في حربها ضد «الإرهاب» وتصحح صورتها أمام العالم، وتستعيد هيبتها بين الأمم، فيتعين على قادتها أن يعملوا على تحسين أدائهم في الجمع بين القوة العاتية والقوة الناعمة، فيما يمكن أن نسميه بـ «القوة الذكية»[3] يقول «بول وولفيتز»[4] -وهو من صناع القرار في المحافظين الجدد، محاولًا تغيير وجهة الحرب-: «إن معركتنا هي معركة الأفكار ومعركة العقول، ولكي ننتصر على الإرهاب لا بد من الانتصار في ساحة الحرب على الأفكار»[5].

---

(١) الفرق بين المقاومة في العراق وفيتنام، د. محمد مورو، موقع: المختصر الإلكتروني في ٢٠٠٧/٥/١م.
(٢) نشر في أبريل ٢٠٠٤م، وترجمه إبراهيم محمد علي.
(٣) خبر بموقع: الإسلام اليوم الإلكتروني في ٢٠٠٧/٢/٢٧م.
(٤) بول وولفتيز: نائب وزير الدفاع الأمريكي الأسبق، مهندس الحرب على العراق، وأحد أبرز اليهود الناشطين بين المحافظين الجدد، وترأس البنك الدولي مؤخرًا.
(٥) نقلًا عن تحولات الحركة الإسلامية والاستراتيجية الأمريكية، د.كمال حبيب، (ص٢٦٢).

وهذا ما أكده تقرير مؤسسة «راند» الصادر في ٢٠٠٧/٣/٢٦م، حين ناشد التقريرُ صانعَ القرار الأمريكي استخدامَ نفس آليات الحرب الباردة في مواجهة الإسلام والمسلمين، ومحاولة نقل الصراع داخل المسلمين بينهم وبين بعضهم البعض، حتى لا يظهر أنه صراع بين الإسلام والغرب، وذلك من خلال تجنيد وكلاء مسلمين معتدلين من داخل العالم الإسلامي يحاربون المتشددين فكريًا أو سياسيًا نيابة عن الغرب، وهذا ما أكد عليه مؤلفو التقرير في مؤتمرهم الصحفي عقب صدوره(١).

وهذا يفسر القوة الناعمة المقصودة لديهم بأنها قوة داعمة لاجتذاب المعتدلين من المسلمين -بزعمهم- لمحاربة المتطرفين -بزعمهم- ومحاصرتهم وحرمانهم من الحصول على أنصار جدد.

ثم إن أنواع الدعم الدبلوماسي والعلمي التقني والاقتصادي يكتمل بها جميعًا عقد القوة الناعمة.

وبهذا الانهيار العسكري في العراق وأفغانستان خرجت أمريكا والغرب بقناعة وافرة أنهم ليسوا في الطريق الصحيح!

وبهذا الانهيار العسكري في العراق وأفغانستان خرجت أمريكا والغرب بقناعة وافرة أنهم ليسوا في الطريق الصحيح!

وأن القوة الفاعلة في الحرب على الإسلام ستكون متمثلة في القدرة على التحكم، وفن إدارة وكبح القوة المادية بكل أبعادها العسكرية، والاقتصادية، والثقافية، والتكنولوجية،

---

(١) تقرير «راند» الثالث بعنوان: «بناء شبكات معتدلة إسلامية» صادر عام ٢٠٠٧م.

وحتى إن لم يتسنَّ لدولة واحدة حيازة كافة صور أو ركائز القوة الشاملة مجتمعة- فإن امتلاكها لأي منها إلى جانب الإدارة الحكيمة والجيدة لهذه الصورة أو الركيزة ربما يكون أفضل وأكثر فاعلية من امتلاك قوة شاملة بغير حكمة في استخدام تلك القوة، فلم تمنع الأسلحة الأمريكية فائقة التطور من هزيمة أمريكا عسكريًا وسياسيًا وأمنيًا على أيدي تنظيمات صغيرة متواضعة العدة والعتاد، ليس فقط في الخارج، وإنما داخل أراضيها[1].

خامسًا: التحول نحو استراتيجيات الحرب الباردة:

ليس سرًا أن مؤسسة «Rand» التي تأسست عام ١٩٤٨م في كاليفورنيا بأمريكا ذات نفوذ كبير، وتأثير نوعي على سياسة الولايات المتحدة الخارجية والداخلية، وأنها بمثابة الموجه الفكري والمنهجي للمؤسسات الحاكمة في أمريكا، وترتبط بروابط وثيقة مع وزارة الدفاع الأمريكية، فهي تشرف على ثلاثة مراكز بحوث تمولها وزارة الدفاع، كما ترتبط بعلاقات وثيقة مع وكالة المخابرات المركزية، ومكتب التحقيقات الفيدرالي.

وهي تعد أكبر مركز بحثي فكري في العالم يعمل بها ١٦٠٠ باحث من حملة الشهادات الأكاديمية العليا، وميزانيتها السنوية نحو من ١٥٠ مليون دولار أمريكي.

وتتميز عن غيرها من المؤسسات البحثية الفكرية بوجود فرع نشيط لها في منطقة الشرق الأوسط (دولة قطر) وهو ما يعطي لدراساتها -من وجهة نظر صانع القرار الأمريكي- مصداقية ودرجة أعلى من الثقة في قيمة ما تصدر

---

(١) القوة العسكرية وحسم الصراعات، الولايات المتحدة نموذجًا، بشير عبد الفتاح، المركز العربي للدراسات الإنسانية ٢٠٠٨ م، (ص ٥٩).

من توصيات ومقترحات[1].

وتكتسب «راند» أهمية خاصة من خلال تبنيها لخط مواجهة الخطر الإسلامي، ومعاملة المؤسسات الإسلامية عمومًا بشكل إقصائي، ورميها بالتطرف والإرهاب، وذلك فيما تقف مؤسسات بحثية أخرى موقفًا أكثر هدوءًا وتعقلًا مثل: مركز «كارنيجي» و«بروكينجز» واللذان يجنحان إلى التعامل مع المعتدلين، وإشراكهم في اللعبة الديموقراطية.



وتكتسب «راند» أهمية خاصة من خلال تبنيها لخط مواجهة الخطر الإسلامي، ومعاملة المؤسسات الإسلامية عمومًا بشكل إقصائي، ورميها بالتطرف والإرهاب.

ولقد تواصل اهتمام «راند» البحثي بما يتعلق بالإسلام بكافة تجلياته في الشرق الأوسط.

وفيما يلي عرض لأهم إصداراتها المنشورة حول القضية الإسلامية في العشر سنوات الأخيرة:

١- كتاب «مواجهة الإرهاب الجديد» عام ١٩٩٩م في ١٥٣ صفحة، ودارت فكرته على أن مصدر الإرهاب الجديد هو منطقة الشرق الأوسط، وأنه سيهدر المصالح الأمريكية والكيان الصهيوني.

٢- تقرير «العالم المسلم بعد ٩/١١» عام ٢٠٠٤م في أكثر من ٥٠٠صفحة، وتناول عرضًا تفصيليًا للعالم الإسلامي وخريطته الأيديولوجية، والقوى الدينية المؤثرة والخلافات الأساسية بينها.

٣- تقرير «الإسلام المدني الديمقراطي: الشركاء والموارد والاستراتيجيات» عام

---

(١) استراتيجيات غربية لاحتواء الإسلام، قراءة في تقرير «راند» ٢٠٠٧م، د. باسم خفاجي، المركز العربي للدراسات الإنسانية ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٢٠٠٥م، حيث تناول خطوط التعامل مع الفئات الإسلامية المختلفة، وترتيبهم في أولوية التعامل الغربي.

٤- دراسة بعنوان «ما بعد القاعدة» عام ٢٠٠٦م في مجلدين حول حركة الجهاد العالمية، والجماعات الإرهابية الإسلامية!

٥- تقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة» عام ٢٠٠٧م في ٢١٧ صفحة، وقد تناول رسم استراتيجية جديدة، وقدَّم توصيات محددة وعملية للحكومة الأمريكية فيما يتعلق بمواجهة الإسلام.

وبشكل عام: فإن التقارير الصادرة عن تلك المؤسسة تتصف بكثير من الجرأة في الطرح، والعمق في التناول والبحث، واقتراح الخطط التنفيذية.

وفيما يأتي عرض مختصرٌ لفصول التقرير الأخير وما احتواه من عناصر استراتيجية، ثم تعليقات وتوجيهات:

تَقَسَّم تقرير «راند» مارس ٢٠٠٧م إلى مقدمة وتسعة فصول في ٢١٧ صفحة، وقام على إعداده أربعة باحثين أمريكيين بينهم سيدة هي «شيريل بينارد» وهي زوجة مهندس الحرب على أفغانستان «زلماي خليل زاده»[(١)] ، وهي المسئولة عن تقرير «راند» ٢٠٠٥م، الذي يعتبر من أدق وأخطر تقارير «راند».

يدور هذا التقرير على جملة أفكار رئيسة، هي:

١- الصراع الدائر الآن بين الغرب والإسلام ليس صراع مصالح بالدرجة الأولى، وإنما هو صراع فكري بين منظومتين متكاملتين ومتباينتين تمامًا، فهو صراع بين الأمة المسلمة، والعالم الغربي.

---

(١) زلماي خليل زاده: أمريكي من أصل أفغاني، ينتمي إلى المحافظين الجدد، يشغل منصب المساعد الخاص للرئيس بوش الابن، وكبير مستشاري الأمن القومي المسئول عن الخليج العربي وجنوب شرق أسيا، وقد عُيِّن سفيرًا لأمريكا في العراق.

يقول معد التقرير «أنجل راباسا»[1]: «إن الصراع الجاري في العالم الإسلامي اليوم هو صراع فكري، كما يرى أن ما يدور داخل المجتمع الإسلامي اليوم من خلافات إنما هو «صراع داخل الإسلام لتحديد هويته».

٢- المواجهة الغربية هي مع كل التيارات الإسلامية، وليس مع طائفة جهادية فحسب، أو سلفية فقط! فهي مواجهة شاملة للإسلام بأسره مادام متمسكًا بمضمونه، وفي هذا السياق يوصف فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي في هذا التقرير بالسلفي المتطرف، وينظر إلى التيار الإسلامي بأسره على أنه أقلِّية متطرفة بكافة أطيافها داخل الأمة الإسلامية!!.

في هذا السياق يوصف فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي في هذا التقرير بالسلفي المتطرف !

٣- التركيز في المواجهة الفكرية على التيارات السلفية، ونبذها بالتطرف والتشدد، وتجييش مختلف القوى والإمكانات لمواجهتها بكل السبل، ولا سيما بالتعاون مع الفئات المعتدلة من المنظور الأمريكي!

جاء في التقرير: «يجب أن نعمل مع الشركاء الرئيسيين من أجل عقد مؤتمر دولي في مكان يحمل دلالة رمزية مهمة للمسلمين، وليكن مثلًا «غرناطة» في أسبانيا، من أجل أن نعلن عن قيام مؤسسة لمحاربة التطرف السلفي»[2].

٤- توظيف غلاة أهل البدع في مواجهة أهل السنة، فقد حدد التقرير -وما

---

(١) أنجل راباسا: باحث أكاديمي حاصل على الدكتوراة من جامعة هارفارد، عمل سابقًا بعدة مناصب مهمة بوزارة الخارجية، والدفاع الأمريكية، يجيد أربع لغات غير الإنجليزية، وله عدد من الكتب والدراسات حول العالم الإسلامي.

(٢) تقرير «راند» (ص١٤٥).

سبقه من تقارير- أن أقرب الفئات تعاونًا وتقاربًا مع المستعمر هم أصحاب الطرق الصوفية الغالية، وأنهم مع أصحاب المناهج

أقرب الفئات تعاونًا وتقاربًا مع المستعمر هم أصحاب الطرق الصوفية الغالية، وأنهم مع أصحاب المناهج الفلسفية والكلامية المنحرفة أقدر من غيرهم على التصدي لأهل السنة.

الفلسفية والكلامية المنحرفة أقدر من غيرهم على التصدي لأهل السنة من السلفيين بأطيافهم وغيرهم من أبناء الدعوات الإسلامية المعاصرة، بحيث تنقل ساحة الصراع إلى الداخل، بدلًا من أن يكون الصراع إسلاميًا - غربيًا!

وهم يعبرون عن تلك الفئات المرشحة للتعاون والدعم بأنها تلك التي يقدس أفرادها الأولياء! ويُصلون في الأضرحة! بخلاف ما تدعو إليه الوهابية، ويميلون إلى التَّمَذْهُبِ، وعدم الاجتهاد، والميل نحو التصوف، ويوصي التقرير أن يستخدم هذا التيار التقليدي والصوفي في مواجهة الإسلام السلفي، ويؤكد التقرير على أهمية إيجاد أرضية تفاهم مشتركة مع التيار الصوفي والتقليدي من أجل التصدي للتيار الإسلامي السلفي العلمي، أو السياسي الحركي.

وبتعبير أصحاب التقرير: «فإن الدافع الأساسي لتصورنا يعتمد على محورين:

المحور الأول: هو العمل مع المسلمين المعتدلين في الدول التي تكون الظروف فيها مواتية وإيجابية لتطوير شبكات مسلمة معتدلة فعَّالة، ومؤسسات من أجل تقوية هذه المجتمعات في مواجهة تدفق التفسيرات السلفية المتطرفة للإسلام والنابعة من الشرق الأوسط.

المحور الثاني: هو إيجاد قنوات تواصل إعلامية تشجع نشر التفسيرات

المعتدلة والعامة للإسلام إلى منطقة الشرق الأوسط من المسلمين المعتدلين في المناطق الأخرى»[1].

٥- إعادة تفسير الإسلام بما يقتضي تغيير مفاهيمه، بحيث لا يصبح مقاوِمًا للهيمنة الغربية على المستوى الفكري أو العقدي، وذلك بأن تمتد يد التحريف إلى نصوصه، فإن لم فإلى كتب تفسيرها وشروحاتها، فإن لم فبمحاصرة الإسلام داخل المسجد، ومنعه من التأثير العام إلَّا في مجال العبادات فحسب.

٦- إعادة توصيف مصطلح: «التيار الإسلامي» ومصطلح: «المعتدلين» الذين يرشَّحون للتعاون في بناء شبكات معتدلة تعمُّ العالم الإسلامي.

لقد أوضح التقرير عن أنه يحشر جميع الدعاة والعلماء الصادقين على اختلاف مشاربهم، وتنوع مدارسهم في خندق واحد، فقال: «**إن تعريفًا أضيق وأكثر فائدة لمن هو الإسلامي، وهو: كل من يرفض الفصل بين السلطة الدينية وسلطة الدولة، ويسعى الإسلامي إلى إقامة شكل من أشكال الدولة الإسلامية، أو على الأقل يدعو إلى الاعتراف بالشريعة كأساس للتشريع**»[2].

ويذهب التقرير إلى أنه «إذا كان للإسلاميين فعالية على المدى القصير في تحجيم التيار الجهادي، ومنعه من القيام بأعمال إرهابية، فإن الاعتراف الرسمي ودعم التيار الإسلامي سيرفع مستوى الثقة به، وعلى المدى الطويل فإن التكاليف الاجتماعية لانتشار الحركة السلفية بين العامة ستكون عالية للغاية»[3].

---

(١) تقرير «راند» ٢٠٠٧م، (ص٨٥).

(٢) تقرير «راند» ٢٠٠٧م، (ص٧٥).

(٣) تقرير «راند» ٢٠٠٧م، (ص٧٧).

ويفهم أصحاب التقرير، ويحاولون إفهام الغرب حقيقة ناصعة هي أن الإسلاميين يعتبرون «أن دعم الديموقراطية يعني ضمنًا معارضة مبادئ الدولة الإسلامية، والخط الفاصل بين المسلمين المعتدلين، وبين التيار الإسلامي المتطرف في الدول ذات النظام القانوني المشتق من الغرب (معظم دول العالم المسلم) يتمثل في: هل يجب تطبيق الشريعة؟»[1].

«وعلى المدى الطويل فإن التكاليف الاجتماعية لانتشار الحركة السلفية بين العامة ستكون عالية للغاية». تقرير «راند» ٢٠٠٧م

وانطلاقًا من هذه النقطة يضع التقرير ملامح رئيسة للمعتدلين تقوم على أمور محددة، هي:

- القبول بالديموقراطية الغربية ورفض فكرة الدولة الإسلامية!
- القبول بالمصادر غير الدينية في تشريع القوانين!
- احترام حقوق النساء وحرياتهن وفقًا للنموذج الغربي!
- احترام حقوق الأقليات غير المسلمة، وإمكان تولي بعضها مناصب سياسية عليا في دولة ذات أغلبية مسلمة!
- احترام حق غير المسلمين في بناء دُور عبادة خاصة، والدعوة إلى أديانهم في بلاد المسلمين.
- احترام حقوق الإنسان، بما فيها حق الإنسان في تبديل دينه!
- نبذ جميع صور وأشكال العنف الذي يمارسه الفرد أو الجماعة.

(١) تقرير «راند» ٢٠٠٧م، (ص٦٦-٦٧).

وعليه فإن المعتدلين -بناء على هذا التوصيف الذي عرضه التقرير في صورة أحدَ عشرَ سؤالًا- **يمكن تصنيفهم إلى ثلاث مجموعات**:

المجموعة الأولى: **العلمانيون الليبراليون**:

والتعاون معهم يجب أن يكون واسعًا بدون حرج؛ لأنهم أبعد الناس عن الإسلام، وأقربهم إلى الغرب!

المجموعة الثانية: **الإسلاميون العصرانيون**:

ويسحب التقرير توصيته القديمة بالتعاون معهم؛ إما لأنهم ليسوا تيارًا تحرريًا، أو لأنهم يحملون بداخلهم رؤى ومواقف توصف بأنها محافظة، وربما لأنهم لم يتمكنوا من تحقيق الأهداف المرصودة مع ما دُعموا به عبر عقود متوالية!!

والمجموعة الثالثة: **التيار التقليدي المعتدل**:

وهم الغلاة ومنحرفو الطرق الصوفية، أصحاب التصوف الفلسفي، والذين كانت لهم سابقة في المناصرة والدعم المتواصل للغرب عبر حملاته العسكرية الاستعمارية في القديم والحديث، كما ورثوا أحقادًا مذهبية للتيارات الإسلامية الأصيلة الأخرى.

٧- تقديم الدعم السخي للشركاء في مشروع بناء شبكات الاعتدال، وتقديم هذا الدعم للمعتدلين من أبناء العالم الإسلامي في صمت أفضل -عندهم- من دعم القنوات الأمريكية، كقناة «الحرة»، وراديو «سوا»؛ لأن دعم هؤلاء المعتدلين بشكل صامت وهادئ سيكون أبعدَ أثرًا [١].

وسيأتي مزيد بسط لهذا الأمر قريبًا.

---

(١) تقرير «راند» ٢٠٠٧م، (ص١٤٤).

٨- دعم التوجهات التحررية المناهضة للحكومات العربية الحالية، فيقول أصحاب التقرير: «نرى -أيضًا- أن جهود دعم الديموقراطية التي تتحدى بشكل مباشر الأنظمة السياسية التسلطية هي جزء مهم من الاستراتيجية الكبرى»[1][2].

ولا يرجح التقرير التعاون مع تلك الأنظمة التي تميل إلى الحكم الفردي؛ لأنه من المتوقع -طبقًا للتصور الغربي- أن تتحول هذه الدول يومًا ما إلى الدفاع الصريح عن الإسلام في مواجهة الهجوم الغربي والعلماني عليه، ويمكن عند ذلك أن تتحالف مع التيار الإسلامي حينها في مواجهة التحالف الغربي مع العلمانيين![3]

ولا شك أن المعضلة التي تواجه السياسة الأمريكية هي أن الدعوة إلى الديموقراطية يمكن أن تُضعف نفس الدول التي تشكل جزءًا من البنية الأمنية الحالية التي تدعمها الولايات المتحدة في المنطقة[4].

الدعوة إلى الديموقراطية يمكن أن تضعف نفس الدول التي تشكل جزءًا من البنية الأمنية الحالية التي تدعمها الولايات المتحدة في المنطقة.

وهذا ظاهر بوضوح في نمطين لدولتين كبريين بمنطقة الشرق الأوسط.

---

(١) تقرير «راند» ٢٠٠٧م، (ص١٤٠).

(٢) وفي هذا الإطار يمكن فهم الدعم الأمريكي لحركة الجنوبيين الانفصاليين في السودان ورعايتها للانشقاق عن دارفور، ودعمها المباشر والعلني لكل من أيمن نور (حزب الغد) في مصر وكذلك د. البرادعي، وإغضائها الطرف عن حركة الحوثيين باليمن.

(٣) وعليه فإن المفاوضات الرئاسية مع كثير من حلفاء الشرق الأوسط يطرح فيها وباستمرار ملف الليبرالية والديموقراطية، وقمع الدعوات الإسلامية، وملف الأقلية النصرانية وحقوقها، والموقف من حماس الإسلامية، وربط ذلك كله بالمنحة الاقتصادية الأمريكية والغربية، والدعم السياسي للأنظمة العربية.

(٤) تقرير «راند» ٢٠٠٧م، (ص٣٩).

وبشكل عام فإن التقرير يدعو إلى تهميش سيادة الدول وتقليص قدراتها؛ حتى لا يكون لها من الأسباب ما يحملها يومًا على التصدي سياسيًّا، أو عسكريًّا، أو حتى فكريًّا للمشروع الأمريكي في الشرق الأوسط!

٩- تحجيم بعض التيارات الإسلامية من خلال فتح حوارات معها، والسعي إلى دغدغة مشاعرهم ببعض الوعود السرابية! لتغيير قناعاتهم، أو لتوريطهم في بعض المآزق السياسية، كما حصل مع جماعة إسلامية في إحدى الدول العربية الكبرى بالشرق الأوسط، أو السعي لتعطيل مسيرتهم العملية، ونضجهم الفكري حتى تحين فرصة مواتية للإجهاز عليهم.

١٠- تصفية الوجود السلفي في أوروبا، واعتباره أخطرَ ما يواجه أوروبا، وأن مواجهته ومقاومته أمرٌ متعين؛ وذلك لأنه تيار توسعي غير قابل للاندماج في الحياة الأوروبية.

يقول التقرير: «يرى التيار السلفي أن المؤسسات الإسلامية يجب أن تتوسع إلى أن تتمكن أعداد أكبر وأكبر من المسلمين في أوروبا من الحياة بشكل مستقل من خلال نظام إسلامي غير معلن داخل الدولة العلمانية، كما يؤمنون أنه من خلال الدعوة، ومعدلات الإنجاب العالية، وكثرة نسبة الشباب ضمن التركيبة السكانية، مع استمرار الهجرة، فإن المجتمع المسلم سيتوسع، وسيحصل على فرصٍ تأثيرٍ أكبرَ في المجتمع... أي: أنه يأمل في «أسلمة أوروبا»»[١].

١١- توجه التقرير إلى فتح جبهات عمل خارج الشرق الأوسط والدخول إلى جنوب شرق أسيا، وأهمية تقوية الجوانب العلمانية الليبرالية في تلك الدول،

---

(١) تقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة»، «راند»، ٢٠٠٧م، (ص٩٣).

وعكس مسار تدفق الأفكار من الشرق الأوسط أو القلب، ولتتحول تلك الأطراف إلى جهات مضادة للقلب العربي المسلم، ولتعود أفكار الأطراف على القلب بالنقض والإبطال!

ويحاول التقرير أن يقلل من أهمية التركيز على الشرق الأوسط فيقول: «رغم أن الكثير من المبادرات الغربية للتفاعل مع المسلمين تركز على منطقة الشرق الأوسط؛ فإننا نرى أن الشرق الأوسط -وتحديدًا العالم العربي- يقدم أرضًا أقل خصوبة للشبكات المعتدلة، وبناء المؤسسات مقارنة بمناطق أخرى في العالم المسلم»[1].



(١) تقرير «راند» ٢٠٠٧م، (ص٨٥).



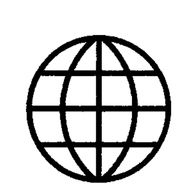
الفصل السادس



6

ضرب طوائف الدعوة الإسلامية بالطـرقـية





ضرب طوائف الدعوة الإسلامية بالطرقية

اهتدى الغربيون بعد الحادي عشر من سبتمبر، وظهور نذر فشل الحرب وخسارتهم في العراق وأفغانستان إلى أن حرب الأفكار لا يمكن لهم بحال أن يكسبوها إلا بوسائط وعملاء!

وأن ساحة التدين في الشرق الأوسط -والتي يغلب عليها التدين الصحيح- لا يمكن أن تُمَرَّرَ من خلالها أو تستقر في ربوعها تلك الأفكار العلمانية عن الحكم والتشريع، أو الديموقراطية والليبرالية، أو العولمة الفكرية التي ينشدون، فاستُنفِرت مراكز البحوث والمخابرات معًا للكشف عمن يمكن أن يتولّى الصراع نيابةً عنهم، أو أن يعاون في كسب الجولة بدلاً منهم.

وبدأت الإرهاصات بقول وكيلة وزيرة الخارجية الأمريكية للشئون العالمية «بولا دوبريانسكي»: «يجب أن نفكر خارج الإطار التقليدي، ونوظف وسائل خلَّاقة للنهوض بالحرية الدينية، وهنا أفكر في تمويل علماء مسلمين، أو أئمة، أو أصوات أخرى للمسلمين»[1].

ويشرح مسئول بوزارة الخارجية الأمريكية هذه المسألة فيقول: «إننا نريد ضم مزيد من علماء المسلمين إلى برامج التبادل الثقافي والأكاديمي التي تمولها أمريكا».

وبعد بحث وطول نظر وتفكير وتقدير انتهى الأمر إلى أن أعلن «دانيال بايبس»[2]: «أن الغرب يسعى إلى مصالحة التصوف الإسلامي، ودعمه لكي يستطيع ملء الساحة الدينية والسياسية وفق ضوابط فصل الدين عن الحياة، وإقصائه نهائيًا عن قضايا السياسة والاقتصاد، وبالطريقة نفسها التي استخدمت في تهميش المسيحية في أوروبا والولايات المتحدة».

الغرب يسعى إلى مصالحة التصوف الإسلامي، ودعمه لكي يستطيع ملء الساحة الدينية والسياسية وفق ضوابط فصل الدين عن الحياة.

دانيال بايبس

وبعد هذا الإعلان باثني عشر يومًا، وفي ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣م استضاف مركز

(١) «الاستراتيجية الأمريكية الجديدة تجاه العالم العربي والإسلامي»، مقال لكمال السعيد حبيب، موقع العرب نيوز، بتاريخ ٢٠٠٢/٢/٨م.

(٢) دانيال بايبس: كاتب أمريكي متعصب ضد الإسلام، وهو رئيس مؤسسة «منبر الشرق الأوسط للأبحاث»، ومقرها فيلادلفيا بأمريكا، أنشأ مركز «التعددية الإسلامية» لتشجيع الإسلام المعتدل! وإحباط التوجهات الوهابية! ضم إلى مركزه د. أحمد صبحي منصور، الأزهري المصري المفصول من الأزهر؛ لإنكاره السنة النبوية، وتهجمه عليها! أبرز الداعمين لهذا المركز بول وولفيتز رئيس البنك الدولي.

«نيكسون» مؤتمر برنامج الأمن الدولي في واشنطن؛ لاستكشاف مدى الدور الصوفي في تحقيق أهداف سياسة الخارجية الأمريكية[1].

وقد عقد المؤتمر في ثلاث جلسات:

الجلسة الأولى: حول الصوفية:

التاريخ، الفلسفة، الجماعات. واقترحت د. هدية مير ثلاث طرق مهمة لتدعم أمريكا التصوفَ، فقالت:

أولًا: الحفاظ على -أو إعادة بناء- الأضرحة للأولياء ومراكزهم التعليمية المرتبطة بهم، لإعادة هيبتها للناس.

ثانيًا: إعادة تذكير الناس بهذه الأماكن وبناء جسور التسامح.

ثالثًا: تمويل إنشاء مراكز تعليمية يمكن أن تساعد في تأهيل أولئك الشباب الذين تحرروا من عدوانية الفكر الوهابي!.

والجلسة الثانية: حول الصوفية في أوروبا وآسيا:

وطالب د. «آلان جودلاس» بدعم النقشبندية التقليدية على وجه الخصوص، ويلخص مقترحاته للإدارة الأمريكية بقوله:

١- تشجيع نشر أعمال حول الصوفيين المحليين، ونشر ترجمات للنصوص الصوفية الكلاسيكية باللغات المحلية الحديثة وبالإنجليزية.

٢- تشجيع دمج القيم الصوفية مع قيم المجتمع المدني في المؤسسات التعليمية.

٣- نصح مختلف أمم آسيا الوسطى باعتماد سياسة منفتحة تجاه إحياء النقشبندية.

٤- تشجيع إحياء الثقافة والأدب الصوفيَّينِ تحديدًا فيما يتصل بالتقاليد

---

(١) تقرير: فهم الصوفية واستشراف أثرها في السياسة الأمريكية، مركز نيكسون، ٢٠٠٤م، ترجمة: د. مازن مطبقاني.

الموجودة المتعلقة بزيارة المقامات في كل دولة!

وأخيرًا قال د. «برنارد لويس»: «هل نحن كأمريكيين سندعم الصوفيين، أم سنعمل مع الوهابيين؟ وإذا عملنا مع الوهابيين فإننا سنخاطر، بينما ليس هناك خطر مع الصوفيين»[(١)].

ويظهر أن هذا المؤتمر يدشن لمرحلة جديدة من التوجهات الغربية، ويبدو هذا مؤيَّدًا بالرؤية التي قدمتها مؤسسة «راند» في تقريرها الصادر ٢٠٠٥م، حيث انتهت شيريل بينارد[(٢)] إلى تقسيم القوى الفاعلة في الشرق الأوسط إلى أصوليين، وتقليديين، وحداثيين، وعلمانيين، وقدمت توصيات مهمة في التعامل مع كلٍّ، وانتهت إلى دعم وتأييد الاتجاه الصوفي ونشره والدعوة إليه[(٣)].

وفي خطوات متتابعة في عام ٢٠٠٥م نشرت مجلة «يو إس نيوز آند وورلد ريبورت» (us news & world report) في ٢٠٠٥/٤/٢٥م تقريرًا بعنوان: «عقول، وقلوب، ودولارات».

جاء في إحدى فقراته: «يعتقد الاستراتيجيون الأمريكيون -بشكل متزايد- أن الحركة الصوفية بأفرعها العالمية قد تكون واحدًا من أفضل

---

(١) يراجع ترجمة لملخصات المؤتمر على الموقع الإلكتروني: **alsoufia.com** وصحيفة عكاظ السعودية في ١٤٢٤/١١/١٤هـ، عدد (٦٣٢).

(٢) شيريل بينارد: باحثة أمريكية، قامت بتحرير وصياغة تقرير «راند» في ٢٠٠٥م، وشاركت في تقرير «راند» ٢٠٠٧م، تعمل ضمن فريق المؤسسة في العالم العربي بقطر، ولها آراء سلبية واضحة تجاه الإسلام.

(٣) تقرير: الإسلام المدني الديموقراطي: الشركاء والموارد والاستراتيجيات، إعداد شيريل بينارد، صادر عن مؤسسة «راند»، قسم أبحاث الأمن القومي، بدعم ورعاية مؤسسة سميث ريتشاردسون - أمريكا، وترجمة: شيرين حامد فهمي.



يعتقد الاستراتيجيون الأمريكيون ـ بشكل متزايد ـ أن الحركة الصوفية بأفرعها العالمية قد تكون واحدًا من أفضل الأسلحة ضد تنظيم القاعدة والإسلام الجهادي

الأسلحة ضد تنظيم القاعدة والإسلام الجهادي».

«وإذا كان القادة الرسميون الأمريكيون الأصل فيهم أنهم لا يمكنهم التعامل مع الصوفية علنًا بسبب فصل الدين عن الدولة في الدستور الأمريكي، فإنهم يدفعون علنًا باتجاه تعزيز العلاقة مع الحركة الصوفية».

على أنه بالمقابل توجد مجموعة صوفية في واشنطن نفسها تسعى لتعزيز العلاقة مع الإدارة الأمريكية[1]!

وفي عام ٢٠٠٥م في مجلة «ويكلي ستاندرد» (the weekly standard) خرج ستيفن شوارتز[2] ليقول: «يجب على أعضاء السلك الدبلوماسي الأمريكي في المدن الإسلامية من «بريشتينا» في كوسوفو إلى «كشغار» في غرب الصين، ومن «فاس» في المغرب إلى عاصمة إندونيسيا «جاكرتا»، أن يضيفوا الصوفيين المحليين على قائمة زياراتهم الدورية»[3].

وعليه لم يكن مصادفة أن يزور «فرنسيس ريتشارد روني» السفير الأمريكي بالقاهرة مولد «البدوي» بطنطا، وأن يبدي إعجابًا بالصوفية، وينتسب إليها، وأن يأخذ العهد عن أحد شيوخها في المولد! وأن يُنشر خبر

---

(١) التصوف بين التمكين والمواجهة. محمد عبد الله المقدي، (ص٢٩- ٣٠).

(٢) ستيفن شوارتز: أمريكي كان شيوعيًا متطرفًا، ثم دخل الإسلام من باب التصوف يعمل مديرًا لمركز التعددية الإسلامية، المدعوم من قبل بول وولفيتز، وجيمس وولسي مدير المخابرات المركزية السابق.

(٣) مجلة ويكلي استاندرد، ٧ شباط، ٢٠٠٥م.

ذلك علنًا في الصحف القومية المصرية[١].

يعلق الأستاذ فهمي هويدي على التقرير فيقول -حول هذه النقطة-: «في حين تطرح العلمنة حلًّا لمشكلة الأمة الإسلامية، فإن التقرير لا يُخفي دعوة صريحة إلى تشجيع التصوف، وهو ما يعد نوعًا من الدعوة إلى التعلق بما نسميه بالإسلام الانسحابي الذي يقلِّص التدين في دائرة روحية لا يتجاوز حدودها، فهو يتحدث صراحة عن أهمية تعزيز الصوفية، وتشجيع البلدان ذات التقاليد الصوفية القوية على التركيز على ذلك الجانب في تاريخها، وعلى إدخاله ضمن مناهجها الدراسية، بل ويلح على ذلك في عبارة أقرب إلى الأمر تقول: «لا بد من توجيه قدر أكبر من الانتباه إلى الإسلام الصوفي»[٢].

ويقول د. عبد الوهاب المسيري:

«مما له دلالته أن العالم الغربي الذي يحارب الإسلام يشجع الحركات الصوفية، ومن أكثر الكتب انتشارًا الآن في الغرب مؤلفات محيي الدين ابن عربي، وأشعار جلال الدين الرومي... وقد أوصت لجنة الحريات الدينية التابعة للكونجرس بأن تقوم الدول العربية بتشجيع الحركات الصوفية، فالزهد في الدنيا والانصراف عنها وعن عالم السياسة يضعف -ولا شك- صلابة مقاومة الاستعمار الغربي...»[٣].

ويقول د. عبد الوهاب المسيري: ومن أكثر الكتب انتشارًا الآن في الغرب مؤلفات محيي الدين ابن عربي، وأشعار جلال الدين الرومي.

---

(١) صحيفة الأهرام، ١٠/٨/٢٠٠٤م، العدد (٤٢٩٨١).

(٢) اليوم الإلكترونية، عدد ١١٣٧٩ صفحة الرأي، بتاريخ الثلاثاء ٢٤/٦/١٤٢٥هـ، الموافق ١٠/٨/٢٠٠٤م.

(٣) مقال «الإسلام والغرب»، للدكتور عبد الوهاب المسيري، بتاريخ: الأحد ١٤/١١/١٤٢٥هـ - الموافق ٢٦/١٢/٢٠٠٤ م، موقع قناة الجزيرة الإلكتروني.

إرهاصات لنشاط محموم:

وبعد ظهور تلك التوجهات الجديدة بدأ نشاط صوفي محموم اتسع مداه لا ليشمل الشرق فحسب، بل والغرب أيضًا!!

ففي ٢٠٠٣/٧/١٢م نظم المركز الثقافي الأوروبي البلغاري ندوة حول التصوف في الإسلام[١].

وفي عام ٢٠٠٣م كلفت دار «هردر» الألمانية د. نصر حامد أبو زيد[٢] بتأليف كتاب عن ابن عربي ضمن سلسلة عن أعلام الروحانية في الشرق والغرب معًا[٣].

وتُرجمت تائية ابن الفارض إلى الألمانية في فيينا، وترجمت إلى الإيطالية والإنجليزية.

ومؤخرًا ترجم حمزة يوسف قصيدة البردة إلى الإنجليزية[٤].

وفي الدانمرك عام ٢٠٠٤م أقيم على مدى عشرين يومًا محاضرات عن الحلاج وابن عربي[٥].

وقد نقلت مجلة «يو إس نيوز» في تقريرها السابق أن واشنطن قامت بتمويل محطات إذاعة إسلامية وبرامج تليفزيونية ونظمت «دورات تعليمية» في المدارس البحثية وورش العمل السياسية للترويج للإسلام المعتدل في أكثر

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط في ٢٠٠٣/٧/١٢م.

(٢) ولد نصر أبو زيد في إحدى قرى طنطا بمصر في١٠ يوليو ١٩٤٣م، ونظرًا لكتاباته التي أظهر فيها زندقةً فقد حكم القضاء المصري بالتفريق بينه وبين زوجته، وقد هلك بمصر في يوليو ٢٠١٠م، بفيروس في المخ فما اهتم لموته أحد!

(٣) صحيفة النهار، الأربعاء ٢ تموز ٢٠٠٣م.

(٤) حمزة يوسف هانسن: داعية أمريكي نشط ولد في ١٩٦٠م، في واشنطن ويعد أحد أكبر الدارسين والدعاة المسلمين في أمريكا، أسس أكاديمية الزيتونة في الولايات المتحدة، وقد ترجم العديد من المؤلفات الإسلامية إلى اللغة الإنجليزية وهو صوفي مالكي المذهب.

(٥) الصوفية بين التمكين والمواجهة (ص٥٦).

من (٢٤) دولة إسلامية على الأقل، كما سعت إلى ترميم أضرحة المساجد، وإنشاء المدارس الإسلامية من خلال المساعدات الأمريكية، كما مولت الإدارة الأمريكية تدريب أئمة المساجد وعمليات ترميم مساجد وآثار إسلامية في تسع دول منها: مصر، وتركمانستان، وإندونيسيا، وباكستان، وقرغيزيا، وأوزبكستان[١].

كما ذكرت مجلة التصوف الإسلامي أن السفير الأمريكي «روني» قد قابل شيخ مشايخ الطرق الصوفية، وذلك في مقر المشيخة العامة بالحسين[٢].

أما ما يتعلق بالنشاط الصوفي في الشرق فحدِّث ولا حرج!

- **فالكيانات والاتحادات تؤسس**:

- ففي يناير ٢٠٠٣م أُعلن عن تأسيس الاتحاد الوطني للزوايا الجزائرية[٣].
- وفي ٢٠٠٧/٥/٨م أُعلن عن إنشاء المجلس الصوفي العالمي بالقاهرة.
- وفي سبتمبر ٢٠٠٩م أُعلن عن أول اتحاد نسائي لنشر الفكر الصوفي بمصر، وإنشاء دار النساء الصوفيات[٤].
- وفي أبريل ٢٠١٠م أُعلن بالمغرب عن إنشاء اتحاد للزوايا الشاذلية[٥].
- وفي مصر تم وضع حجر الأساس لمبنى جديد للمشيخة الصوفية في ٢٠١٠/١٠/١م، وذلك بحضور مفتي الديار المصرية، والذي تبرع بمبلغ ١٠٠,٠٠٠جنيه، متوعدًا من يعادي الصوفية بأن «ليلته ظلماء وستكون

---

(١) الطبعة الإلكترونية من مجلة (**us news & world report**) في ٢٠٠٥/٤/٢٥م، والملحق الأسبوعي للعرب اليوم، الأردنية في ٢٠٠٥/٤/٢٥م.

(٢) مجلة التصوف الإسلامي، العدد (٣٢٣) ذو القعدة ١٤٢٦هـ- ديسمبر ٢٠٠٥م.

(٣) التصوف بين التمكين والمواجهة، (ص٤٠).

(٤) مجلة روز اليوسف في ٢٠٠٩/٩/٥م، مقال لعصام عبد الجواد.

(٥) موقع واو بريس المغربي في ٢٠١٠/٥/٣١م.

أسود من قرن الخروب!»[1].

- **والمؤتمرات والندوات تعقد:**

- ففي أكتوبر ٢٠٠٢م أُقيم بالمغرب بالتعاون مع مؤسسة «كونراد ايدناور» الألمانية ندوة دولية حول «ابن عربي في أفق ما بعد الحداثة»[2].

- وفي عام ٢٠٠٣م شهدت الإسكندرية المؤتمر العالمي للطريقة الشاذلية، وانعقد المؤتمر بمكتبة الإسكندرية بالتعاون مع منظمة اليونسكو، والمركز الوطني الفرنسي للبحوث والدراسات العلمية، ووزارة البحث العلمي الفرنسية، ووزارة الخارجية الفرنسية، ودار العلوم الإنسانية بفرنسا، ووزارة السياحة المصرية[3].

- وفي سبتمبر ٢٠٠٤م أُقيم مؤتمر للصوفية في المغرب برعاية ملك المغرب محمد السادس[4].

- وفي ديسمبر عام ٢٠٠٤م أُقيم في عاصمة مالي «باماكو» المؤتمر العالمي الأول للطرق الصوفية بغرب أفريقيا[5].

- وفي أول سبتمبر عام ٢٠٠٥م في ليبيا أُقيم مؤتمر دولي بعنوان: «الطرق الصوفية في أفريقيا حاضرها ومستقبلها».

وكان شعار المؤتمر: «معًا من أجل تفعيل دور الطرق والزوايا الصوفية في أفريقيا»[6].

---

(١) صحيفة اليوم السابع المصرية، بتاريخ ٢/١٠/٢٠١٠م.

(٢) صحيفة الشرق الأوسط، خبر بعنوان: ابن عربي في أفق ما بعد الحداثة ٢٠ شعبان ١٤٢٣هـ - ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٢م - العدد (٨٧٣٤).

(٣) مجلة البحوث والدراسات الصوفية عدد (١)، (ص٥٩٥).

(٤) وكالة الأنباء المغربية في ١٠/٩/٢٠٠٤م.

(٥) الصوفية بين التمكين والمواجهة، (ص٤٣).

(٦) مقال «نقض العرى... رؤية في البديل الغربي للتيار السلفي» للكاتب محمد بن عبدالله المقدي، مجلة البيان، العدد ٢٢٣.

- وفي يونيو ٢٠٠٥م أُقيمت ندوة في القاهرة بواسطة العشيرة المحمدية بعنوان: «التصوف ودوره في الإصلاح»[(١)].

- وفي نوفمبر ٢٠٠٥م وفي تلمسان الجزائرية عُقد مؤتمر دولي علمي حول الصوفية[(٢)].

- وفي ٢٠٠٦م أُقيمت حلقة نقاشية بعنوان: «التصوف في مقابل التطرف» تحت رعاية الجمعية العالمية للدعوة، بالاشتراك مع مشيخة الطرق الصوفية[(٣)].

- وفي أبريل ٢٠٠٦م انعقد المؤتمر الدولي حول دور الزوايا المغاربية[(٤)].

- وفي أبريل ٢٠٠٦م عَقدت أكاديمية القاسمي بالاشتراك مع الجامعة العبرية في القدس مؤتمرًا بعنوان: «التصوف في فلسطين في الماضي والحاضر»، وافتتح المؤتمر بكلمة ترحيبية من «سارة سترومزا» نائبة عميد الجامعة العبرية[(٥)]!

- وفي ديسمبر ٢٠٠٦م اخْتُتِمَ المنتدى الدولي الثالث حول الصوفية في وجود (٤٠) أكاديميًّا من الدول العربية، إضافة إلى إيران، وأمريكا، وألمانيا، وفرنسا، وبلغاريا، والصين.

- ودعا د. محمد بن بريكة الناطق الرسمي للطريقة القادرية في الجزائر وعموم أفريقيا إلى اقتراحه المتمثل في بناء مدينة التيجانية التي ستستقطب ٣٥٠ مليون تيجاني من شتى أنحاء العالم لدعم ما يسمى السياحة الدينية[(٦)].

- وفي يوليو ٢٠٠٧م عُقد بالمغرب مؤتمر الطريقة التيجانية بمشاركة

---

(١) يراجع: موقع العشيرة المحمدية الإلكتروني.
(٢) يراجع: موقع العشيرة المحمدية الإلكتروني.
(٣) صحيفة اللواء الأردنية ١٣ شباط ٢٠٠٦م، عدد رقم (١٦٩٣).
(٤) صحيفة الوطن السعودية ٢٠٠٦/٤/٢٨م، عدد (٢٠٣٧).
(٥) الصوفية بين التمكين والمواجهة، (ص٤٩).
(٦) جريدة الشروق اليومية ٢٠٠٧/٢/١٧م.

أكثر من أربعين دولة؛ ليتعاهدوا على نشر طريقتهم في أفريقيا.

- وفي ديسمبر ٢٠٠٧م عُقد بالجزائر وبرعاية الدولة الملتقى الدولي للتصوف بالجزائر.

- وفي يوليو ٢٠٠٨م عُقد بالمغرب أول ملتقى عالمي للزوايا الشاذلية المشيشية في العالم بكل من طنجة وتطوان، وبحضور مفتي الديار المصرية د. علي جمعة[١].

- وفي يونيو ٢٠٠٩م عُقد مؤتمر للصوفية بالقاهرة انتهى بإصدار بيان للطرق الصوفية المشاركة دعت فيه إلى: تشكيل لجان من علماء المسلمين لبحث كيفية التقارب بين العالم الإسلامي والولايات المتحدة!! ودراسة القيم المشتركة التي يمكن التعاون فيها!

- وفي آخر يونيو ٢٠٠٩م وجهت السفيرة الأمريكية بالقاهرة «مارجريت سكوبي» دعوة إلى تسع طرق صوفية لحضور حفل السفارة بعيد الاستقلال الأمريكي أول يوليو.

- وفي ٢٠١٠/٨/٣م نُشر في صحيفة الدستور المصرية خبر اجتماع شيوخ الصوفية مع ممثل الإدارة الأمريكية بحضور مندوب من أمن الدولة؛ وذلك بمقر الطرق العزمية بالسيدة زينب ولمدة ساعتين؛ وذلك للتنسيق بين شيوخ الصوفية في مصر وبين الإدارة الأمريكية لنشر الإسلام الصوفي المعتدل بين المسلمين الأمريكيين، وتم الاتفاق على اختيار الشيخ علاء الدين أبي العزايم -شيخ الطريق العزمية[٢]-

تم الاتفاق على اختيار الشيخ علاء الدين أبي العزايم ـ شيخ الطريق العزمية ـ كمنسق بين الصوفية في مصر والإدارة الأمريكية !

---

(١) موقع واو بريس المغربي الإلكتروني في ٢٠١٠/٥/٣١م.

(٢) وللشيخ أحمد الصديق الغماري -وهو أحد كبار الصوفية- كلام قادح فاضح في تلك الطريقة ومؤسسها؛ فراجعه في كتاب جؤنة العطار (١٥٢/١).

كمنسق بين الصوفية في مصر والإدارة الأمريكية[1].

- وعلى التزامن وفي نفس التوقيت أبرم شيخ مشايخ الطرق الصوفية عبد الهادي القصبي اتفاقًا مع مؤسسة الأهرام على تنظيم مؤتمر سنوي يحضره أعضاء الطرق الصوفية من مصر والبلاد العربية والإسلامية، بدعم من مؤسسة الأهرام الصحفية؛ لمواجهة المد السلفي والفكر الإخواني، كما تتولى المؤسسة أيضًا تنظيم مؤتمر مشابه لنقابة الأشراف بحضور جميع المنتسبين لآل البيت في مصر والعالم.

كما اتفق على نشر سلسلة من الكتب والبحوث التي تتناول الفكر الصوفي المعتدل، وطرحها بأسعار تكون في متناول العامة[2].

وهكذا يبدو المشهد متلاحقًا ومتتابعًا على مستوى المؤتمرات والملتقيات الدولية.

- **والكليات والمعاهد والأكاديميات تُفتح وتُدعَم:**

في عام ٢٠٠٣م تم افتتاح كلية دار العلوم بالحديدة؛ وذلك لتقرير التصوف وترسيخه، وتأهيل أهله لتولي المناصب، وأماكن التوجيه والتأثير في المجتمع اليمني.

وفي مصر جرى سعي حثيث لافتتاح كلية باسم التصوف وعلومه داخل جامعة الأزهر، إلا أنه اعتُرِض عليها من قِبل جهات أمنية ورسمية، فافتُتِح عوضًا عنها في سبتمبر ٢٠٠٤م أكاديمية التصوف التابعة لطريقة العشيرة المحمدية في أربع سنوات دراسية، وقد افتُتح في هذا العام ٢٠١٠م قسم للدراسات العليا بالأكاديمية المذكورة، ولا يُدرى حتى الآن كيف يتسنى لجهة غير أكاديمية أن تمنح شهادات أكاديمية

ولا يُدرى حتى الآن كيف يتسنى لجهة غير أكاديمية أن تمنح شهادات أكاديمية عليا تحت سماء مصر وفي غيبة الأزهر والمجلس الأعلى للجامعات؟!

---

(١) موقع جريدة الدستور الإلكتروني، بتاريخ ٢٠١٠/٨/٣م.

(٢) موقع جريدة الدستور الإلكتروني، بتاريخ ٢٠١٠/٨/٢م.

عليا تحت سماء مصر وفي غيبة الأزهر والمجلس الأعلى للجامعات؟!

وفي عام ٢٠٠٥م افتُتِح بجدة مركز «الروحة للتعلم والتعليم»، وهو من المراكز الصوفية [١].

هذا بالإضافة إلى ما هو موجود قبلَ ذلك من المعاهد والدور في مختلف بقاع العالم الإسلامي والعربي، كدار المصطفى بتريم في جنوب اليمن، ومعاهد كفتارو، والفتح بسوريا، وغير ذلك.

- وفي السودان أشارت صحيفة الأيام السودانية بتاريخ ٢٠٠٧/٨/١٩م أن الحركة الشعبية لتحرير السودان النصرانية قامت بدعم حلقات القرآن الكريم التابعة للصوفية بمبلغ ١٠٠ مليون جنيه.

- **والمراكز البحثية تنشأ والكتب والدراسات والمجلات الصوفية تُطبع:**

ففي أغسطس ٢٠٠٣م صدر العدد الأول من مجلة البحوث والدراسات الصوفية، وهي من مطبوعات العشيرة المحمدية بمصر، وتصدر عن المركز العلمي الصوفي الهادف إلى إحياء التصوف ونشره.

بدأ مركز البحوث والدراسات التابع للطريقة العزمية بمصر إصدار سلسلة من الكتب التي تقوم على مهاجمة التيارات العلمية والدعوية كافة.

وفي عام ٢٠٠٥م بدأ مركز البحوث والدراسات التابع للطريقة العزمية بمصر إصدار سلسلة من الكتب التي تقوم على مهاجمة التيارات العلمية والدعوية كافة، لا فرق في ذلك بين الجمعيات المرخصة من قبل الدولة كالجمعية الشرعية، أو أنصار السنة، أو الجماعات الدعوية كالإخوان والسلفيين بطوائفهم المختلفة، ووصم الجميع واتهامهم بمختلف التهم، والتي منها: العمالة لليهود!!

---

(١) صحيفة البلاد السعودية عدد (١٧٦٤٤)، التصوف بين التمكين والمواجهة، (ص٤٧).

كما أفردت مجالًا واسعًا لمهاجمة «الوهابية» فكرًا ومعتقدًا ومنهجًا وسلفًا وخلفًا وفقهاءَ واختياراتٍ علميةً، وأضافت إلى ذلك هجومًا على شخصيات علمية تاريخية كابن تيمية رحمه الله [1]، وابن عبد الوهاب رحمه الله [2]، وأخرى معاصرة، رحم الله علماء المسلمين أجمعين.

وبالقاهرة ومنذ سنوات تقوم جهة بحثية هي «المكنز الإسلامي»، وبإشراف د. علي جمعة مفتي الديار المصرية على تحقيق تراث ابن عربي بأموال بعض الصوفية من غير العرب!! ليخرج في طبعات فاخرة!

كما تقوم جهة أخرى بالتنقيب في تراث الشيخ السبكي رحمه الله مؤسس الجمعية الشرعية بمصر، وذلك للبحث عن كتبه الأولى التي رجع عنها؛ وذلك لإثبات أن الجمعية الشرعية بمصر هي جمعية صوفية المنشأ قد انحرف مسارها!!

وقد صدرت كتيِّبات جمعت فتاوي موجهة للترويج للمعتقدات والأفكار الكلامية وإسقاط وتجاهل العقائد الشرعية الصحيحة، وتسويغ بدع العبادات المنسوبة للصوفية؛ كأنواع الذكر المبتدع، وتسويغ بناء المساجد على القبور تعظيمًا لها، وقصدها بالصلاة والعبادة.

وباسم د. عمر عبد الله كامل خرج كتاب كبير بعنوان «الإنصاف» يناقش فيه قضايا تتعلق بتسويغ الاختيارات الصوفية في المسائل العلمية والعملية، والرد على المخالفين بطريقة تناسب المثقفين، وتتبنى التقريب بين الصوفية وبعض طوائف الدعوة الإسلامية المعاصرة.

---

(١) أحمد بن عبد السلام تقي الدين ابن تيمية شيخ الإسلام، كان داعية إصلاح في الدين، آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، قلمه ولسانه متقاربان، توفي عام ٧٢٨هـ الأعلام للزركلي (١/١٤٤).

(٢) محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي، زعيم النهضة الدينية الإصلاحية الحديثة في جزيرة العرب، دعا إلى التوحيد الخالص ونبذ البدع وتحطيم ما علق بالإسلام من أوهام. الأعلام للزركلي (٦/٢٥٧).

- **والأنشطة السياسية والإعلامية تعمل على أشدها:**

ولا شك أنه عبر التاريخ تلقت الصوفية دعمًا رسميًّا بشكل أو بآخر، وقد تَشَجَّع كثير من الناس إلى الدخول إلى طرقها بسبب له صلة بالسياسة.

يقول د. عامر النجار:

«إنه قد يكون مما ساعد على انتشار الطرق الصوفية في مصر انتشارًا عجيبًا، واندفاع عشرات الألوف من المصريين للانضمام تحت لواء هذه الطرق هو تشجيع الحكام أنفسهم لحركات الطرق الصوفية؛ ليشغلوا الشعب المصري عن التفكير في ظروفه الاجتماعية والاقتصادية السيئة»[(١)].

ويقول د. عمار حسن:

«وفي الفترة الأخيرة في مصر ظهر جليًّا تَقَرُّبُ الحكومة من المتصوفة، وتَقَرُّبُ المتصوفة من الحكومة، بل والسعي من الطرفين للتقارب، فقد خلقت الظروف الملائمة للتحالف ضد الجماعات الإسلامية أمام الرأي العام باعتبارها طرحًا دينيًّا له مكانته عند المصريين، بينما هي تحتمي بالنظام ضد ممارسات الجماعات السلفية التي ترى تحريم رفع القباب على القبور، وتحريم الطواف بها وعبادتها، والتي تتعيش الجماعات الصوفية على بثها بين الناس، والتي لولاها لتقوَّضَ ركن ركين من أركان التصوف»[(٢)].

يقول الفرنسي المسلم «إريك جيوفري» المختص في الصوفية بجامعة لوكسمبورج بشمال فرنسا في حوار صحفي عن هذا الشأن: «وفي علاقتها بالحركات الإسلامية بالذات نجد أن الأنظمة العربية عملت على إدماج الصوفية في الحكم بهدف محاربة الظاهرة الإسلامية، فوزير الأوقاف المغربي

---

(١) الطرق الصوفية في مصر، د. عامر النجار، (ص٢٨٢).

(٢) الصوفية والسياسة في مصر، د. عمار حسن، (ص١٠٤).

أحمد التوفيق صوفي، كما أن الشيخ أحمد الطيب في مصر -وهو خلوتي- أصبح رئيسَ جامعةِ الأزهر بعد أن كان مفتيًا للديار المصرية، وفي الجزائر نجد أن بوتفليقة قريبٌ جدًّا من الصوفية، وهو ما برز في حملته الأخيرة»[1].

وقد قام الرئيس الجزائري بوتفليقة بزيارة عدد من زوايا وأضرحة الأولياء لزيادة شعبيته، ولنفي اتهامات وُجهت له بالتواطؤ مع التيار الإسلامي السلفي وذلك قبيل الانتخابات الرئاسية التي أقيمت في الثامن من إبريل عام ٢٠٠٤م[2].

وقد صنع اللورد كرومر نفس الصنيع؛ فقد كان أول من أسس مجلسًا أعلى للطرق الصوفية، واختار لرئاسته من سماه شيخ مشايخ الطرق!![3].

لقد صنع اللورد كرومر نفس الصنيع؛ فقد كان أول من أسس مجلسًا أعلى للطرق الصوفية، واختار لرئاسته من سماه شيخ مشايخ الطرق.

ولا شك أن المجال الإعلامي في الحكومة سيتأثر بمجريات السياسة فهذه مجلة «روزاليوسف» تُصدر في ٢٠٠٥/٤/١٦م ملفًّا كاملًا عن الصوفية صدَّرته بقولها: «يجب أن نعترف بالإهمال والتقصير، الإهمال؛ لأننا أهملنا كتلة إسلامية ضخمة منتشرة في كل قرى ومدن وربوع مصر، وهي الطرق الصوفية، والتقصير؛ لأننا لم نَمُدَّ لهم أيادي العون، وتركناهم يواجهون اتهامات بالتشويه قامت بها -وما زالت- جماعات وتيارات إسلامية»، ثم تبين أسباب ذلك الدعم الإعلامي، فتقول: «كل ذلك من أجل إسلام نقي

---

(١) حاوره هادي محمد، موقع إسلام أون لاين الإلكتروني في ٢٠٠٤/٦/٢٠م، وانظر أيضًا: صحيفة الراية القطرية، الأحد ٢٠٠٥/١/٣٠م.

(٢) صحيفة الشرق الأوسط ٢٠٠٤/٢/١٦م.

(٣) من مقال: «تنسيق روحي مع أمريكا»، للأستاذ فهمي هويدي، جريدة الشروق، بتاريخ الأحد ١٥ ذو الحجة ١٤٣١هـ الموافق ٢١ نوفمبر ٢٠١٠م.

وسطي معتدل يواجه التطرف الديني ! وينأى بنفسه عن التوظيف السياسي لتحقيق المصالح الخاصة ! »[1].

والوجود الصوفي الإعلامي بعد الحادي عشر من سبتمبر لا تخطئه عين، فالبرامج الدينية عبر الشاشات الرسمية وغير الرسمية ملء السمع والبصر، بل ودُشِّنت قناة مؤخرًا باسم «الصوفية» تبث أشعارًا وأغاني صوفية من خلال مجموعات من المنشدين بصحبة آلاتهم الموسيقية وتحت التأسيس الآن قناتان صوفيتان، والفضائيات العربية والإسلامية تعج بأخبارهم ونشاطاتهم!

وآخر ما جرى رصده في هذا السباق المحموم أنه بعد إغلاق القنوات الفضائية الإسلامية الهادفة في أكتوبر ٢٠١٠م، وشغور الساحة من تلك البرامج الإعلامية النافعة- حاول التلفزيون المصري أن يسدَّ هذه الثغرة على الطريقة الجديدة فجاء بما يضحك الثكلى! وفيما يلي صورة حية نقلها د. محمد هشام الراغب فقال: «بعد يوم واحد من إغلاق الحكومة لأربع فضائيات إسلامية دفعة واحدة، أطل علينا التليفزيون الرسمي الحكومي من خلال برنامجه الأثير الذي ينفق عليه ببذخ (مصر النهارده) بسهرة (دينية) على الهواء مباشرة من مسجد السيد البدوي بطنطا للاحتفال بمولده، ونقل إلينا التليفزيون الرسمي صورة مشوهة عن الإسلام، وأخذ يروج لها ويكيل المديح لطقوسها وخزعبلاتها، وكنا نتصور أن يكون للتليفزيون الرسمي أدنى شعور بالمسئولية تجاه تثقيف المسلمين وتوعيتهم بدينهم ودفعهم لأن يكون الإسلام راعيًا لأخلاقهم وحافزًا لصلاح دنياهم وآخرتهم، لا أن يتبنى تليفزيون الدولة هذه الصور المقيتة والتي لا يقرها علماء الدين، حتى

---

(١) روز اليوسف العدد (٤٠١٠)، ١٦/٤/٢٠٠٥م.

المتصوفة منهم. أين دعاة (التنوير) الذين صدعوا رؤوسنا، ولماذا لا نسمع لهم صرفًا ولا نصرًا؟

لقد رأينا في التغطية الحية المباشرة فرقةً موسيقية كاملة داخل الساحة الخارجية للمسجد!، وأمامهم مطرب (دكتور)، وإلى جواره مذيع البرنامج يتغزل في صوته وأدائه وألحانه، وطاف البرنامج بصور المشعوذين والدراويش والراقصين، والبسطاء الذين أتوا من كل حدب وصوب يفترشون الأرصفة ويتبرعون بأموالهم القليلة لمقام البدوي وزواره! لا ترى بينهم عالـمًا واحدًا، ولا تسمع في التغطية كلها قال الله أو قال الرسول، ولا تجد مسئولًا واحدًا يشفق على بسطاء الناس الذين يتمسحون بمقام البدوي ويدعونه من دون الله!! بل تجد تغطية لمجهولين عن عباءة البدوي التي تزن ٢٠ كيلو جرامًا والتي لا يتم إخراجها إلا مرة واحدة في السنة، وعن ملابس البدوي والخرافات المحيطة بسيرته الغامضة.

كيف يُقَدَّمُ الإسلام بهذه الصورة المشوهة في **مصر** قلب العالم الإسلامي وبلد الأزهر الشريف؟

هل هذا هو الدين الذي ترغب فيه الدولة وتشجعه وتتبناه؟ هل هذا هو الإسلام المعتدل السمح الذي ينادون به؟ هل يتصرف التليفزيون الرسمي بأموال الشعب على هذا النحو من الرعونة واللامبالاة والجهل بأبسط تعاليم الدين؟

لقد كان السفير الأمريكي السابق ريتشارد روني حريصًا على حضور هذه الموالد لسياسة تخص بلاده تهدف إلى تمييع الدين وتهميشه في حياة المسلمين، لكن كيف نفعل هذا نحن بأيدينا وبأموالنا؟

لقد ذكر تقرير البرنامج أن نحو مليونين من المصريين يتوجهون لحضور

المولد الذي تمتد احتفالاته لمدة أسبوع كامل؛ أليس للأزهر الشريف أو دار الإفتاء رأي في هذه الموالد وما يقع فيها؟

إن مصر ظلت لقرون ممتدة حارسًا أمينًا على عقيدة أهل السنة والجماعة، ونفت عنها انحرافات وتجاوزات عديدة. وإن تبني التليفزيون الرسمي للدولة هذه الانحرافات الحادة يعتبر سابقة خطيرة نرجو أن يتم تداركها ومحاسبة المسئولين عنها سريعًا»[1].

لماذا اختيار الغرب للطرق الصوفية؟

تقول الكاتبة فارينا علم[2]: «من الممكن أن تصبح الصوفية اليوم بتركيزها على القيم الإسلامية المشتركة، ووضع الأهداف السامية نصب عينها بمثابة قوة مضادة للإسلام السياسي المجاهد. وتستطرد لتقول: وقد حذرت التعاليم الإسلامية الكلاسيكية علماء الدين من التقرب الكبير من السلطة السياسية»[3].

ولعل الغرب حين يذكر الصوفية في سياقات البحث عن البديل في الشرق الأوسط يفتش عن طائفة منهم هي شرُّ طوائف الصوفية، وهي التي وقفت مع الاستعمار جنبًا إلى جنب، تؤازره وتنصره، وتقاتل في صفوفه، وتحت رايته، وتدعو الناس إلى الرضوخ له، وتحذر من مغبة مقاومته[4].

فهذه التجانية في أفريقيا تقدم أنموذجًا سيئًا في هذا الصدد، يقول د. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: «ولقد ساعد أيضًا على انتشار هذه الطريقة (التجانية) قيام الإدارة الاستعمارية بتشجيع رجال الطرق الصوفية وخصوصًا الطريقة التجانية،

(١) التليفزيون الرسمي يقدم صورة مشوهة عن الإسلام، د. محمد هشام الراغب، منشور بالموقع الإلكتروني لجريدة الوسط اليومية، بتاريخ: الجمعة ١٥ أكتوبر ٢٠١٠م.

(٢) صحفية بريطانية من أصل بنغلاديشي مقيمه في لندن، وترأس تحرير مجلة (q-news).

(٣) مقال بعنوان: المبادئ الخمسة لمستقبل الإسلام في ٢٠٠٥/٤/٢٧م، موقع (open democracy).

(٤) الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجري، للزهراني، (١/ ٥٣٨).

وكان هذا التشجيع بالمال والنفوذ، وذلك من أجل تشويه صورة الدين الإسلامي عن طريق نشر البدع والخرافات»[1].

وجدنا في كثير من مناطق القارة الإفريقية تنافسًا بين هذه الطرق وصل إلى حد التعاون مع القوى الوثنية ضد حركات الجهاد الإسلامي.

ووجدنا في كثير من مناطق القارة الإفريقية تنافسًا بين هذه الطرق وصل إلى حد التعاون مع القوى الوثنية ضد حركات الجهاد الإسلامي، بل ورفض زعماء الطرق الصوفية الانضمام إلى بني وطنهم لتكوين جبهة إسلامية واحدة ضدَّ هذا المعتدي، ولعل خير دليل على هذا العمل قيامُ الطريقة التجانية في الجزائر بالتحالف مع القوى الفرنسية ضد الأمير عبد القادر الجزائري[2]، وحدث نفس الشيء عندما تحالفت القوى الإسلامية من الطريقة القادرية ضد الحاج عمر الفوتي التكروري في منطقة «ماسينابل»، وحاصرت قوات أحمد البسطاي القادري قوات الحاج عمر الذي اضطر لخوض غمار معركة حربية ضد هؤلاء المسلمين ليخلص جيشه من الحصار، وكانت النتيجة: استشهاد هذا الزعيم الإسلامي على أيدي القوات الصوفية، وليس القوى الفرنسية[3].

ولهذا قال الحاكم الفرنسي في الجزائر: «إن الحكومة الفرنسية تعظم زاوية من زوايا الطرق أكثر من تعظيمها لشأن جنودها وقوادها، وإن الذي

---

(١) الطرق الصوفية في أفريقيا، د. عبد الله عبد الرزاق، (ص٦٥).

(٢) عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري: أمير، مجاهد، من العلماء الشعراء، توفي عام ١٣٠٠هـ. الأعلام للزركلي، (٤/٤٥).

(٣) الطرق الصوفية في أفريقيا، (ص٢٣٠).

يحارب الطرق إنما يحارب فرنسا»[1].

ومثل هذا الموقف وقفه الإنجليز في مصر من الشيخ محمد إبراهيم الجمل شيخ الطريقة السمانية، الذي وصل به الحال في تأييد الإنجليز إلى جمع توقيعات المواطنين ضد ثورة ١٩١٩م، والدعوة إلى بقاء الإنجليز[2].

وقد وقف بريلوية الهند موقفًا بالغ الشناعة بحيث «إن الباحث والقارئ يندهش عندما يرى أنه لم تقم حركة في شبه القارة لمواجهة الاستعمار إلَّا وخالفها البريلوي وكفَّر زعماءَها؛ فقد كتب البريلوي كتيبًا مستقلًّا قال فيه بكل صراحة: «إنه لا جهاد علينا مسلمي الهند بنصوص القرآن العظيم، ومن يقول بوجوبه فهو مخالف للمسلمين، ويريد إضرارهم»[3].

كتب البريلوي كتيبًا مستقلاً قال فيه بكل صراحة: «إنه لا جهاد علينا مسلمي الهند بنصوص القرآن العظيم، ومن يقول بوجوبه فهو مخالف للمسلمين ويريد إضرارهم».

يقول الإنجليزي «فرانسس ربنسن»: «إن البريلوي كان عمله حماية للحكومة الإنجليزية، فإنه أيد الحكومة في الحرب العالمية الأولى، واستمر هذا التأييد للحكومة حتى أيام حركة الخلافة سنة ١٩٢١م، وعقد مؤتمرًا في بريلي وجمع فيه العلماء الذين كانوا يخالفون ترك موالاة الحكومة»[4].

ويقول الصادق المهدي -وهو من أحفاد المهدي صاحب الحركة المهدية في السودان-: «الإسلام الصوفي منذ نشأته اتسم بإسقاط واجب الجهاد، وبالتخلي

---

(١) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا، (ص٥١-٥٢).

(٢) الصوفية والسياسة في مصر، د. عمار حسن، (ص٩٧).

(٣) البريلوية لإحسان إلهي ظهير، (ص٤١-٤٢).

(٤) نقلًا عن البريلوية، لإحسان إلهي ظهير، (ص٤٣).

عن الإيجابية الاجتماعية، فكان أشبه بحركة انطواء مما سهل على جماعته التعايش مع نظم سياسية فرضت سلطانًا على المجتمع»[1].

يقول الصادق المهدي: الإسلام الصوفي منذ نشأته اتسم بإسقاط واجب الجهاد، وبالتخلي عن الإيجابية الاجتماعية.

ليسوا سواء:

يفتش الغرب اليوم عن هذه الفئة من الصوفية المنحرفة ليدعمها فتدعمه! ويؤازرها فتنصره!.

وبطبيعة الحال فإن الصوفية ليسوا جميعًا هذه الفئة، فمنهم من قاتل الاستعمار وجاهده حتى طرده، كالطريقة السنوسية، فقد استطاعت فرنسا إفساد بأس جميع الطوائف الصوفية في إفريقية، واستمالة شيوخها بالرشوة إلا الطريقة السنوسية.

وبطبيعة الحال فإن الصوفية ليسوا جميعًا هذه الفئة، فمنهم من قاتل الاستعمار وجاهده حتى طرده !

وكان علماء الحركة السنوسية يحاربون العقائد الفاسدة بين القبائل في الصحراء الكبرى، ويرشدون إلى حرمة الغلو في تقديس المشايخ والأحياء والأموات، ولا تأذن لأتباعها أن يذكروا ميتًا عند قبره بغير الدعاء له والترحم عليه[2].

حتى قال المستشرق الأمريكي «لوثروب ستيوارد» عن السنوسية: «وهم أشد أعداء الأوروبيين من بين جميع طرق الدراويش، وقاعدتهم الجهاد ضد الكفار، وجمع كلمة المسلمين على العدو العام»[3].

وكما كان للسنوسية هذا الموقف، فقد كان لطوائف وجماعات وأفراد آخرين في القديم والحديث من المنتسبين للصوفية العملية.

---

(١) العرش والمحراب، (ص٣٩٨).
(٢) الحركة السنوسية في ليبيا، د. علي الصلابي، (١/١١٢).
(٣) حاضر العالم الإسلامي، (٢/٣٩٨).

وبالأزهر الشريف علماء كبار فيهم تصوف وديانة، وهم أهل علم وصيانة، ليس فيهم مترخِّص أو ملبِّس.

التصوف لديهم زهادة وطول عبادة، وليس مصيدة للدنيا بأموالها وجاهها؛ حاربوا العلمانية وجاهدوها بأقلامهم وأقوالهم ومواقفهم، وما ترخصوا في فتاويهم، ولا انحرفوا في مناهجهم أو مسالكهم؛ فمنهم من قضى نحبه[1] ومنهم من ينتظر[2] وما بدلوا تبديلًا.

إن علمـــاء الأزهـــر القـــدامى والمعاصرين بريئون في جملتهم مـن لوثة غلاة الطـرق وعبـدة القبـور ومروجي الخرافة.

وأخيرًا فإن علماء الأزهر القُدامى والمعاصرين بريئون في جملتهم من لوثة غلاة الطرق وعبدة القبور ومروجي الخرافة، وفيما يلي برهان ذلك من فتاوى كبار علماء الأزهر الشريف في العصر الحديث من لدن مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده وإلى يوم الناس هذا:

فهذا مفتي الديـار المـصرية فـضيلة الـشيخ الإمـام محمـد عبـده رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥م) يحكم ببدعيةِ التوسُّل بلفظ الجاه فيقول:

«فالتوسل بلفظ الجاه مبتدَعٌ بعد القرون الثلاثة، وفيـه شـبهةُ الـشرك -

---

(١) منهم: فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الغفار عزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ عميد كلية أصول الديـن الأسـبق ورئيس جبهة علماء الأزهر، وفضيلة الأستاذ الدكتور محمود حمايـة رَحِمَهُ ٱللَّهُ رئـيس قـسم مقارنة الأديان بكلية أصول الدين وعضو جبهة علماء الأزهر، وفـضيلة شـيخنا الأسـتاذ الدكتور محمد محمود فرغلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عميد كلية الشريعة.

(٢) منهم: فضيلة شيخنا الأستاذ الدكتور أحمد علي طه ريان عميد كلية الشريعة ورئـيس قـسم الفقـه المقارن متع الله بحياته وأعلى في الدنيا والآخرة درجته، وفضيلة شيخنا الأستاذ الدكتـور نـصر فريـد واصل مفتي الديار المصرية الأسبق، وصاحب المواقف المشهورة والفتاوي الحرة الموفقة بـارك الله في عمله وتقبل سعيه، وفضيلة شيخنا الأستاذ الدكتور محمد الراوي عضو مجمع البحـوث الإسـلامية، وأستاذ التفسير بجامعات العالم الإسلامي نفع الله بعلمه وتقبل منـه الـصالحات، وفـضيلة شـيخنا المبارك الأستاذ الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد أستاذ التفسير بجامعـات العـالم الإسـلامي إمـام العلم والعمل والصدق والورع والجهاد والصبر.

«التوسل بلفظ الجاه مبتدع بعد القرون الثلاثة».

مفتي الديار المصرية
الإمام محمد عبده

والعياذ بالله- وشبهة العدول عما جاء به رسول الله ﷺ فلِمَ الإصرارُ على تحسين هذه البدعة؟!»[١].

وفي موضع آخر يستقبح رَحِمَهُ اللَّهُ ما يصنعه بعض الصوفية من التقرب بالغناء في حفلات ذِكْرِهِمْ الموسومة بالحضرات، فيقول:

«على أن الشريعة المطهَّرة مانعةٌ من أن يُقْرَن ذكر الله بآلات لهو على العموم، بدون استثناء... وأقبحُ شيءٍ في هذا الباب اعتقادُهُم أن طاعة شهواتهم هذه طاعةٌ لله -نعوذ بالله من الزيغ-»[٢].

واعتصامًا بمنهج السلف كانت فتوى مفتي الديار المصرية فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المجيد سليم (ت ١٣٧٤هـ-١٩٥٤م) في شأْن الموالد، حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«عمل الموالد بالصفة التي يعملها العامة الآن لم يفعله أحدٌ من السلف الصالح، ولو كان ذلك من القُرَب لفعلوه»[٣].

ولم يتوانَ شيخ الأزهر الشريف فضيلة الشيخ الإمام محمود شلتوت (ت ١٩٦٣م) في التنديد بمهازل الموالد والحضرات الصوفية، وما يُصنع بمقامات الأولياء، حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ومهما قال عُشَّاقُ الموالد، والمتكسِّبون بها ومروِّجوها -مِن أنَّ فيها ذِكرَ

---

(١) مجلة «المنار» في الجزء الثالث عشر من السنة السابعة في (غرة رجب ١٣٢٢هـ).

(٢) «الأعمال الكاملة» (٢/٢١)، ونشرت في جريدة الوقائع المصرية، العدد ٩٥٨، بتاريخ ٢٧ من ذي الحجة سنة ١٢٩٧هـ.

(٣) «فتاوي دار الإفتاء»، فتوى (٥٨٩)، بتاريخ (أول ربيع الثاني ١٣٦١هـ -٢٧ أبريل ١٩٤٢م).

الله والمواعظ، وفيها الصَّدَقات وإطعام الفقراء -فإنَّ بعض ما تراه فيها ويراه كل النَّاس مِن ألوان الفُسوق، وأنواع المخازي، وصور التَّهتك، والإسراف في المال؛ ما يحتم على رجال الشئون الاجتماعية، وقادة الإصلاح الخُلقي والدِّيني- المبادرةَ بالعمل على إبطالها ومنعها، ووضع حد لمخازيها، وتطهير البلاد مِن وصمتها.

ولقد صارت بحق -لسُكوت العلماء عنها، ومشاركة رجال الحكم فيها- مباءةً عامَّةً تُنتهك فيها الحرمات، وتُراق في جوانبها دِمَاءُ الأعراض، وتُـمسخ فيها وجوه العبادة، وتُستباح البدع والمنكرات، ولا يقف فيها أربابُ الدعارة عند مَظهر أو مَظهرَين مِن مظاهر الدعارة العامَّة؛ وإنما يبتكرون ويبتدعون ما شاء لهم الهوى من صور الدعارة المقوِّضة للخُلُق والفضيلة.

ومِن أشد ما يُـؤلم المؤمن، أن ترى كثيرًا مِن تلك المناظر الدَّاعرة تُطَوِّق في المدن معاهد العلم والدِّين، ومساجد العبادة والتقوى، على مسمع ومرأى مِن رجال الحكم ورجال الدِّين، أرباب الدَّعوة والإرشاد.

أمَّا وضع الشمع والقناديل على مقامات الأولياء وكسوتها فينبغي أن يُعرف، أولًا: أنَّ الدِّين الحق لا يعرف شيئًا يُقال له: (مقامات الأولياء)، سوى ما يكون للمؤمنين المتَّقِينَ عند ربهم مِن درجات، وإنَّما يعرف كما يعرف الناس أن لهم قبورًا، وأن قبورهم كقبور سائر موتى المسلمين، يَحْرُمُ تشييدها وزخرفتها، وإقامة المقاصير[1] عليها، وتحرم الصلاة فيها وإليها وعندها، وبناء المساجد من أجلها، والطواف بها، ومناجاة من فيها والتمسح بجدرانها، وتقبيلها والتعلق بها، ويحرم وضع أستار وعمائم عليها، ويحرم إيقاد شموع، أو ثُريَّات حولها، وكل ذلك مما نرى ويتهافت الناس عليه ويتسابقون في فعله

(١) «مقاصير»: جمع مقصورة، وهي سُورٌ من معدن يحيط بالقبر، يحجب الناس عن ملامسته مباشرةً.

على أنه قربةٌ لله، أو تكريمٌ للولي- خروجٌ عن حدود الدين، ورجوعٌ إلى ما كان عليه أهل الجاهلية الأولى، وارتكابٌ لِـمَا حرَّمه الله ورسوله في العقيدة والعمل، وإضاعة للأموال في غير فائدة، بل في سبيل الشيطان، وسبيلٌ للتغرير بأرباب العقول الضعيفة، واحتيال على سلب الأموال بالباطل.

أَمَّا بعد:

فهذا هو حُكم الدِّين في الموالد، وهذا هو حكمه فيما يُصنع بمقامات الأولياء، فمتى يَتَنَبَّهُ المسلمون ويعودون إلى الهدي الحق؟ ويتقربون إلى الله بما يرضاه الله بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، وتَقَرَّبَ به إليه أولياؤه، الذين آمنوا وكانوا يَتَّقُون، وخير الهدي هديُ محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها»[1].

وحول ما يقترفه القبوريون من منكراتٍ جاءت فتوى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر ومفتي الدّيار المصرية الشيخ حسن مأمون (ت ١٩٧٣م) توضح موقف الأزهر الشريف، حيث قال رحمه الله:

«أود أن أُذكِّر أولًا أنَّ أصل الدَّعوة الإسلامية يقوم على التوحيد، والإسلام يُحارب -جاهِدًا- كلَّ ما يُقرِّب الإنسان مِن مَزالِق الشِّرك بالله، ولا شكَّ أنَّ التوسل بالأضرحة والموتى أحدُ هذه المزالق، وهي رواسب جاهليَّة.

فلو نَظَرْنَا إلى ما قاله المشركون عندما نَعَى عليهم الرسول ﷺ عبادتهم للأصنام قالوا له: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. فهي نفس الحجة التي يسوقها اليوم الدَّاعُونَ للتوسل بالأولياء لقضاء حاجةٍ عند الله أو التقرُّب منه، ومن مظاهر هذا الزيارة أفعالٌ تَتَنَافَى كليَّةً مع عباداتٍ إسلامية ثابتة، فالطواف في الإسلام لم يشرع إلا حول الكعبة الشريفة، وكل طواف

(١) «الفتاوي» للإمام الأكبر محمود شلتوت، ط دار الشروق، (ص١٦٧-١٦٩).

حول أيِّ مكان آخر حرامٌ شرعًا. والتقبيل في الإسلام لم يُسَنَّ إلَّا للحجر الأسود، وحتى الحجر الأسود قال فيه عمر ﵁ وهو يقبِّله: «والله لولا أني رأيتُ رسول الله ﷺ يُقبلكَ ما فعلت»[1].

وعلى ذلك يتضح أنَّ كل زيارة للأضرحة والطواف حولها، وتقبيل المقصورة والأعتاب والتوسل بالأولياء، وطلب الشفاعة منهم؛ كلُّ هذا حرامٌ قطعًا ومنافٍ للشريعة، وفيه إشراكٌ بالله» [2].

ولم يقتصر الأمر حول الإنكار المجمل للبدع، بل امتد ليشمل مَنْعَ أصحابها بكل سبيل ممكن؛ فقد أجْرَتْ جريدةُ الأهرام لقاءً مع وزير الأوقاف المصرية فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور محمد حسين الذهبي (ت ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م) جاء فيه:

«ليس للوزارة سلطانٌ على الطرق الصوفية، هناك المجلس الأعلى للطرق الصوفية هو المسئول، ولقد نَبَّهْنَا إلى خطورة الطريقة البرهانية، وأصدرتْ وزارة الداخلية قرارًا بحظر نشاطها، ومع ذلك فما زالت موجودة، ولها مريدون بالآلاف، ولا بُدَّ أن ننقذ هؤلاء مِن ضحايا التضليل»[3].

وفي مقابلة أخرى للأهرام مع وزير الأوقاف المصرية فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقوري (ت١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) يؤكد على خطورة دور الاستعمار في زعزعة العقائد، وأَنَّ ذلك هو أولُ الطريق لاستعباد الشعوب وتذليلها فيقول:

«فقد عرف المستعمرون والمحتلون هذه النقطة من الضعف فعُنُوا أولَ ما عُنُوا بإقامة الأضرحة والقباب في ربوع البلاد، فانصاع الناس لهم وأطاعوهم راضين».

ثم يردف قائلًا: «ونحن جميعًا نعلم حيلة نابليون وخديعته للشعب

---

(١) أخرجه: البخاري (١٦١٠)، ومسلم (١٢٧٠)، ولفظهما: «لولا أَنِّي رأيتُ رسولَ الله ﷺ قَبَّلَكَ ما قبَّلْتُك».

(٢) الفتوى نشرتها مجلة الإذاعة بتاريخ (١٩٥٧/٩/٧م).

(٣) جريدة الأهرام القاهرية، الجمعة ١٩ ديسمبر ١٩٧٥م.

المصري ببيانه المشهور عقب احتلاله القاهرة، حين سلك السبيل إلينا بتظاهره بالإسلام واحترامه إياه، ثم يذكِّر بلورانس العرب، وأثره الخطير في الاستيلاء على أراضي العرب، ولم يكن سِرًّا ولا أَمْرًا مستغربًا أن الطريقة التجانية هي مَنْ وَطَّدَ للاستعمار الفرنسي -كما صرح بذلك الفرنسيون- وأن لشيوخ الطريقة الختمية مخصصاتٍ شهريةً من الاستعمار البريطاني لدى احتلاله للسودان»[1].

ويحكم مفتي الديار المصرية فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف (ت ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م) بالبدعية على الهيئات التي أَحْدَثَهَا بعضُ الصوفية للذِّكْرِ في موالدهم، ويَتَعَجَّبُ من سكوت بعض المنتسبين للعلم على تلك البدع، بل ودفاع بعضهم عنها، فيقول رَحِمَهُ اللهُ:

(فاعلم أنَّه لا أصلَ في الدِّين لذِكر الله تعالى بهذه الهيئات المذكورة بالسؤال، ولم يُعرف عن السلف الصالح، ولا دعا إليه العارفون مِن أئمة الصوفية، بل هو مِن البدع السيئة التي استحدثها بعض أهل الطرق؛ جهلًا بهَدي رسول الله ﷺ في ذِكر ربه، وهو مِن الـمُحرَّم شرعًا، خصوصًا إذا أدى التزام هذه الهيئات في الذِّكر إلى اعتقاد مشروعيتها وطلبها، ولو على سبيل الندب.

وقد استقر الآن في عقائد العامة -مِن المداومة عليها، ودعوة جهلة مشايخ الطرق إليها، ودفاعهم عنها واستمساكهم بها- أنَّها مِن الدِّين؛ بل مما لا بدَّ منه في الذِّكر ونيل الثواب والأجر، وهذا مما يوجب التحريم ويوقع في الإثم العظيم.

والواجب على كل قادر من العلماء والمشايخ والدعاة إلى الحق أن ينهى عنها ويزجر مَن يأتي بها، ويرشده إلى خطرها، وإلى أن اقتران المعصية

---

(١) جريدة الأهرام في ١٤/٢/١٩٥٥م.

بالطاعة مؤثِّم ومحبط للثواب.

ومِن العجب أن يسكت بعض المنتسبين للعلم عن إنكار هذه البدع وما إليها من الشعوذة والتدجيل الذي اعتاده بعضهم، يشهدونها ويقرونهم عليها ويجارونهم في فِعلها، بل يدافعون المنكرين لها الذائدين عن حمى الدِّين والدَّاعين إلى سبيل ربِّ العالمين وهَدْيِ إمام العابدين. نسأل الله أن يهديهم سواء السبيل)[1].

وينتصب وكيل وزارة الأوقاف المصرية فضيلة الشيخ محمد الغزالي (ت: ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م) للذود عن حياض التوحيد في مواجهة هؤلاء القبوريِّين، ويستنهض العلماء لذلك، فيقول: «ولماذا نستحي من وصف القبوريين بالشرك، مع أن الرسول وصف المرائين به، فقال: «الرياء شرك»[2]. وإن واجب العالم أن يرمق هذه التوسلات النابية باستنكار، ويبذل جهده في تعليم ذويها طريق الحق، لا أن يفرغ وسعه في التمحل والاعتذار. ولستُ ممن يحب تكفير الناس بأوهى الأسباب، ولكن حرام أن ندع الجهل بالعقائد ونحن شهود»[3].

ويرد على من يدافع عنهم وينتحل لهم المعاذير، فيقول رَحِمَهُ اللهُ:

«وليس يُغْنِي في الدفاع عن أولئك الجهلة من العوامِّ أنهم يعرفون الله، ويعرفون أنه وحده مجيبُ كُلِّ سؤال، وباعثُ كُلِّ فَضْلٍ، وأن مَنْ دونه لا يملكون من ذلك شيئًا؛ فإن هذه المعرفة لا تصلح ولا تُقبل إلا إذا صَحِبَهَا إفراد الله بالدعاء والتوجيه والإخلاص، فإن المشركين القدماء كانوا يعرفون الله كذلك... إن العامة عندما يشدُّون الرِّحال إلى قبور تضم رفات بعض الناس، وعندما يهرعون بالنذور والحاجات والأدعية إلى من يظنونهم أبوابًا لله إنما يرتكبون

(١) «فتاوي شرعية» لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف (ص١٦٨-١٦٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٩)، والحاكم (٣٢٨/٤).

(٣) «عقيدة المسلم» (ص ٧٢).

في حق الإسلام مآثم شنيعة»[1].

ويشنع على شيخ الصوفية الأكبر ابن عربي فيقول رحمه الله:

«إنني ألفتُ النظرَ إلى أنَّ المواريثَ الشائعة بيننا تتضمن أمورًا هي الكفر بعينه... لقد اطَّلَعْتُ على مقتطفات من «الفتوحات المكية» لابن عربي فقلت:

كان ينبغي أن تسمى «الفتوحات الرومية»! فإن الفاتيكان لا يطمع أن يدسَّ بيننا أكثر شرًّا من هذا اللغو... ومما يلفت النظر: أن معهد الدراسات الإسلامية بجامعة السوربون قد اتفق مع إحدى العواصم العربية على طبع «الفتوحات» وإخراجها في بضعة وثلاثين جزءًا!

فلحساب مَنْ يتم هذا العمل في هذه الأيام العصبية؟»[2].

ويشير فضيلة الشيخ عبد الحميد كشك رحمه الله **(ت:١٤١٧هـ-١٩٩٦م) إلى منشأ هذه البدع، فيقول:**

«ولقد استطاعت الوثنية أن تتسلل إلى الناس بوسائل كثيرة كان منها تعظيم القبور بالبناء عليها وتعظيمها والتمسح بها، ولم يكن في خير القرون أية مشاهد أو مقصورات على القبور، وإنما ظهر ذلك وكَثُرَ في دولة بني بُوَيْه لَـمَّا ظهرت القرامطة بأرض المشرق والمغرب، وكان بها زنادقة كفار مقصودهم تبديل دين الإسلام»[3].

> **«ولقد استطاعت الوثنية أن تتسلل إلى الناس بوسائل كثيرة كان منها تعظيم القبور بالبناء عليها وتعظيمها والتمسح بها».**
>
> الشيخ عبد الحميد كشك

---

(١) «عقيدة المسلم»، (ص ٦٤ – ٦٩).

(٢) «تراثُنا الفكريُّ في ميزان الشرع والعقل»، (ص ٦٠ – ٦١).

(٣) «فتاوى الشيخ كشك»، (٦/١٨).

وينادي فضيلة الشيخ سيد سابق (ت: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م) على علماء وملوك المسلمين ليقوموا بواجبهم في الإنكار على القبوريين، فيقول:

«وكم قد سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها مفاسدُ يبكي لها الإسلام، منها: اعتقاد الجهلة فيها كاعتقاد الكفار في الأصنام، وعظموا ذلك فظنوا أنها قادرةٌ على جلْب النفع ودفع الشر، فجعلوها مقصدًا لطلب قضاء الحوائج، وملجأً لنجاح المطالب، وسألوا منها ما يَسأل العباد من ربهم، وشدوا لها الرحال وتمسَّحوا بها واستغاثوا، وبالجملة إنهم لم يدَعوا شيئًا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه- فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومع هذا المنكَر الشنيع والكفر الفظيع لا تجد من يَغضب لله، ويغار حميَّة للدين الحنيف لا عالـمًا ولا متعلمًا، ولا أميرًا ولا وزيرًا ولا ملكًا.

وقد تَوَارَدَ إلينا من الأخبار ما لا شك معه أَنَّ كثيرًا من هؤلاء القبوريين -أو أكثرهم- إذا توجهتْ عليه يمينٌ من جهة خصمه حلف بالله فاجرًا، فإذا قيل له بعد ذلك؛ بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني تلعثم وتلكأ وأبى واعترف بالحق، وهذا من أَبْيَنِ الأدلة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال: إنه تعالى ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة.

فيا علماء الدين ويا ملوك الإسلام أَيُّ رزء للاسلام أَشَدُّ من الكفر، وأي بلاء لهذا الدين أَضَرُّ عليه من عِبَادَةِ غير الله، وأي مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة، وأي منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجبًا؟»[١].

ولا يخفى ما جهر به شيخ الأزهر الشريف فضيلة الأستاذ الدكتور محمد

(١) «فقه السنة»، (١/٤٠٢).

سيد طنطاوي (ت ٢٠١٠م) حيث أعلن:

أن هناك بعضَ الممارسات الصوفية التي تهدف إلى الحصول على كرامات للبشر وإلى عبادة البشر لبعضهم لا تكون صوفية؛ بل هي كفرٌ وشركٌ بالله تعالى وانحرافٌ عن المنهج الصحيح للدين الإسلامي، وأن الصوفية أنواعٌ، وليست كلها صحيحة[1].

ويفرق رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي بين أوائل الصوفية وبين المتأخرين منهم، فيقول ﷺ:

« وكان أوائل الصوفية ملتزمين بالكتاب والسنة، وَقَّافِينَ عند حدود الشرع، مطاردين للبدع والانحرافات في الفكر والسلوك.

ولقد دخل على أيدي الصوفية المتبعين كثير من الناس في الإسلام، وتاب على أيديهم أعدادٌ لا تُحصى من العصاة، وخلَّفوا وراءهم ثروةً من المعارف والتجارب الروحية لا يُنكرها إلا مكابرٌ، أو متعصبٌ عليهم.

غير أن كثيرًا منهم غَلَوْا في هذا الجانب، وانحرفوا عن الطريق السويِّ، وعُرفتْ عن بعضهم أفكارٌ غير إسلامية، كقولهم بالحقيقة والشريعة، فمَنْ نظر إلى الخلق بعين الشريعة مَقَتَهُمْ، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم.

وكان لهم كلامٌ في أَنَّ الأذواق والمواجيدَ تعتبر مصدرًا من مصادر الحكم، أي: أَنَّ الإنسان يرجع في الحكم إلى ذوقه ووجدانه وقلبه، وكان بعضهم يعيب على المحدِّثين لأنهم يقولون: حدثنا فلان، قال: وحدثنا فلان، ويقول الصوفي: حدثني قلبي عن ربي، أو يقول: إنكم تأخذون علمكم ميتًا عن ميت، ونحن نأخذ علمنا عن الحي الذي لا يموت، أي: أنه متصل -بزعمه- بالسماء مباشرة!!

---

(١) جريدة الدستور، الخميس ١١ فبراير ٢٠١٠م.

فهذا النوعُ من الغلوِّ -ومثله الغلو في الناحية التربوية- غلوٌّ يضعف شخصية المريد كقولهم: إن المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي غاسله، ومَنْ قال لشيخه: لم؟ لا يفلح. ومن اعترض انطرد!!

هذه الاتجاهات قتلت نفسيات كثير من أبناء المسلمين، فسرت فيهم روحٌ جبريةٌ سلبيةٌ، كاعتقادهم القائل: أقام العباد فيما أراد.. دع الملك للمالك! واترك الخلق للخالق!

يعني بذلك: أن يكون موقفه سلبيًا أمام الانحراف والفساد وأمام الظلم والاستبداد، وهذا أيضًا من الغلو والانحرافات التي ظهرت عند الصوفية»[1].

وصدعًا بالحق، وبيانًا للحكم الشرعي في صناديق النذور الموجودة بالمساجد التي بها أضرحة -يقول مفتي الديار المصرية، فضيلةُ الأستاذ الدكتور الشيخ نصر فريد واصل ﷾:

«إذا كان نذرُ النّاذر مالًا يضعه في هذه الصناديق، يَقصد ناذرُه قُربةَ صاحبِ الضريح، بطلب خيرٍ منه أو دفْع ضُرٍّ عنه أو عن غيره، فيكون نذرًا غير مشروعٍ ويكون مُحرَّمًا بالإجماع؛ لأنَّه في هذه الحالة يكون معصيةً تُقرِّبُ صاحبَها مِن درجة الشِّرْك -والعِياذ بالله- ويكون نذرُه هذا باطلًا، وماله وِزرًا عليه، ولا ثوابَ له في الدُّنيا ولا في الآخرة؛ لأنَّ ذلك النذرَ يكونُ وسيلةً للحرام وما يُؤَدِّي إلى الحرام يكونُ حرامًا، ولأن نذر الحرام مَعصيةٌ، ولا يَنعقد بالإجماع؛ لأنَّه باطلٌ والباطل مَردود على صاحبه»[2].

وعليه: فإنه يتعين على أهل الإسلام كافة وعلى المنتسبين إلى التصوف أو

---

(١) «حقيقة التوحيد»، للدكتور يوسف القرضاوي (ص٤٤-٤٦).

(٢) موقع إسلام أون لاين على الشبكة العالمية www.islamonline.net، بتاريخ ٢٣/ ١١/ ٢٠٠٥م.



يتعين على أهل الإسلام كافة وعلى المنتسبين إلى التصوف أو الأشعرية خاصة أن ينتبهوا إلى أن مراد أعدائنا من الغربيين تبديل ديننا، وإقصاء شريعتنا.

الأشعرية خاصة أن ينتبهوا إلى أن مراد أعدائنا من الغربيين ومن شايعهم هو تبديل ديننا، وإقصاء شريعتنا، ولا يمكن بحال أن يكون المقصود هو إنهاض هذه الأمة من كبوتها أو إصلاح طريقتها.

ولقد كفوا مؤنة تفسير هذا الدعم، وذاك التقارب بما ورد في تقرير راند الأمريكي الذي جاء فيه: «إن تحويل ديانة عالم بكامله ليس بالأمر السهل، إذا كانت عملية بناء أمة مهمة خطيرة فإن بناء الدين مسألة أكثر خطورة وتعقيدًا منها».

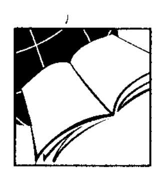
قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

فلا يصلح أن يضع مسلم يده في يد عدو دينه متمالئًا معه على بني دينه وملته، ولو كانت بينه وبينهم خصومة فكرية أو خلافات علمية أو عملية.

ولا تصلح في دين الله تعالى مظاهرة كافر على مسلم مهما كان حجم الخلاف معه.

ولا يصلح في دين الله تعالى أن تدعم المخططات والمصالح الأمريكية على حساب المصالح الشرعية والوطنية والقومية للأمة الإسلامية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].



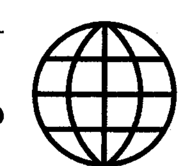
الفصل السابع



7

مواجهة العقيدة السلفية بالفرق الكلامية





مواجهة العقيدة السلفية بالفرق الكلامية

تصرُّ مخططات أعداء الله تعالى على أن تحشر كل موالٍ لشريعة الله تعالى ومؤمن بمرجعيتها في خندق السلفية، وذلك بغض النظر عن أية توجهات دعوية أو عملية؛ لذا فإن هذا المصطلح يجمع الطوائف السلفية بالمفهوم الدعوي المعاصر وغيرهم؛ كالإخوان المسلمين، وجماعات الجهاد، والتبليغ، والجمعيات الدعوية كأنصار السنة، والجمعية الشرعية بمصر، والمدارس الإسلامية بباكستان، وغيرها من الجمعيات بمختلف البلدان؛ بل وتنضم إلى هذه القائمة هيئات العلماء الرسمية في السعودية، ونظام الحكم في طالبان!

وفي تقرير راند «٢٠٠٥م» جرت المناداة بمؤتمر دولي يدشن لقيام مؤسسة دولية لمحاربة ما أسموه «التطرف السلفي»[١]!

وعلى نفس الطريق جاء التقرير الآتي في ٢٠٠٧م داعيًا أن يُستخدم التيار التقليدي مع الصوفي في مواجهة الإسلام السلفي، وأحيانًا جرى التعبير عن السلفية بـ«الوهابية»[٢].

كما نصُّوا على أن أصحاب المناهج الفلسفية والكلامية هم أقدر من غيرهم على التصدي لأهل السنة على اختلاف أطيافهم.

وبناءً عليه فإن الغرب يعتقد -وبحق- أن قاعدة التدين في الشرق الأوسط هي قاعدة سلفية تتخذ الكتاب والسنة ومنهج السلف مرجعية شرعية تحكم جميع شئونها الدينية والدنيوية.

إن الغرب يعتقد ـ وبحق ـ أن قاعدة التدين في الشرق الأوسط هي قاعدة سلفية تتخذ الكتاب والسنة ومنهج السلف مرجعية شرعية تحكم جميع شئونها الدينية والدنيوية.

ومن هنا انطلق الغرب يبحث عمن يمكن أن يخوض بهم ومعهم هذه الحرب الفكرية الكلامية ضد طوائف أهل السنة والدعوة الإسلامية، والذين وضع لهم تعريفًا جامعًا وهو أنهم يدعون - على الأقل - إلى الاعتراف بالشريعة كأساسٍ للتشريع!![٣].

ومن ذلك التوقيت فقد بدأ النفخ في وقود حرب علمية وفكرية بين السلفيين بالمفهوم الأوسع من جهة والأشاعرة والمعتزلة والرافضة من جهة أخرى، وعلى فور إطلاق هذه الحملة الظالمة فقد استعملت في هذه المواجهات ألوان مختلفة من الأسلحة، ويمكن أن يرصد من ذلك ما يلي:

---

(١) تقرير «راند»، (ص١٤٥).

(٢) تقرير «راند»، (ص٨٥).

(٣) تقرير «راند» ، (٢٠٠٧م)، (ص ٧٥).

- **كتب السب والقذف بالبهتان تنشر:**

- بدءًا من (٢٠٠٥م) صدرت كتب وإصدارات كثيرة عن مركز البحوث والدراسات التابع للطريقة العزمية بالقاهرة، ووزعت مع الباعة بثمن رمزي، وقد حملت هجومًا تكفيريًّا حادًّا وعباراتٍ نابيةً بعيدة عن أدب الخلاف!! ومن الأمثلة:

قولهم عن ابن تيمية رحمه الله: «المقتدي بأسلافه كلاب النار الحروريين (الخوارج)... والذين كفروا كثيرًا من الصحابة».

«وهو جاهل بأصول الدين جهلًا مركبًا، وقد حكم على نفسه بالشرك وعبادة غير الله وهو لا يشعر!».

«وهو مكذِّب لنصوص كتاب الله تعالى وصريح سنة نبيه... ومرتكب بذلك جرمًا عظيمًا... وصاحب حكم فاجر... ومُلَبِّس، وكذاب، وجبان... وجاهل باللغة العربية وأصول الدين».

وربما جمع السياق في الشتم والسب بين ابن تيمية وابن عبد الوهاب، فقالوا: «وهو الذي استبدل عقيدة التثليث بعقيدة التوحيد عندما اخترع «توحيد الألوهية»!....

«وجاء محمد بن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر الهجري بإيعاز من ابن تيمية بما عجز عنه ابن تيمية، ورسَّخ عقيدة التثليث بإضافة توحيد الأسماء والصفات.

وإذا أردنا أن نؤرخ لدخول التثليث في عقيدة بعض المسلمين فلن نجد ذلك قبل القرن الثاني عشر الهجري الذي ظهر فيه ابن عبد الوهاب».

وجاء أيضًا: «لقد سَنَّ ابن تيمية للوهابية -وهو جاهل بالدليل وبأصول الفقه جهلًا مركبًا، كما هو جاهل باللغة وبأصول الدين- سَنَّ للوهابية انتهاك حرمة النبي ﷺ؛ ولذلك استحق أن يوصف بالخبيث المكابر ناقص العقل، الذي في قلبه مرض الزيغ، المتتبع ما تشابه من الكتاب والسنة ابتغاء الفتنة... والمكذب لرب العالمين،... والخارج من الدين،

والمزدري بأصفيائه المنتخبين وخلفائه الراشدين، وأتباعهم الموفقين»[1].

ومن اللافت للنظر أن أصحاب هذه الرسائل لم يكتبوا أسماءهم على طرَّتها، ومما يلاحظ أيضًا أنهم أوسعوا علماء السعودية المعاصرين والرسميين سبًّا وشتمًا وتأنيبًا، الأمر الذي أثار أزمة واحتجاجًا رسميًّا من وزارة الأوقاف السعودية لدى شيخ الأزهر السابق الدكتور محمد سيد طنطاوي، والذي أمر من خلال قرار مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر منع طبع وتداول تلك الكتب درءًا للفتنة بين المسلمين!

إلا أن مُصدري هذه الكتب قاموا بترويجها على نطاق أوسع برفعها على الشبكة العالمية للمعلومات « الإنترنت»!

ولقد علق الأستاذ الدكتور محمد عمارة على هذه السلسلة من الكتُب مستاءً مما ورد فيها فقال: «تلك نماذج -مجرد نماذج- من «الفحش الفكري» الذي قدمته -وتقدمه- سلسلة من الكتب الجمهورية، التي تصدر شهريًّا، والتي صدر منها عند كتابة هذه الدراسة أكثر من عشرين كتابًا!!

والتي توضع على موقع «الطريقة العزمية» على الشبكة العالمية للمعلومات!!! لتقدم: « الفتنة الفكرية» لعامة المسلمين... **ولتقدم لأعداء الإسلام مادة غزيرة وخطيرة في حربهم على الوهابية التي وضعها الأمريكان ويضعونها -بعد قارعة سبتمبر ٢٠٠١م- في مستوى الشيوعية... ويسمونها الفاشية الإسلامية!! ويشنون عليها أشرس الحملات والهجمات.**

- لقد طلب مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف منع هذه الكتب من

---

(١) تراجع الكتب التالية عن المركز المذكور: خطر تقسيم التوحيد على عقائد المسلمين (ص٥، ٦، ١٦، ٣٦، ٥٦، ٦٦، ٧٢، ٨٠، ٨١، ٨٤، ٩٠، ١٠٠، ١٤٤، ١٤٧) ط: القاهرة ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥م، وكذلك «العقائد الوثنية والشرائع السماوية» في ذات السلسلة (ص ٧، ١٢، ١٢٠، ١٢٨) وكتاب «ليسوا من أهل المعية» (ص١٢، ٣٧، ١٣٧، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧)».

التداول، درءًا للفتنة بين المسلمين... لكن الشبكة العالمية للمعلومات قد أتاحت -وتتيح- الاطلاع عليها لجمهور أوسع وأعرض من جمهور القراء للكتاب»[1].

كما صدر بمصر في الأعوام الستة الأخيرة عدد من الكتب والإصدارات بأسماء أصحابها للنيل من علماء أهل السنة وأعلامهم ككتاب: «ابن تيمية بين تناقضين» لسعيد ألماظ، وكتاب: «أخطاء ابن تيمية في حق رسول الله وأهل بيته» لمحمود صبيح، وغير ذلك من الكتب.

- وفي (٢٠٠٨م) وعن وزارة الأوقاف المصرية صدر كتاب د. محمد عمارة بعنوان: «السلف والسلفية»، والذي قدم له وزير الأوقاف د. محمود حمدي زقزوق بقوله: «... وجدنا لزامًا علينا في وزارة الأوقاف أن نتصدى لعلاج هذا الخلل الفكري الذي غرسه الفكر الوهابي السلفي...»[2].

- وعن دار الرازي ودار الفتح بالأردن صدر عدد من الكتب التي تهاجم العقائد والرموز السلفية التاريخية والمعاصرة على حدٍّ سواء لسعيد فودة وغيره من الأشعرية الصوفية من بلاد مختلفة، وفي ذات التوقيت التي خرجت فيه الكتب المصرية.

- وعن مركز «الأحمدية» بالإمارات صدرت كتب تؤكد على الاختيارات الأشعرية في العقيدة والأصول!

- وفي مقال لمفتي الديار المصرية د. علي جمعة عن الأشاعرة قال فيه: «وفي مجموع فتاوى ابن تيمية في المجلد الثالث وهو يحكي عن مناظرة صفي الدين

---

(١) فتنة التكفير بين الشيعة والوهابية والصوفية، ضمن سلسلة قضايا إسلامية، د. محمد عمارة، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، العدد (١٤٢) في ذي الحجة ١٤٢٧ هـ - ديسمبر ٢٠٠٦م، (ص٦٩).

(٢) السلف والسلفية، د. محمد عمارة، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، (ص ٤).

الهندي: (قلت له: أنتم ما لكم على الرجل اعتراض، فإنه نصرَ تَرْكَ التأويل، وأنتم تنصرون قول التأويل وهما قولان للأشعري) ونقلُ ابن تيمية هذا وقبوله له يدل على أنه كان أشعريًّا ورضي بذلك[1]، ولكن بعضهم يحاول أن يجعله على مذهب ابتدعوه اسمه مذهب السلف، والسلف ليس مذهبًا»[2][3].

• والندوات والمؤتمرات تـُعقد:

- وفي سبتمبر ٢٠٠٦م أُقيمت بماليزيا ندوة عالمية عن الهجوم على السلفية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، برعاية جمعية «صوفا» الماليزية الصوفية، وبحضور عربي وإسلامي، شارك فيها أشاعرة صوفية من مصر والسعودية والأردن وغيرها!

- وإذا كان تقرير راند (٢٠٠٥م) قد دعا إلى مؤتمر دولي يدشن لمواجهة العقيدة والفكر السلفيين فقد انعقد مؤتمر بالقاهرة عبر رابطة جديدة حملت اسم: رابطة خريجي جامعة الأزهر، وكان مؤتمرها الأول عن أبي الحسن الأشعري والأشعرية، وذلك بفندق الإنتركونتننتال في الفترة من ٢٤-٢٧ جمادى الأولى ١٤٣١هـ الموافق ٨-١١ مايو ٢٠١٠م، واستضاف نحو مائتين وخمسين ضيفًا حول العالم، وقد افتتحه كل من شيخ الأزهر ومفتي الديار ووزير الأوقاف بمصر.

وقد دارت محاور المؤتمر في جملتها على إعلان قيام هذه المرجعية الأشعرية

---

(١) بقية الكلام في فتاوي ابن تيمية قال: «أنا أختار قول ترك التأويل، وأخرج وصيته التي أوصى بها وفيها قول ترك التأويل».

(٢) جريدة الأهرام، الاثنين ١٤٢٩/٢/١٨هـ، الموافق: ٢٠٠٨/٢/٢٥م.

(٣) من عجب أن يقال: إن السلفية مرحلة زمنية مباركة! كما ينقله د. علي جمعة عن د. البوطي، أوليس الأولى من كلام الشيخ البوطي كلام مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده ؟ حين قال عن السلفية إنها: «فهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى»، انظر: الأعمال الكاملة، لمحمد عبده، (٢١٨/٢)، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، بيروت ١٩٧٢م.

بالمناوأة للمرجعية السلفية علميًّا ومنهجيًّا وفكريًّا، ومن اللافت للنظر أن عددًا من الحضور لم يتوافق مع هذا التوجه الغريب، فلما أعلن معارضته من خلال مداخلات أو تعليقات على ما ألقي من كلمات أو محاضرات كان نصيبه الهجوم اللاذع والتقريع الصريح!!

- **والتضييق على المناشط والأعمال والرموز السلفية على أشده:**

- وعلى مستوى آخر فقد عمدت إدارة جامعة الأزهر ثم مشيخة الأزهر بقيادة فضيلة الدكتور أحمد الطيب إلى التضييق على كل من يبدي تسامحًا مع المنهج السلفي، وفي هذا الصدد منعت عددًا من الأساتذة من التدريس والمشاركة في الامتحانات وأعمال التصحيح، وأحالت عددًا من هؤلاء الأساتذة الجامعيين إلى تحقيقات قانونية بتهم متعددة تدور في جوهرها حول تبني السلفية.

كما اتخذت إدارة الجامعة في عهد فضيلته موقفًا متشددًا من كلية الدعوة الإسلامية ورجالاتها بوصفها كلية سلفية!!

ووجهت العمداء بضرورة رفع أسماء من ينتسبون إلى هذا المنهج من جميع الكليات الشرعية، لمنعهم من التدريس، ولو بتصيد الأخطاء، وتلفيق التهم! واضطر عدد من هؤلاء للسفر خارج البلاد حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا!

وامتد هذا النطاق من المحاصرة والتضييق ليطال التدخل في مناهج ومقررات المعاهد الشرعية لإعداد الدعاة بمختلف الجمعيات الدعوية، وإيقاف عدد من شيوخها لنفس الأسباب، وإحالة عدد من أئمة المساجد التابعين للأوقاف المتهمين بالسلفية إلى تحقيقات تنتهي غالبًا بالإقصاء عن المساجد المؤثرة والكبيرة بمختلف المدن.

- وفي الإمارات أُنهي تعاقد وجرى ترحيل عدد كبير من الأئمة المعارين للعمل بالمساجد ممن ثبت انتسابهم للمنهج السلفي!

- وعلى خطٍّ موازٍ أُغلقت المدارس الشرعية الباكستانية بأوامر أمريكية صريحة، كما أُعيد النظر في مناهج دراسية بمختلف المراحل التعليمية بالسعودية تحت دعوى التطوير! وجرى بالفعل استبدال تلك المناهج! وذلك بالمخالفة لما أوصى به العلماء الرسميون!

- ومن اللافت للنظر -أيضًا- ما يُرْصَدُ من استبعاد لبعض العلماء من مناصبهم سواء في هيئة كبار العلماء، أو بمجلس القضاء الأعلى، أو هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو استيراد الفتاوي وعدم الاكتفاء بالعلماء المحليين مع منع الكافة من الفتيا إلا بتصريح، وإغلاق مواقع الفتيا الإلكترونية.

- **والوسائل الإعلامية تشارك أيضًا في هذه الحرب:**

- وعلى المحور الإعلامي فقد بات الهجوم على تلك الاختيارات السلفية العلمية عقديًّا وفقهيًّا مادة للحديث العام تلفزيونيًّا وفضائيًّا، وذلك بدءًا من الأحاديث التي ألقاها آنذاك رئيس الجامعة الأزهرية الدكتور الطيب في قناة النيل الثقافية، إلى تلك الأحاديث واللقاءات الدعوية الشبابية التي نقلتها قناة اقرأ الفضائية!

وصدرت توجيهات للصحف بتناول هذا الموضوع عبر تحقيقات جرى فيها تناول السلف الأوائل، ومن ينتسب إليهم في العصر الحاضر بدرجات متفاوتة من النقد والتحذير، وأخيرًا التشهير![1].

ومن ذلك قول د. سالم عبد الجليل وكيل وزارة الأوقاف المصرية لشئون الدعوة: «ماذا قدم السلفيون الجدد لهذه الدعوة؟ فبالوقوف على أحوالهم وتأثيرهم في

---

(١) على سبيل المثال يراجع: التحقيق الصحفي المنشور بملحق جريدة الأهرام، صفحة فكر ديني، بتاريخ: الجمعة (٢٤ /١٠/ ٢٠٠٨م)، والذي يليه بتاريخ: (٣١/١٠/٢٠٠٨م).

المجتمعات الإسلامية، اتضح أنهم لم يستوعبوا تراث القدامى، ولم يقدموا جديدًا لاستمرار هذه الدعوة وفعاليتها؛ بل على العكس فقد كانوا أحد أهم أسباب تأخرها واتهامها بالعنف والتشدد، وبخاصة بعد أن تركوا الفهم والتعقل ومواكبة العصر وانساقوا وراء تقليد بعض الشكليات، وحقَّروا من شأن علوم الحياة بدعوى التفرغ للعلوم الشرعية التي ما قدموا لها أي جديد، في الوقت الذي أغلق السلفيون المعاصرون على أنفسهم منافذ التنوير والتحديث أعلنوا أنهم أصحاب الرؤى الوحيدة الصحيحة بفهم الإسلام وأنهم الفرقة الوحيدة الناجية، وأن كل ما عداهم على ضلالة؛ فاصطدموا بذلك مع كل التيارات والآراء الإسلامية الأخرى، وكانت الغلظة هي السمة التي ميزت تعاملهم مع الآخرين مما أدى إلى نفور عامة المسلمين الذين عقدوا الآمال على أن الخيار السلفي هو الحل للخروج من الأزمات المتلاحقة والمستعصية التي تحيط بهم؛ فلم تحقق لهم الدعوة السلفية المعاصرة ذلك»[(١)].

وكنموذج آخر نجد الباحث نبيل عبد الفتاح -من مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية ورئيس تحرير تقرير الحالة الدينية- يؤكد أن أسباب تغير موقف الطبقة الوسطى في مصر هي الثقافة الإسلامية ذات الجذر الوهابي السائدة في شبه الجزيرة العربية، وهي ثقافة وضعية متشددة حنبلية ولا تعكس الإسلام؛ إنما تعكس البنية الاجتماعية، وأنماط السلوك في الخليج والجزيرة والتي انتقلت إلى هنا عن طريق الحركة السلفية أو التوجه السلفي داخل جماعة الإخوان المسلمين»!![(٢)].

وهكذا صارت عناوين الهجوم على السلفية شيئًا مألوفًا في تحقيقات مجلة روز اليوسف المملوكة للدولة في مصر، وللتمثيل فقط هذه بعض عناوينها في السنتين الأخيرتين (٢٠٠٩-٢٠١٠م):

---

(١) (سلفية المعاصرين تراجع وجمود)، جريدة الأهرام، بتاريخ: (٣١/١٠/٢٠٠٨م).

(٢) من لقاء له في برنامج (مانشيت) على قناة (أون تي في)، بتاريخ: (١٠/١/٢٠١٠م).

- السلفيون .. الخطر الناعم في مصر.
- ألغام السلفية تهدد بتفجير الوحدة الوطنية.
- في القنوات السلفية: الفلوس للمشايخ .. والتطرف للجميع![1].

وفي مقابلة نشرت بموقع «أون إسلام» الإلكتروني مع مفتي الديار المصرية د. علي جمعة اعتبر أن السلفية المتشددة أقرب إلى العلمانية منها إلى الإسلام! وأن الفكر السلفي المنغلق هو الوجه الآخر للفكر العلماني! شارحًا أنه «إذا كانت العلمانية تريد أن تعزل الدين عن سير الحياة، فإن السلفية تسعى إلى أن تنعزل بالدين عن الواقع!»[2].

ومن أخطر ما رُصِدَ من هذه التحقيقات الصحفية ما أجراه الصحفي مكرم محمد أحمد مع فضيلة شيخ الأزهر، والذي نُشر في الأهرام بتاريخ ١٠/٧/٢٠١٠م ؛ ففي سؤال حول أسباب تراجع دور الأزهر قال فضيلته: «... لكن سيطرة بعض العناصر الاشتراكية والماركسية على الثقافة في مصر خلال هذه الفترة أسهمت في تحديد دور الأزهر ومكانته، وأدت إلى تراجع دوره خارج مصر، على حين نشطت جهود آخرين لتملأ هذا الفراغ، نشطت الكنيسة الغربية في دورها التبشيري في إفريقيا، ونشطت الماركسية في جهودها للتقليل من أهمية الدين، وساد فقه البادية، وسعت الوهابية إلى أن تملأ جزءًا من هذا الفراغ»!

وحول تحول الدين في نظر البعض إلى مظاهر وطقوس شكلية قال الشيخ: «أعود فأقول: إنه في غيبة دور الأزهر نشط السلفيون، ونشطت بعض المذاهب الوافدة، وحاولت الوهابية أن تملأ الفراغ، وانتشر فقه البادية على حساب فقه الوسط!!

---

(١) معاداة السلفية، مقال: د. محمد هشام الراغب، موقع الوسط الإلكتروني (el-wasat.com بتاريخ: (٢٣/٤/٢٠١٠م).

(٢) موقع أون إسلام الإلكتروني، بتاريخ ١٨/١٠/٢٠١٠م، إعداد: هشام جعفر وعبد الهادي أبي طالب.

ووجدنا (عشرات الكتب التي كان يطبعها الأزهر لترويج فكر الوسطية خاصة كتب الأشعرية وتفسير الجلالين، وقد أعيد طباعتها خلسة في الخارج، وأضيف إلى حاشيتها تفسيرًا وإضافات لم تكن موجودة في النسخ التي طبعها الأزهر؛ لترويج أفكار متشددة رفضها الأزهر على طول تاريخه...».

وفي سؤال حول الرافضة والموقف منهم قال الشيخ: «الفروق ليست جوهرية! هم يؤمنون بالله الواحد الصمد، ونحن نؤمن به، ويتبعون محمدًا كما نتبعه، ويقدسون القرآن الذي نقدسه، ويمكن أن نصلي خلف أئمتهم، ويصلون خلف أئمتنا، والخلاف محصور في ترتيبهم لأمور الخلافة؛ لأنهم يعتقدون أن عليًا -كرم الله وجهه- هو الأولى والأكثر استحقاقًا، ويعتقدون في تسلسل الأئمة وصولًا إلى المهدي المنتظر»!.

أوليس الوهابية -أيضًا- يؤمنون بالله الواحد الصمد ويتبعون محمدًا ﷺ ويقدسون القرآن؟!

وقد احتوى اللقاء على مسائل أخرى في الموقف من اليهود والنصارى كان الشيخ فيها غريبًا حين اعتبرهم مؤمنين!! بالإضافة إلى اعتبار الخلاف مع الشيعة الرافضة في هذا الحوار وفي غيره خلافًا غير جوهري، كما عَرَّضَ بالقنوات الإسلامية بما فيها قناة أزهري!

هذا، وقد أحدث هذا التحقيق ردود فعل متعددة، فقد قام الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالرد على شيخ الأزهر في الأهرام بتاريخ ٢٠١٠/٧/١٩م.

فكان مما ورد في رده على شيخ الأزهر: «إن فضيلة الشيخ الكريم ذكر ما سماه فقهاء البادية والوهابية مع الكنيسة الغربية والماركسية، وهذا خلط لا يليق أن يصدر من فضيلته؛ فالكنيسة الغربية بأهدافها الاستعمارية، والماركسية بأهدافها الإلحادية لا يجوز أن يقرنا بفقه إسلامي قد نختلف مع بعض اجتهاداته، أو مع دعوة

إصلاحية قد نختلف مع بعض أفكارها...».

ثم ذكر أصول هذه الدعوة الإصلاحية بالنقل عن مؤسسها، ثم ختم الرد بقوله: «إنني اعتقد أن ما ورد في حواره مع (الأهرام) في هذا الخصوص كان كبوة جواد لعله يعمل على تجاوزها بفكر العالم الكبير وحصافة الإمام الجليل، وبالروح السمحة التي عرفناها في الأزهر الشريف وفي علمائه الكرام عبر العصور».

وباحتجاج السعودية وردِّها على هذا التصريح المعلن رسميًّا عن شيخ الأزهر فقد بدا أن الدخول في مثل هذه التحقيقات الصحفية سوف يسبب إشكالات سياسية، وبعد هذا الموقف فقد صار مألوفًا أن يحال الصحفيون على المتحدثين الرسميين باسم الأزهر وهما سفيران من وزارة الخارجية المصرية!

ومن آخر ما تفتقت عنه القرائح في معاداة التيار السلفي إغلاق القنوات الفضائية الهادفة، والتي جرى عليها حملات من التشويه والتشويش، لينتهي الأمر بإغلاق اثنتي عشرة قناة في بضعة أيام!

ومن المسلَّم به أن إغلاق هذه القنوات سيترك فراغًا كبيرًا في الحياة الدينية لدى الجماهير العربية والإسلامية.

وللإنصاف صوت:

في خضم هذا الهجوم العاتي وجد من الأساتذة الأكاديميين من يحاول أن يعيد الأمور إلى نصابها، ويرد على الافتراءات بشكل علمي، وأسلوب منهجي بعيدًا عن العمل لحساب «أجندات خاصة» محلية كانت أو أجنبية!

فقد صدر بحث عن وزارة الأوقاف المصرية والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد (١٥٣)، من سلسلة دراسات إسلامية، بعنوان: تيارات إسلامية

معاصرة، الجزء الأول، يتناول قضية السلفية[1]، وقد شارك في تحريره كل من:

أ.د. محمد السيد الجليند، أ.د. عبد اللطيف محمد العبد.

ومما جاء فيه عن معنى السلف والسلفية:

«يعلم الدارسون لتاريخ الفكر الإسلامي أن مدارسه المتعددة، وفرقه المختلفة يرجع كل منها في تاريخ نشأته إلى شخص معين يرتبط به تاريخ نشأتها فتنسب إليه، كما يرتبط تاريخ نشأة المعتزلة بواصل بن عطاء، وتاريخ نشأة الأشاعرة بأبي الحسن الأشعري، وكذلك فقه المذاهب الأربعة؛ كل مذهب منها يرتبط بتاريخ إمامه ومؤسس قواعده وأصوله، كالشافعية والحنفية والحنابلة... إلخ؛ فإن هذه المذاهب الفقهية والكلامية ترتبط بمؤسس المذهب وإمامه الذي تنسب إليه.

أما السلف فإن أمرهم في نسبته يختلف تمامًا عن هذه المذاهب، أو تلك الفرق، فهم لا يرتبطون بشخص معين ينتسبون إليه، وإنما تنسب الأشخاص إلى منهجهم، فيقال: فلان السلفي، أو فلان يأخذ بمنهج السلف، وهم لا يعبرون في مسارهم التاريخي عن مذهب فكري خطَّ لنفسه أصولًا، أو قواعدَ انفرد بها، كما فعلت المدارس الكلامية المختلفة، لا.. إنهم ليسوا كذلك، وإنما هم الأصل الأول الذي انشق عنه غيره من الفرق والمدارس الأخرى التي وضعت لنفسها أصولًا وقواعدَ انفردت بها، وتميزت بها عن غيرها بالانتساب إليها، كالقدرية نسبة إلى القول بنفي القدر، والمرجئة نسبة إلى القول بالإرجاء، والمعطلة نسبة إلى القول بالتعطيل... إلخ.

(١) ليس المقصود هنا استيفاء دفاع عن العقيدة السلفية، وإنما بيان أن الموقف العلمي المنصف بمنأى عن التوجهات المشبوهة، وأن الجهات الرسمية إلى ما قبل الإعلان الغربي للحرب على السلفية لا يعرف منها هذه الشنشنة، سواء في ذلك: الجهات العلمية والدعوية أو الجهات الأمنية.

إن السلف ليسوا فرقة كلامية، ليسوا مذهبًا فكريًّا، كما يحاول البعض أن يصورهم في كتاباته، فيجعلهم قسيمًا للمعتزلة، والأشاعرة، والمرجئة... وهذا خطأ تاريخي ومنهجي معًا ينبغي التنبيه إليه والحذر منه، بل يجب التحذير منه أيضًا، إنهم الجيل الذي أكرمه الله بشرف الصحبة، فتلقى عن الرسول مشافهة أو سماعًا، فعاصر نزول الوحي وتبليغ الرسالة، وتحمَّل مع صاحبها أمانة التبليغ لها، فبلغها كما سمعها، وهم الصدر الأول الذين وصفهم الرسول بأنهم خير القرون، هم المهتدون بهديه، الحافظون لسنته والحاملون لها، فكانوا الأئمة الأعلام في التلقي عن الرسول، وتحمُّلِ أمانة التبليغ عنه بعد رحيله، وقاموا بأمانة النصح لله ورسوله من بعده، هم حملة المنهج النبوي في الاعتقاد وفي السلوك، وتحمُّل المسئولية والالتزام بالاتباع والاقتداء علمًا وعملًا، فكانوا في الاعتقاد أئمة، وفي السلوك قدوة، فإذا قيل: السلف؛ فإن اللفظ ينصرف إلى أهل القرون الثلاثة التي وصفها الرسول بأنها خير القرون، وأمرنا بالاقتداء بهم، والأخذ عنهم والاحتجاج بسلوكهم وبرأيهم عند غياب النص.

«إن السلف ليسوا فرقة كلامية، ليسوا مذهبًا فكريًّا، كما يحاول البعض أن يصورهم في كتاباته، فيجعلهم قسيمًا للمعتزلة، والأشاعرة، والمرجئة».

أ.د محمد السيد الجليند

وقد أشرنا في دراسة لنا سابقة إلى أن هذا السبق الزمني المحدد بالقرون الثلاثة الأولى، لا يكفي وحده لتحديد المراد بلفظ السلف والمقصود منه، وإنما لا بد أن يضاف إلى ذلك ضرورة الموافقة التامة للكتاب والسنة نصًّا وروحًا، فمن خالف الكتاب والسنة فلا يعتبر من السلف المقصودين بهذا اللفظ، وإن كان يعيش بين أظهر الصحابة والتابعين[1].

---

(١) انظر كتابنا: (والكلام للدكتور الجليند ﷺ) ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل، الفصل الخاص بالتأويل عند السلف.

أما لفظ السلفية فيراد به المعتصمون بالمنهج الذي سار عليه سلف الأمة من أهل القرون الأولى في مسائل الاعتقاد وأصوله، كما هي في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الصحيح، فآمنوا بها ودعوا إليها، كما وردت بدون تأويل ولا تعطيل، ولا تحريف لها عن ظاهرها، وقد تميز هذا المنهج السلفي في مسائل الأسماء والصفات والقضاء والقدر بمعالم أساسية أشار إليها القرآن الكريم، أو السنة النبوية المطهرة، فأخذ بها السلف جيلًا بعد جيل، وسار عليها من اعتصم بهذا المنهج من الأئمة الأعلام في كل جيل يأخذ لاحقهم عن سابقهم حتى يومنا هذا، فما اندرس لهذا المنهج مَعْلَمٌ ولا خفقت له راية، وقد أشرنا إلى قواعد هذا المنهج في كتابنا: منهج القرآن في تأسيس اليقين، فليرجع إليه من أراد التفصيل[1].

«لفظ السلفية يراد به المعتصمون بالمنهج الذي سار عليه سلف الأمة من أهل القرون الأولى في مسائل الاعتقاد وأصوله، كما هي في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الصحيح».

يتسلم كل جيل راية هذا المنهج النبوي ممن كان قبلهم من أهل الحق والاتباع فيعملون به، ويدعون إليه، ويدفعون عنه حجج المبطلين وشبهات المغرضين حتى يسلموه نقيًّا صافيًا لمن بعدهم من الأجيال التالية، ولا تزال هذه الطائفة ظاهرة بالحق صادحة به في كل جيل حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون، لا يضرهم من خالفهم في ذلك قلَّ أو كثر، وقد وصفهم الإمام أحمد في خطبته بقوله: هم بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يُحيون بكتاب الله الموتى، ويُبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من تائه ضالٍّ قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم[2].

---

(١) انظر: تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين، د محمد السيد الجليند، ط: القاهرة، ١٩٨٤م.

(٢) راجع: مجموع الفتاوي (١٦/٣١٣-٣١٧).

... وعلى ذلك فإن السلفي: هو كل من سلك سبيل هؤلاء القوم السابقين، ونهج منهجهم في التلقي والاستدلال والاعتقاد والأحكام، وتابع مسيرتهم في السلوك والسير إلى الله تعالى، ويكون شعاره دائمًا: ما لم يكن يومئذ دينًا، فليس اليوم بدين»[1].

«السلفي: هو كل من سلك سبيل هؤلاء القوم السابقين، ونهج منهجهم في التلقي والاستدلال والاعتقاد والأحكام، وتابع مسيرتهم في السلوك والسير إلى الله تعالى».

أ.د محمد الجليند

«وأهم مزايا السلفية ما يلي:

١- إن السلفية تمثل منهج الإسلام الصحيح، والمحافظ على مضمونه، في ذروته الشامخة، وقمته الحضارية السامقة، ذلك الدين الذي حافظ على التوحيد في جوهره النقي؛ فمنع تردي العقيدة الإسلامية في أوحال الوثنية، بل إنه حارب النزعة الجبرية التي نتج عنها ركود الهمم وإضعاف الإرادة الإنسانية، محافظًا على مصادره وعقيدته، وعبادته ومعاملاته ونظمه.

« إن السلفية تمثل منهج الإسلام الصحيح، والمحافظ على مضمونه، في ذروته الشامخة، وقمته الحضارية السامقة، ذلك الدين الذي حافظ على التوحيد في جوهره النقي ».

أ.د عبد اللطيف العبد

٢- إن السلفية كانت ولا تزال تأخذ على عاتقها المحافظة على أصالة الأمة الإسلامية، في عقيدتها وشريعتها، وأخلاقها ومناهجها، حتى لا تتميع ولا تهتز، وذلك بالالتزام بمناهج السلف الصالح في: التوحيد، والتلقي، والاتباع، والاستدلال، والتزكية.

٣- وكما تدعو السلفية إلى الأصالة؛ فإنها تحمل طابع المعاصرة والسعي الدائم نحو التقدم؛ وذلك بالحثّ على مواكبة النهضة العلمية بالنظر والتجربة، وغير ذلك.

---

(١) من كلام أ.د. محمد الجليند (ص٥-٨).

٤- إن السلفية قد جددت الدعوة الإسلامية دائمًا، ووقفت سدًّا منيعًا في وجه الحركات الغربية التي تريد استعباد الشرق ماديًّا وروحيًّا، كما أكدت على أن الإسلام دين ودولة، ودنيا وآخرة، وحملت راية تحرير العقول من الوثنية والشرك والتقليد، ودعت إلى التمسك بمكارم الأخلاق.

٥- إن السلفية لا تكفر أحدًا من أهل القبلة، لمجرد رأي ارتآه في مسألة تحتمل التأويل، مع اعتباره مخطئًا لا غير، فمن حكم بالتكفير سريعًا عند أول خلاف شكلي، فليس من السلفية، والسلفية براء منه.

تشويه السلفية:

أ- قديمًا:

«السلفي: هو كل من سلك سبيل هؤلاء القوم السابقين، ونهج منهجهم في التلقي والاستدلال والاعتقاد والأحكام، وتابع مسيرتهم في السلوك والسير إلى الله تعالى».

بالرغم مما يتصف به أهل السلف من مكارم ومزايا، فقد أراد أهل الأهواء والبدع تشويههم والإزراء بهم عند السفهاء والجهال[1].

فقد لقَّبوهم بألقاب كان خصومهم هم الأولى بها، من أمثال:

١- المشبِّهة: سمَّاهم بها كل من: المعطلة والمؤولة من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، ولا عيب فيهم سوى أنهم أثبتوا ما وصف الله تعالى به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، ولا تأويل، وهم أيضًا أشد الناس تعظيمًا لله ﷻ ولصفاته سبحانه، يقول نعيم بن حماد، شيخ البخاري (ت٢٢٨هـ):

«من شبَّه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه

---

(١) أحمد بن حنبل: السنة، (ص٤٠).

فقد كفر، فليس فيما وصف الله به نفسه، ورسولُه: تشبيه».

٢- المجبِّرة: أطلقها عليهم المعتزلة والقدرية (نفاة القدر).

٣- الناصبة: أطلقها عليهم الرافضة (غلاة الشيعة) لتقديمهم أبا بكر وعمر وعثمان على «علي» في الخلافة.

٤- الحشوية: أطلقها عليهم المعتزلة والخوارج (والحشو من الناس: الذي لا يعتمد عليه) والحشوية من الناس: أراذلهم.

٥- الشُّكَّاك: أطلقها عليهم المرجئة؛ لاستثنائهم في الإيمان على غير معنى الشك، مخافة واحتياطًا للعمل.

٦- العامة والجمهور: أطلقها عليهم الرافضة، على أنهم هم الخاصة والمؤمنون.

ب - حديثًا:

يرى بعض المفكرين المحدثين أن المعتزلة هم السلف؛ لأنهم رواد عصر الإبداع، الذي تبلورت فيه حضارة الأمة العقلانية المستنيرة قبل عصر المماليك، وهم يدرجون جماعات التكفير ضمن السلفية، من أجل ذلك حاولوا اتباع منهج المستشرقين في تشويه صورة الإسلام، من خلال تشويه السلفية، حيث وصموهم بالرجعية والتشدد والنصوصية والأصولية.

بل يرى بعض أذناب المستشرقين أن السلفية الدينية، ليست إلا رجعية جسدت مرحلة العقم الحضاري والتحول إلى علاقات بدائية، ثم الانكفاء إلى الأصول الدينية الأولى، في صيغتها النصية العقدية.

وهذا الكلام الفاسد يهاجم الدين قبل أن يهاجم الجنود والأنصار.

ونقول لهؤلاء الحاقدين: «موتوا بغيظكم»، فإن السلفية منهج شامل صالح

> **ونقول لهؤلاء الحاقدين: «موتوا بغيظكم»، فإن السلفية منهج شامل صالح لكل زمان ومكان، وهي ليست بمرحلة زمنية، أو طور تاريخي قد انتهى.**
>
> أ.د عبد اللطيف العبد

لكل زمان ومكان، وهي ليست بمرحلة زمنية، أو طور تاريخي قد انتهى[1].

بل هي منهج يحمل في طياته الأصالة مع المعاصرة، لا الرجوع إلى الوراء، والسلفية بهذا هي المنهج الوحيد المؤهل لعودة الإسلام إلى دنيا المسلمين، أو كما يقول الإمام مالك رضي الله عنه: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»[2].

وحول الاتهام بالغلو والتكفير لابن تيمية ورد في البحث:

«يقول الإمام ابن تيمية -وهو من المتهمين ظلمًا بالتكفير- فتكفير المعين - بحيث يحكم عليه أنه من الكفار- لا يجوز الإقدام عليه، إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة الرِّسالية التي يتبين بها أنهم مخالفون للرسل، فليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة ويتبين له المحجة، ومن ثبت إيمانه بيقين لم يَزُلْ عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة»[3].

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض، بل كل أحد يؤخذ منه ويرد عليه، وليس من يرد كلامه لخطأ أخطأه يكفر أو يفسق أو يؤثم.

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض، بل كل أحد يؤخذ منه ويرد عليه، وليس من يرد كلامه لخطأ أخطأه يكفر أو يفسق أو يؤثم، ودفع التكفير عن علماء المسلمين -وإن أخطأوا- هو من أحق الأغراض الشرعية بالمراعاة، فإن تسليط الجهال والمتعالين على تكفير المسلمين من أعظم المنكرات، ونسبة أقوالهم هذه إلى علماء السنة وسلف الأمة هو أشد نكرانًا

---

(١) وفي هذا رد بليغ على الدكتور البوطي وكل من قال بقوله.

(٢) هذا من كلام أ.د. عبد اللطيف العبد، (ص١٢٧-١٣٠).

(٣) راجع مجموع الفتاوي (١٢/٤٦٦-٥٠٠).

وأعظم بهتانًا، فمن كَفَّر المسلمين أو استحلَّ دماءهم وأموالهم ببدعة ابتدعها ليست في كتاب الله ولا سنة رسوله، فإنه يجب نهيه عن ذلك وعقوبته بما يزجره ولو بالقتل أو القتال، فإنه إذا عُوقب المعتدون من جميع الطوائف كان ذلك مما يصلح به حال المسلمين.

وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور وطاعة، وسنة وبدعة استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بقدر ما فيه من الشر، فقد يجتمع في الشخص الواحد موجبات العقوبة وموجبات الثواب، وهو لم يخرج بذلك عن الإيمان إلى الكفر أو الفسق[1]، فما بالكم وقد أصبح استعمال هذين اللفظين شائعًا على ألسنة بعض الشباب بدون علم بشروط التكفير ولا فقه لضوابطه، وكأن قضية المخالفة في الرأي وحدها أصبحت كافية لاتهام المخالف بالكفر والخروج عن الملة.

إن سلف الأمة وأئمتها كانوا من أبعد الناس عن استعمال هذه الكلمة في حق الشخص المعين، وكانوا النموذج والقدوة في استعمال الألفاظ بدقة متناهية في المسائل الخلافية الكبرى، فكانوا يقولون في الرأي المخالف: إن هذا الرأي من اعتقده في ربه فهو كافر، ومن نقله عن السلف فهو كاذب في نقله، ومن وصل إليه باجتهاده فهو مجتهد مخطئ مثاب، ومأجور على اجتهاده، هكذا كان موقف السلف في القضايا الخلافية، والذين يتهمون المخالف لهم في عصرنا هذا بتهمة الكفر والفسق ويدَّعون أنهم بذلك سلفيون، أو أنهم يُعبِّرون عن المنهج السلفي فعليهم أن يراجعوا أنفسهم، فلعلهم المخطئون، أو لعل ما معهم من نُقول كاذبة أو مكذوبة على السلف، أو لعلهم مخطئون في فهم هذه النُّقول إن صحت، فلم يفقهوا مراد السلف منها، أما أن يتقولوا على السلف بما

---

(١) راجع: الفتاوي، (٢٨/٢٠٩).

ليس عندهم فهذا مردود عليهم، ونقول: مكذوب على السلف[1][2].

«ولقد راجت هذه الفرية على كثيرين واستغلها كثيرون من الطرف الآخر للتشنيع بها على سلف الأمة حتى بلغ الأمر أن بعض الإعلاميين في مصر كتب في صحيفة الأهرام أن ظاهرة التكفير المعاصرة ترجع في أساسها إلى قراءة كتب السلف وخصَّ منها كتب ابن تيمية والعقيدة الطحاوية؛ هكذا بالنص عليهما، وأصبحْنا ننتظر بين عشية وضحاها صدور التعليمات الخفية والمعلنة بتحريم اقتناء أو قراءة هذه الكتب!!

بعض الإعلاميين في مصر كتب في صحيفة الأهرام أن ظاهرة التكفير المعاصرة ترجع في أساسها إلى قراءة كتب السلف وخصّ منها كتب ابن تيمية والعقيدة الطحاوية.

وهذا من وجهة نظرنا يعود إلى شيوع هذه الفرية الظالمة على ألسِنة المنتسبين إلى السلف.

إن هذه الفكرة الخاطئة قد تسللت إلى أذهان بعض المشتغلين بالعلم بناءً على ما سمعوه، وليس بناء على ما قرأوه هم بأنفسهم، وكم سمعنا من بعضهم من يقول: إن ابن تيمية يكفر المخالف له، ولما سألناه: وأين قرأت هذا عند ابن تيمية، وفي أي كتاب له؟ يقول: سمعت أن هذا هو المعروف عنه، والمشهور عن مذهبه، والغلاة المعاصرون يرددون ذلك عنه وعن السلف.

هكذا يقولون، وكم كان بودنا أن نسمع من هؤلاء أنهم قرأوا لابن تيمية في تراثه وهو متوفر لدى العامة والخاصة بدلًا من الاقتصار على السماع من غير

---

(١) من كلام د. محمد الجليند، (ص٢١-٢٣).

(٢) وهذا من أحسن الرد على افتراءات وسفاهات البحوث العزمية المشار إليها آنفًا.

المتخصصين، وبدلًا من تبني الفكرة واعتناقها كقضية مسلَّمة، وهي في واقع الأمر مكذوبة على تراث ابن تيمية، وعلى تراث السلف بصفة عامة»[1].

وحول ما يتعلق بالخلاف في قضية الصفات بين السلف وأهل الكلام جاء بالبحث:

«من المعلوم لدى المتخصصين في تراث السلف أن لهم موقفًا متميزًا في قضية الأسماء والصفات الإلهية، اعتصموا فيه بما ورد عن هذه القضية في الكتاب والسنة نصًّا لا تأويلًا، فهم يثبتون لله تعالى ما أثبته لنفسه من جميع صفات الكمال التي ارتضاها لنفسه وورد بها الذكر الحكيم، أو وصفه بها نبيه ﷺ في الأحاديث الصحيحة؛ كصفة المجيء، والاستواء، والنزول كل ليلة إلى سماء الدنيا، وغيرها من الصفات الإلهية التي وردت بها الأخبار الصحيحة، والتي ليس للعقل مدخل في إثباتها أو نفيها عن الله ما لم يكن قد ورد بها النص، وهذا الموقف المتميز يختلف عنه تمامًا موقف المتكلمين من هذه القضايا؛ حيث وضعت كل فرقة لنفسها معيارًا عقليًّا جعلته أصلًا لها، ومقياسًا لقبول إثبات الصفة الواردة في القرآن، أو نفيها عن الله بتأويلها وصرفها عن الظاهر، أما موقف السلف فإنه قد التزم القول بإثبات ما أثبته القرآن، ونفي ما نفاه القرآن بدون تأويل، ولا تعطيل، ولا تشبيه، كما هو مبين في موضعه[2]، فأخذ المتكلمون يشنعون على موقف السلف بأنهم مشبهة ومجسمة، وأحيانًا حشوية؛ لأنهم يثبتون الصفات الإلهية بدون تأويلها وبدون صرفها عن ظاهرها.

وإذا أرادوا نوعًا من المجاملة لهم قالوا: أهل التفويض والتسليم، ولا أريد أن أستطرد في شرح موقف السلف في هذه القضية؛ لأن ذلك ليس من غرضنا في هذه

---

(١) من كلام د. عبد اللطيف العبد، (ص١٠٦ - ١٠٧).

(٢) راجع تفصيلات هذا الموقف في كتابنا: الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل، ومقدمة الجزء الأول من دقائق التفسير الجامع لتفسير شيخ الإسلام ابن تيمية.

الدراسة المختصرة، ولكن أود أن أضع بين يدي القارئ الحقائق الآتية:

١- إن الكلام في قضية الصفات الإلهية نفيًا أو إثباتًا يعتبر خوضًا في الكلام عن الذات الإلهية، ومعلوم أن مدارك العقول لأمور الغيب، وعلى رأسها ما يتعلق بالله، أمر شاقٌّ وعسير، والاستعانة فيها بنور الشرع أمرٌ محتم وضروري إذا أردنا تأسيس العقيدة على اليقين الجازم، فما لم يرد نص بأن الله استوى على عرشه، أو أنه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، من أين للعقل أن يعلم ذلك نفيًا أو إثباتًا؟ وهل معه دليل يقيني يهديه إلى القول بالإثبات أو النفي للصفة المعينة، إلا ورود الشرع فيها؟ إن ذلك الأمر لا ينتمي إلى عالَم الشهادة، وبالتالي فليس له نظير يقاس عليه حتى يمكن القول بأن للعقل مدخلًا في النفي والإثبات بعيدًا عن النص.

إذا كان طريق العقل إلى القول بالإثبات أو النفي مسدودًا أصلًا إذا عزل نفسه عن النص، فهل من المعقول أنه يستطيع البحث في تكييف الصفة التي لم يكن لديْه دليل على القول بها نفيًا أو إثباتًا إلا ورود النص بها؟ إن العقل حين يتدخل بتأويل الصفة على كيفية معينة لتتفق مع مفاهيمه التي استقاها من عالم الشهادة يكون بذلك قد أقحم نفسه في مجال ليس مؤهلًا للخوض فيه، وليس معه من أدوات البحث فيه إلا النص، وحين يقول: إن كيفية الاستواء كذا، أو كيفية النزول كذا، يكون ذلك من باب القول على الله بغير علم ولا كتاب منير.

يُفَرِّقُ السلف في موقفهم من قضية الصفات بين أمرين:

أ- فما ورد به النص القرآني منها يثبتونه لله تعالى على المعنى المراد لله من لفظه الثبوتي، فحين يقول القرآن: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] يقولون: إن الله استوى على عرشه كما أخبر، وليس كما يخطر على قلب البشر، أو

يقولون: إن معنى لفظ استوى معلوم في لغة العرب، وله معانٍ كثيرة تحدَّث بها القرآن الكريم، ونحن نفهم معنى الاستواء الوارد في القرآن حسب وروده في الآية المعينة، ومطالبون بفهمه وتدبُّره؛ لأن القرآن أُنزل لنتدبر آياته، فنعمل بمحكمه، ونؤمن بمتشابهه، ولا نَرُدُّ منه شيئًا، أما كيف استوى، فهذا أمر يتعلق بكيفية الذات الإلهية التي استوت على العرش، وحظُّ العقل من ذلك هو الجهل به؛ لأنه لا يعلم ذات الله إلا الله؛ وبالتالي لا يعلم كيف استوى الله على عرشه إلا الله.

ب- وكذلك كان شأنهم في بقية الصفات الإلهية، يُفَرِّقُون فيها بين العلم بمعاني ألفاظ القرآن الوارد بها، فيثبتونها لله ويعلمون معناها، أما الكلام في كيفية الصفات التي نزلت بها ألفاظ القرآن فيفوضون العلم بها إلى الله، والفرق عندهم كبير بين القول بعلم الآية التي ذكرت الصفة وتفويض العلم بكيفيتها إلى الله ﷻ، وهذه التفرقة ضرورية في فهم موقف السلف في قضية الصفات، إنهم يقولون: المعنى معلوم، ولكن الكيف مجهول؛ لأن كيفية الصفة متفرعة عن كيفية الموصوف بها، كما سبق، وهو الله سبحانه.

ولقد جاءت نصوص السلف في هذه القضية حاسمة في التفرقة بين علم المعنى، وتفويض العلم بالكيف إلى الله، قال الإمام مالك -حين سُئل عن الاستواء-: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول».

وقال الترمذي -في الكلام عن حديث الرؤية-: «المذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة، مثل: سفيان، ومالك، وابن المبارك، وابن عيينة، ووكيع وغيرهم- تروى هذه الأحاديث كما جاءت، ونؤمن بها، ولا يقال: كيف، ولا نفسر ولا نتوهم»[(١)].

وقال أحمد بن حنبل حين سُئل كيف يتنزل ربنا... الحديث؟؛ فقال له: أثبته كيف هو فوق حتى أثبت كيف ينزل، أو كما قال. فأنت ترى في هذه النصوص -

---

(١) راجع في هذه النصوص: الإتقان، للسيوطي، (٦/٢)، وانظر كتابنا: الإمام ابن تيمية وموقفه مع قضية التأويل، (ص٦٢).

وغيرها كثير- أنهم يُفَرِّقون بين العلم بالمعنى، والتفويض في العلم بالكيفية، ومعلوم أن العلم بكيفية الصفةِ مؤسَّسٌ على العلم بكيفيةِ الموصوف، وهذه قضية محسومة في منهج السلف؛ ولذلك فإن إطلاق القول على منهجهم بأنهم أهل التفويض أو التسليم ليس دقيقًا، ولا معبِّرًا عن دقائق موقفهم في قضية الصفات، ولكن المخالفين لهم أطلقوا عليهم هذه الألفاظ بقصد التشنيع عليهم، واتهامهم بالتقصير، أو القصور في إعمال العقل والقول بمقتضاه في هذه المسألة، والقول بأنهم اكتفوا بما ورد به النص بدون فهمٍ أو تأويل؛ هكذا يقال عن السلف.

وعند التأمل يجد القارئ أن موقف السلف ـ كما هو مبين في مواضعه ـ أكثر عقلانية وأشدُّ احترامًا لقوانين العقل من خصومهم.

أ.د. محمد الجليند

وعند التأمل يجد القارئ أن موقف السلف -كما هو مبين في مواضعه- أكثر عقلانية وأشدُّ احترامًا لقوانين العقل من خصومهم، والسلف على إتقان تامٍّ فيما بينهم يعلمون معنى الآية، وإنما الذي كَفُّوا أنفسهم عنه، وفوضوا العلم به إلى الله هو البحث في الكيفية؛ لعلمهم أن هذا مما استأثر الله بعلمه فضلًا عن أننا لم نُطَالَبْ بالعلم بالكيفية ولا بالبحث فيها؛ لأنها تتعلق بالبحث في ذات الله، وهو أمر قد نهانا الشرع عن الخوض فيه»[1].

وحول المنهج السلفي في الرد على المخالف جاء بالبحث:

«من الخصائص التي ينبغي التنبيه إليها في المنهج السلفي: تلك النزعة التحليلية التي نجدها واضحة في الحوار القائم بينهم وبين المخالفين، وهم كثيرون منهم الصوفي والفيلسوف والمتكلم، وكل هؤلاء كان له موقفه المتميز عن موقف الآخر في فهم النص وتأويله، ولكن كان القاسم المشترك بين أصحاب هذه الاتجاهات

---

(١) من كلام أ.د. محمد الجليند، (ص٢٥-٢٩).

الثلاثة هو المخالفة الواضحة لمنهج السلف في الموقف العام من النصوص.

فالصوفي كان في كثير من الأحيان يفضل ما وصل إليه بذوقه الخاص على الأخذ بظاهر النص.

والفيلسوف كان يفضل ما وصل إليه بنظره العقلي على الأخذ بالنص في كثير من المسائل.

والمتكلم كثيرًا ما كان يلوي عنق النص؛ ليوافق رأي شيخه ومذهبه، ولينتصر بذلك على الخصم المخالف.

وكان السلف في موقفهم من كل هؤلاء المخالفين يتميز بالدقة في اختيار الألفاظ وتحديد معناها المراد، والوضوح في مناقشة الحجة، وفي معنى المصطلح، وفي الترجيح بين الرأيين، فلم يلجؤوا إلى مبدأ الرفض المطلق لرأي المخالفين لهم، ولا إلى القبول المطلق للرأي الموالي لهم، بل كانوا ينظرون في هذا الرأي وفي ذاك، فما كان منه حقًّا قبلوه، ومدحوا صاحبه، وما كان منه باطلًا، نبهوا إليه، وحذروا منه، ولقد تميز منهجهم في الحوار بأشكال متطورة ومتنوعة حسب الموقف الذي يفرضه عليهم الخصوم»[1].

وهذا الجانب التحليلي في منهج السلف قد بلغ النضج والكمال في مؤلفات ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

«وهذا الجانب التحليلي في منهج السلف قد بلغ النضج والكمال في مؤلفات ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وإذا كان أصحاب القرون الأولى قد فضلوا السكوت عن محاورة الخصوم وجدالهم إلا بذكر النص في النفي والإثبات، فإن ابن تيمية قد فضل خوض المعركة مع كل المخالفين متسلحًا بهذه النظرة التحليلية في منهجه، التي تكشف عن

---

(١) من كلام د. محمد الجليند، (ص٤٥-٤٦).

مساوئ المخالفين لهم في المنهج، وفي استعمال الألفاظ والمعاني معًا، وبيَّن لهم أن ما معهم من معقولات لا تنهض إلى مستوى البرهان، فضلًا عن أن يعارِضوا بها القرآن، وأن ما خَدعوا به الناس من استعمال الألفاظ المجملة والمعاني المبهمة لا ينبغي السكوت عليه حتى يظهر تهافتها أمام أرباب العقول، وجعل ابن تيمية منهجه في ذلك هو تحليل الألفاظ، وتوضيح المعاني حتى يتبين ما فيها من حق وباطل، وجعل الحوار معهم على مستويات ثلاثة:

- تارة في الألفاظ.
- وتارة في المعاني.
- وتارة فيهما معًا»[1].

وأخيرًا فإن المنتسبين من الأقدمين إلى السلفية -فضلًا عن المعاصرين- ليسوا بمعصومين، والأمة المسلمة أمة نقَّادة لا تقر على خطأ، أو تُسَوِّغ انحرافًا، وعليه، فإنه لا يمتنع أن ينتقد الأشخاص أو الدعوات المعاصرة بحق وعدل وإنصاف، وأن توجه الملحوظات على جهود البشر، مهما كان منهجهم، وأيًّا كان مسلكهم من غير تزيُّد أو افتراء.

وفي هذا الصدد يعجب الإنسان من دقة متابعة الغرب للساحة السلفية وما يجرى داخلها من تفاصيل دقيقة، ومن ذلك: النص على دعم بعض السلفيين بشكل خاص في سياقات معينة!

وفيما يلي نص إنجليزي وترجمته!

---

(١) من كلام د. محمد الجليند، (ص٥٩-٦٠).

"The difficulty comes in identifying the right leader or group. The U.S. could discretely fund mainstream Salafi figures like Madkhali who are effective in siphoning off support from jihadis and who do not advocate violence (e.g. by paying for publications, lectures, new schools). This will be effective in the short term, but it further strengthens the dehumanizing Salafi ideology from which the jihadi movement derives much of its inspiration. The U.S. could also fund non - Salafis, but it currently lacks the expertise necessary to determine who is truly influential. Perhaps a better strategy in the near term would be to pressure Middle Eastern governments to allow greater political participation and visibility for groups that jihadis are threatened by. This approach should vary from country to country. For example, in Egypt, it would be the Muslim Brotherhood; in Saudi Arabia, the Shi'a. Again, it is essential that the U.S. hand not be seen".

ترجمة النص:

«تأتي الصعوبة في تحديد الزعيم أو المجموعة المناسبة التي يمكن دعمها، فالولايات المتحدة يمكن أن تدعم بتعقل اتجاهات سلفية سائدة، مثل: مجموعة المدخلي، والتي تؤثر في رفع الدعم عن الجهاديين، ولا تدعو إلى العنف؛ وذلك من خلال دعم المؤلفات، و المحاضرات والمدارس الجديدة، وهذا سيكون له تأثير على المدى القصير، وهذا أيضًا سيعمق تجريد العقيدة السلفية من الإيحاء الذي تهتدي به الحركة الجهادية كثيرًا، ويمكن أن تدعم غير السلفيين،

«فالولايات المتحدة يمكن أن تدعم بتعقل اتجاهات سلفية سائدة، مثل: مجموعة المدخلي، والتي تؤثر في رفع الدعم عن الجهاديين!».

تقرير مركز مكافحة الإرهاب الأمريكي

ولكنها تفتقر حاليًا إلى الخبرة اللازمة لتحديد من هو المناسب للدعم، وربما أفضل استراتيجية للفترة القادمة الضغط على حكومات الشرق الأوسط للسماح بشكل أكبر بالمشاركة السياسية للجماعات المهددة من قبل التيار الجهادي، وهذا النهج ينبغي أن يتفاوت من بلد إلى بلد، على سبيل المثال: في مصر يمكن دعم الإخوان المسلمين، وفي السعودية الشيعة؛ على أن لا تكون يد الولايات المتحدة ظاهرة في هذا الدعم!!»[1].



(١) «سرقة تنظيم القاعدة»، (ص٢٠)، وهو تقرير لمركز مكافحة الإرهاب بالأكاديمية العسكرية في (ويست بوينت) بأمريكا، نُشر في فبراير عام ٢٠٠٦م.





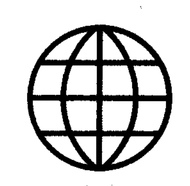
الفصل الثامن

8

الاستراتيجية الإسلامية في مواجهة الهجمة الغربية

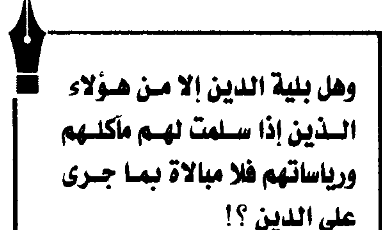


الاستراتيجية الإسلامية في مواجهة الهجمة الغربية



قبل الدخول إلى خطوط خطة رشيدة، وتحديد وجهات سديدة في مواجهة هذه النازلة الشديدة، لا بد من استشعار الأزمة، وإدراك حجم الخطر، فإن الإنسان إذا احتوشته المخاوف تنبهت حواسه، وتيقظت مداركه، واستنفرت قواه، فإن لم يفعل فالموت حتم لازم!

إذَا المرءُ لم يحتلْ وقدْ جدَّ جِدُّهُ ∴ أضاعَ وقاسَى أمرَهُ وهوَ مدبرُ



قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولله سبحانه على كل أحد عبودية بحسب مرتبته سوى العبودية العامة التي سوَّى بين عباده فيها؛ فعلى العالِم من عبودية نشر السنة والعلم الذي بعث الله به رسوله ما ليس على الجاهل، وعليه من عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره، وعلى الحاكم من عبودية إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه من هو عليه به والصبر على ذلك، والجهاد عليه ما ليس على المفتي، وعلى الغني من عبودية أداء الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير، وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما.

وتكلم يحيي بن معاذ الرازي يومًا في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقالت له امرأة: هذا واجب قد وُضع عنا، فقال: هبي أنه قد وُضع عنكن سلاح اليد واللسان، فلم يُوضع عنكن سلاح القلب، فقالت: صدقت جزاك الله خيرًا.

وقد غرَّ إبليسُ أكثرَ الخلق بأن حسَّن لهم القيام بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع وعطَّلوا هذه العبوديات، فلم يحدِّثوا قلوبهم بالقيام بها، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من أقل الناس دينًا؛ فإن الدين هو القيام لله بما أمر به؛ فتارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالًا عند الله ورسوله من مرتكب المعاصي؛ فإنَّ ترك الأمر أعظم من ارتكاب النهي من أكثر من ثلاثين وجهًا ذكرها شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض تصانيفه، ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ وبما كان عليه هو وأصحابه رأى أن أكثر من يشار إليهم بالدين هم أقل الناس دينًا، والله المستعان، وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تُنتهك وحدوده تُضاع، ودينه يُترك، وسنة رسول الله ﷺ يُرغب عنها، وهو بارد القلب،

ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟! وخيارهم المتحزن المتلمظ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل، وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء - مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم- قد بُلُوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون؛ وهو موت القلوب؛ فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى وانتصاره للدين أكمل.

وقد ذكر الإمام أحمد وغيره أثرًا أن الله سبحانه أوحى إلى ملك من الملائكة أن اخسف بقرية كذا وكذا، فقال: يا رب كيف وفيهم فلان العابد؟ فقال: «به فابدأ فإنه لم يتمعَّرْ وجهه فيَّ يومًا قط».

وذكر أبو عمر في كتاب التمهيد أن الله سبحانه أوحى إلى نبي من أنبيائه أن قل لفلان الزاهد: أمَّا زهدك في الدنيا فقد تعجَّلتَ به الراحة، وأما انقطاعك إليَّ فقد اكتسبت به العزَّ، ولكن ماذا عملت فيما لي عليك؟ فقال: يا رب وأي شيء لك عليَّ؟ قال: هل واليتَ فيَّ وليًّا أو عاديتَ فيَّ عدوًّا؟»[1].

فلا بد للأمة بأسرها أن تتيقظ لما يراد بها، وأن تُجَيَّشَ الأمة بكل طاقتها لمواجهة الفتن المقبلة، وفي الهجرة درس وعبرة، فقد كان لأسماء رضي الله عنها عملها، لعلي رضي الله عنه دوره، ولعامر بن فهيرة رضي الله عنه مهمته، ولعبد الله بن أريقط وظيفته! والأمر في مواجهة هذه المحنة كما قال رسول الله ﷺ: «**وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[2].

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، (٢/١٧٧).

(٢) متفق عليه، البخاري (٣٠٦٢)، مسلم (١٦٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفيما يلي بعض خطوط هذه الاستراتيجية العامة:

أولاً: التأكيد على الحقائق، والاستمساك بالأصول والثوابت:

إن ما جرى عَرْضُه من خطط ومؤامرات وبحوث واستراتيجيات يؤكد حقائق القرآن ويزيدها جلاءً وبرهانًا، فالواجب أن يُكشف الزيف، وأن يُزال البهرج.

إن ما جرى عَرضُه من خطط ومؤامرات وبحوث واستراتيجيات يؤكد حقائق القرآن ويزيدها جلاءً وبرهاناً، فالواجب أن يُكشف الزيف، وأن يُزال البهرج.

وهذا طرف من حقائق القرآن زادتها هذه الأحداث والتوجهات برهانًا وتأكيدًا:

١ـ عقيدة الغرب بغض الإسلام وأهله:

قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وقال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥].

فما بال الذين لا يعقلون من بني جلدتنا يسارعون في وهم الصداقة! أو سراب الإخاء والمحبة! أو يبحثون عن تعاون وتحالف معهم ضد بني ملتهم!

٢ـ غاية عدائهم ونهاية حربهم ردة المسلمين عن دينهم:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩].

٣- موالاة الكفار تبطل الإسلام وتنقضه:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

وقال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

٤- جهاد الكفار وقتالهم ماض إلى يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ثانيًا: أهمية الوعي والبصيرة بالمكائد الموجهة ضد الأمة:

الواجب على الأمة أن تتعلم حقائق القرآن لتخرج من ظلمات التبعية للشرق أو للغرب إلى نور الريادة والسيادة والخيرية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وإن استبانة سبيل الهالكين، وفضح توجهات المجرمين، ومعرفة كيد الكائدين من اليهود والصليبيين ومن شايعهم من رؤوس المبتدعة- لهو منهج قرآني تدعمه أحداث السيرة النبوية، وأخبار السنة المصطفوية، فمن الواجب معرفة ما يُراد لنا، وما يُفتَرَى علينا، لنشكر المنصف، ولِنَرُدَّ على المفتري والمرجف، ثم لنأخذ حذرنا وأهبتنا قال تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[الأنعام: ٥٥].

إن استبانة سبيل الهالكين، وفضح توجهات المجرمين، ومعرفة كيد الكائدين من اليهود والصليبيين ومن شايعهم من رؤوس المبتدعة- لهو منهج قرآني تدعمه أحداث السيرة النبوية، وأخبار السنة المصطفوية.

ولقد صادف خروج هذه الحملة الصليبية -بحمد الله- وعيًا حاضرًا وفهمًا ثاقبًا حمل كثيرًا من العلماء والدعاة والمثقفين أن يتصدَّوْا لبيان حقائق الدين، وفضح دعاوى المدعين، وقد صدَّق الواقع ما استشرفه العلماء والدعاة من أنَّ الحرب على بلاد المسلمين إنما هي لنهب خيراتها التي طمع بها من ظنوا بلاد المسلمين لقمة سائغة فإذا بها غُصة بالغة!

كما تناول المثقفون دعاوى الغرب وأطروحاته الفكرية والسياسية

بالتفنيد والرد، حتى إذا انتهى الأمر إلى تقارير مؤسسة راند الأمريكية ومثيلاتها أوسعوها تحليلًا ونقدًا، وتنبيهًا للأمة على أخطارها.

إن عالمنا الإسلامي اليوم هو - بحمد الله - أنضجُ كثيرًا منه قبل مائة عام مضت، والواقع خير شاهد.

إن عالمنا الإسلامي اليوم هو -بحمد الله- أنضجُ كثيرًا منه قبل مائة عام، وإن مقارنةً سريعةً بين حالة الأمة الراهنة والأمة قبل قرن من الزمان لَتدلُّ دلالة واضحةً على بوادر إيجابية تلوح في الأفق، وفي المقابل يتبدَّى إفلاس وسقوط حضاريٌّ للغرب.

ولا شك أن حُسن الفهم والإدراك لما يجري يُمَكِّنُ من الاستشراف المبكر للأحداث، ويُعِينُ على التفاعل السريع مع مستجدات الواقع ومتطلبات الأزمات، ومن غير افتتان ببهرج زائف تروِّجه إعلاميًا شخصياتٌ فاجرة، أو تسوقه مجتمعيًا طوائف ضالة، كل هذا مع الحذر من التَّردي في تضخيم قوى أعدائنا، أو تسويغ أخطائنا، أو التهوين من إمكانات أمتنا، أو التوهين لعزائم الصادقين من رجالاتنا.

ومن الوعي المطلوب: إدراك أن هؤلاء القوم حين يُطلقون التصريحات أو يُدَبِّجون المقالات، أو ينشرون البحوث يعلمون أنها ستقع بأيدي المسلمين، وقد تُوجد للبحث الواحد أكثر من صياغة، فربما كانت النسخة المقدمة للمسئولين تختلف عن التي بأيدي المثقفين!

وقد يكون ما لا ينشر أكثر مما ينشر للجمهور، وهم من عَلَّم الدنيا الخداع والكذب!

والمهم في هذا السياق ألا **يُلدغَ المؤمن من جُحرٍ واحدٍ مرتين**[1]، وقد

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨).

سبق ما يدل على تلك الجهود الضخمة المبذولة لإعداد كفاءات بدعية مدربة، وقيادات منحرفة، وهذا سينشئ واقعًا جديدًا من الفتنة تقتضي اليقظة والحذر، والوعي والانتباه، لا الغفلة والخور!

تَـصْفُو الـحَيَاةُ لِـجَاهِلٍ أَوْ غَافِـلٍ ... عَمَّـا مَـضَى فِيهَـا وَمَـا يُتَوَقَّـعُ
وَلِـمَـنْ يُغَالِطُ في الْـحَقَائِقِ نَفْـسَهُ ... وَيَسُومُهَا طَلَبَ الـمُحَالِ فَتَطْمَـعُ

ثالثًا: تَنَسَّمْ فجرِ النصر ولو طال ليلٌ بهيم:

إن أمة نبيناﷺ مرحومة ومنصورة بإذن ربها، والله غالبٌ على أمره، ومعزٌّ أولياءَه، وناصرٌ دينَه، ووعدُه بالنصر لا يُخْلَفُ، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، ومشروطُه لا يَتَخَلَّفُ؛ قال جل وعلا: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠].

ولن تزال طائفة من الأمة بإذن ربِّها على الحق ظاهرة، وفي سبيل ربِّها مجاهدة، لا يضرُّها مَنْ خالفها أو خذلها حتى يأتيَ أمر الله بظفرها، وكبت عدوها.

امْـلَأْ فُـؤَادَكَ مِـنْ تَفَـاؤُلِهِ ... أشرِقْ بوجـهٍ باسـمِ الثغـرِ
لَا تَنْكَـسِرْ فَـالحَرْبُ قـائمةٌ ... بـينَ الهـدَى وشراذِمِ الـكفرِ
واليـأسُ يهـزمُ نفـسَ صـاحبِهِ ... قبـلَ اللِّقَـا وَيعـودُ بالخـسرِ

ولا شكَّ أن جنون القوة وغطرستها لدى الغرب سيجعل عمر هذه الهيمنة قصيرًا، وخصوصًا تلك البلاد التي تُساس بعقلية رعاة البقر، والذين يفتقرون إلى تاريخ حضاري

ولا شكَّ أن جنون القوة وغطرستها لدى الغرب سيجعل عمر هذه الهيمنة قصيرًا، وخصوصًا تلك البلاد التي تُساس بعقلية رعاة البقر.

يسلحهم بدبلوماسية ناجحة، والعالَم اليوم يموج بحراك سياسي واقتصادي من شأنه أن يقضي على هذه الأحادية العالمية ليعود التوازن من جديد!

ولقد كشفت تلك الاستراتيجياتُ المتعاقبة من الحرب الغاشمة إلى الفوضى الخلَّاقة إلى المبادرات السياسية الفاشلة، إلى اللجوء إلى سياسات الحرب الباردة-عن حالة إفلاس وإبلاس وهزيمة عسكرية وسياسية، وسيعقبها بإذن الله هزيمة فكرية ومنهجية، وما عَوَّلوا عليه من أفكار بلهاء باستبدال صحيح الدين والتدين، والإيعاز إلى أمثال نصر حامد أبي زيد، أو محمد شحرور، أو جمال البنا، وغيرهم ليكونوا معبرين عن الإسلام- إنما هو ضرب من الأوهام؛ فإن أمة النبي ﷺ أمة نقَّادة لا ينطلي عليها كذبٌ ولا غشٌّ، ولا تَرُوجُ في سوقها العملاتُ المزورةُ، ولن يتحول مع هؤلاء إلا من حُرِقَتْ ورقتُهُ وشُهِرَتْ غثاثَتُهُ!

فإن أمة النبي ﷺ أمة نقَّادة لا ينطلي عليها كذبٌ ولا غشٌّ، ولا تروج في سوقها العملات المزورة.

فهل من يسخر بالله تعالى في شعره كأدونيس، أو يفسر القرآن تفسيرًا باطنيًّا كشحرور، أو يتجرأ على القرآن كأبي زيد، أو ينشر السخافات كجمال البنا؛ ممن سُمُّوا بالمعتدلين ستقبلهم أمة خاتم النبيين؟!

لقد قال مفتي الديار المصرية الأسبق فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور نصر فريد واصل - وبلهجة حاسمة-: «**لا بد وأن نعلن أنه لا يمكن لأي قوة أن تُجبرنا على تغيير عقيدتنا**

«لا بد وأن نعلن أنه لا يمكن لأي قوة أن تُجبرنا على تغيير عقيدتنا وشريعتنا وأن نطبق قول الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]».

أ.د. نصر فريد واصل
مفتى الديار المصرية الأسبق

وشريعتنا، وأن نطبق قول الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]»[1].

وعليه فإن معايير الاعتدال لا يُرجع فيها إلى غير المسلمين من أعداء الأمة التاريخيين، وإنما يُرجع فيها إلى الوحي المعصوم، وأهل العلم المعتبرين!

وعليه فإن معايير الاعتدال لا يُرجع فيها إلى غير المسلمين من أعداء الأمة التاريخيين، وإنما يُرجع فيها إلى الوحي المعصوم، وأهل العلم المعتبرين! ومما ينبغي أن يُشاع العلم به في المجتمعات المسلمة اليوم المعاني الصحيحة للمفاهيم التي يُعاد تعريفها لتحريفها! كمفهوم الاعتدال، والوسطية، والتطرف، ونحو ذلك.

رابعًا: وجوب اتحاد أهل السنة لصدّ هذه الحرب الفكرية:

على الرغم مما يعتصر القلب من فرقة وشتات، وانهيار في كثير من العلاقات والصلات بين طوائف أهل السنة من العلماء والدعاة؛ فإن الأعداء يهولهم هذا الثبات المنهجي، ويُخيفهم هذا الاحتشاد الفكري حول حقائق القرآن الكريم والسنة المطهرة.

ومن المسلّم به أنه في زمن التدافع والاقتهار يتعين على كل قادر أن يقوم بواجبه في الانتصار

ومن المسلَّم به أنه في زمن التدافع والاقتهار يتعين على كل قادر أن يقوم بواجبه في الانتصار، والمعركة هنا ستكون فكرية منهجية، تنطلق من الثوابت العقدية، والأصول الشرعية.

تأبَى الرِّمـاحُ إذَا اجـتمَعْنَ تَكَسُّرًا وإذا افـترقْنَ تكـسَّرَتْ آحـادَا

وهذه المعركة ستتطلب منازلةً علميَّةً في ميادين شتَّى، كحقوق الإنسان، والأقليات، والديمقراطيات، ووحدة الأديان وحوارها، والحرية الدينية، وقضايا المرأة، وتحكيم

---

(١) خبر بعنوان: «تقرير «راند» لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» على موقع إسلام أون لاين الإلكتروني، بتاريخ الثلاثاء ١٧ إبريل ٢٠٠٧م.

الشريعة، وحرمة الربا، وغير ذلك من القضايا التي تُثار حولها الشبهات.

وإذا كانت المعركة تُفْرَضُ الآن فكريةً مع دوران الآلة العسكرية وإصدار البحوث العلمية، والرصد الدقيق لمكامن القوة والضعف في المجتمعات الإسلامية- فإن هذا يحتم على علماء أهل السنة ودعاتها أن يرتفعوا إلى مستوى الواقع وتحدياته، فتكون المواجهة مؤسسيةً، وعلى أسس مدروسةٍ ومبحوثةٍ، وأن يُوَاجَهَ الإفكُ الغربي الملتحف بلحاف شرقي بدعي، أو عربي علماني بما يبطل كيدَه ويُذهِبُ زيفَهُ.

وعلى طوائف أهل السنة أن يبنوا جسورَ التواصل مع بعضهم البعض، مع احترام الاجتهادات العلمية والعملية داخل دائرة السنة، كما أن عليهم -فوق تجاوز الخلافات الفرعية- أن يُقَدِّمُوا مصلحة الأمة الكلية على المصالح الحزبية، فضلًا عن المصالح الشخصية!، وتصحيح الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين.

يجب تقديم مصلحة الأمة الكلية على المصالح الحزبية، فضلًا عن المصالح الشخصية!، وتصحيح الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين.

دَرْبُنَا واحدٌ فكيفَ افترقنَا	لا يكنْ حظُّ نفسِنَا مبتغَانَا
نحنُ في الدينِ إخوةٌ فلماذَا	يَعتلِي صوتُنَا ويخبُو إخَانَا
ومرادُ النفوسِ أصغرُ منْ أنْ	نتعادَى فيهِ وأنْ نتفَانَى

فلا بد من إعمال قاعدة السياسة الشرعية القاضية بتكثير المصالح وجمعها، وتقليل المفاسد ودفعها، والغرب اليوم يعتبر كلَّ من آمن بمرجعية الشريعة وسلطانها

لا بد من إعمال قاعدة السياسة الشرعية القاضية بتكثير المصالح وجمعها، وتقليل المفاسد ودفعها.

متطرفًا يجب إسكاته أو القضاء عليه.

وهذا يُحتم الانفتاح على الأمة من خلال منابرها الإعلامية كافَّةً وتوضيح القضايا المنهجية، وإزالة الغبش عن كثير من القضايا، والتحام الأمة بعلمائها، والقاعدة الشعبية بقيادتها الشرعية، وتظهر هنا أهمية الكيانات العالمية لأهل السنة، في المجالات العلمية والإعلامية والدعوية على حد سواء.

خامسًا: العناية بدعوة المخالفين:

وفي زمن الفتن تتلفت الأمة إلى قامات العلماء الربانيين، والدعاة الصادقين، ومن حق المخالفين أن يسمعوا في هذا الدين قولاً بليغًا، وذلك سواء أكانوا من غير المسلمين، أم كانوا من غير أهل السنة من المسلمين.

لا بد من إيضاح صحيح الدين، وفي زمن الفتن تتلفت الأمة إلى قامات العلماء الربانيين، والدعاة الصادقين، ومن حق المخالفين أن يسمعوا في هذا الدين قولًا بليغًا، وذلك سواء أكانوا من غير المسلمين، أم كانوا من غير أهل السنة من المسلمين، فإن هذا يُظهر محاسن الدين، ويرد على شبه الزائغين، ويكثر أتباع الحق وينصره، ويزيل الباطل ويخذله، ويدخل في ذلك ترجمة كتب أهل السنة وبثها بمختلف اللغات، وحضور تلك المؤتمرات العالمية والدولية التي تُعنى بالشأن الإسلامي والعربي والشرق أوسطي، والتفاعل الإيجابي مع مقرراتها، والحضور الواعي لفعالياتها.

ومما يعين على تحقيق المقصود: تشجيعُ ودعمُ مراكزِ تعليمِ العربيةِ لغير الناطقين بها سواء ما أنشئ منها في الشرق، أو افتتح في الغرب، فإن العربية مفتاحُ لعلوم الشريعة والدين.

ولا مانعَ من التعاون مع المنصفين والتواصل مع المعتدلين من مفكري

الغرب ومثقفيه، ومخاطبتهم من خلال قنوات فضائية، أو مجلات علمية، أو كراسي أكاديمية في الجامعات الغربية.

ومما يدخل في هذا: إعدادُ الكفاءات العلمية التي تملك زمام المناظرة، وتقدر على خوض غمار المحاورة، وتتبنى الرد المباشر والمناظرة العلمية العلنية والحوار المفتوح.

كما يجب أن يُعْرَفَ أن حملة علمية مغرضة على هذه العقائد السلفية والاختيارات العلمية والقواعد المنهجية قد بدأت ولم تنتهِ بعد، وربما لا يزال في الجعبة مزيد، وهذا يوجب على طلبة العلم والدعاة أن يتسلحوا في مواجهتها بالعلم الشرعي المؤصَّل، والفقه المنهجي الراشد، وأن يُدبِّجوا المقالات والردود العلمية العميقة، وأن يكشفوا عوار مناهج المخالفين، ويظهروا تهافت طرائق المنحرفين، وهذا يتطلب معرفةً بأقوالهم ودرايةً بشبهاتهم واجتهادًا في نقضها وردِّها، فلا تصلح الردود الإجمالية، ولا التعبيرات المتشنجة، وإنما لا بد من استقصاء الردود وإفحام المخالف.

ومما يجب أن يُعْلَمَ أن الصوفية في تعاملهم مع الغرب ليسوا سواءً، فلا يصحُّ بحالٍ أن يُشْحَنَ الجميعُ في خندق واحد، ولا يصلح أن يُعانَ أهل الكفر على أحد من أهل الإسلام، فليُحذَر أن يُطْرَحَ الصوفيةُ بجميع فئاتهم من الرصيد السني، ليضافوا إلى الرصيد الشيعي، فيزيد بذلك البلاء ويستفحل الداء! عياذًا بالله! فلا بد من نظرٍ في المآلات، وتدبُّرٍ في نتائج التصرفات.

فليحذر أن يطرح الصوفية بجميع فئاتهم من الرصيد السني، ليضافوا إلى الرصيد الشيعي، فيزيد بذلك البلاء ويستفحل الداء!

سادسًا: الدعوة إلى تعظيم الشريعة وتطبيقها:

وذلك عبر العمل الجاد والسعي الدءوب لتحكيم الشريعة وتطبيقها نصًّا وروحًا، ودعوة الحكومات وولاة الأمور في بلاد المسلمين قاطبةً للتمسك بأهدابها والسعي في تعظيمها، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقال: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ويتحتم الإنكار على العلمانيين والمتغربين ومزاحمتهم، ومنعهم من تَسَنُّمِ القيادة الفكرية أو الدينية، والأخذ على أيديهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنعهم من تمثيل الأمة سياسيًا أو فكريًا، أو التحدث باسمها إعلاميًا، وردع المتجرئين منهم على ثوابتها وقواعدها الشرعية.

ومما يُعين على ذلك تقوية العلماء الربانيين بهيئاتهم الشرعية، ومجامعهم العلمية والفقهية، ومناصرتهم في حمل رسالتهم والقيام بواجبهم.

سابعًا: إشاعة روح التسديد والمناصحة:

فينبغي العمل على مناصحة الحركات الجهادية الصحيحة وتسديدها، والحرص على ضبط مرجعيتها الشرعية، ومنعها من التعجل الذي يُفضي بها إلى مهالكَ تضرُّ بها أو بالأمة، مع حسن ترتيبٍ للأولويات، وحرصٍ على تحقيق مصلحة الدين وكفِّ بأسِ الكافرين.

ينبغي العمل على مناصحة الحركات الجهادية الصحيحة وتسديدها، والحرص على ضبط مرجعيتها الشرعية، ومنعها من التعجل الذي يُفضي بها إلى مهالك تضرُّ بها أو بالأمة.

وتسديد العمل السياسي الإسلامي المعاصر، والتأكيد على أن مقصده الأول تحكيم الشريعة وإقامة سلطانها، وتحرير الحريات والعباد من كل سلطان إلا سلطان رَبِّ العباد، والعمل على إخلاء مجتمعات المسلمين من الفساد، وتقوية أهل الحل والعقد وإظهار وجودهم وتفعيل دورهم في الأمة، وإيجاد هذه المرجعية السياسية الشرعية للأمة المسلمة بما يتيسر، والميسور لا يسقط بالمعسور.

والمناصحة بشأن اجتماع مختلف الطوائف الإسلامية على نصرة القضايا الكبرى للأمة، والتعاون والتنسيق والتكامل في حمل مسئولياتها، والسعي للتمكين لهذا الدين.

وأهم ما في هذا الباب مناصحة المجموعات والطوائف السلفية أنفسها بضرورة الاجتماع والتعاون والائتلاف والتناصر، وإغماد سيف التبديع والتراشق بالتهم، واتهام النيات، والإغضاء عن الهفوات فيما بينهم.

وأهم ما في هذا الباب مناصحة المجموعات والطوائف السلفية أنفسها بضرورة الاجتماع والتعاون والائتلاف والتناصر، وإغماد سيف التبديع والتراشق بالتهم، واتهام النيات، والإغضاء عن الهفوات فيما بينهم، كما ينبغي التيقظ إلى شَرَك المعارك الجانبية مع بعض العاملين في حقل الدعوة الإسلامية، كما تجدر الإشارة إلى أهمية الخطاب الدعوي لجميع فئات المجتمع، ولا سيما الإعلاميين والسياسيين وأهل الفن والرياضيين، بل والعلمانيين؛ فإن دعوة هؤلاء ومخاطبتهم بالتي هي أحسن من شأنه أن يفتح مغاليق القلوب، ويرد الشاردين، ويقطع السبيل على دعاة الفتنة، ومروجي الإفك والبهتان.

ثامناً: المرابطة على الثغور العلمية والعملية:

لقد حققت الدعوة إلى الله في العقود الماضية إنجازات كثيرة، وتحققت -بفضل الله- إصلاحات عديدة، وتقدمت بحمد الله في مواقع الجهاد العلمي والعملي.

وما من شك أن ثمة تحدياتٍ شرعيةً ومنهجية فُرضت على الدعوة وطوائف الدعاة في هذه المرحلة الجديدة بعد الحادي عشر من سبتمبر (٢٠٠١م)، وإن أقل الواجب في هذه المرحلة هو الثبات في مواقع الجهاد العلمي والدعوي، فلا يصلح بحال تنازل عن مواقع الدعوة والتأثير، أو تفريط في منابر النصح والتوجيه، أو تغافل عن الثغور العلمية والمؤسسات الدعوية والتربوية، أو تشاغل بالمفضول من الأعمال والأنشطة.

وإن هذه الهجمات المنهجية كلاميةً كانت أو مسلكيةً يجب التصدي لها بثبات راسخ، وببيان واضح، واعتدال وواقعية متزنة، بلا إفراط أو تفريط، ولا غلو أو جفاء، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ومما يعين على هذا الرباط تدارس وتشاور بين أهل السنة بطوائفهم الدعوية المختلفة، وإفادة من سير السابقين من الدعاة والعاملين، ومراجعة للأخطاء وحذر من التعصب، ومحاسبة للنفس وقدرة على الرجوع إلى الحق، وصبر على الثبات عليه.

وغني عن البيان أن هذه الحملات سوف تستهدف إفساد الأصول، وإضعاف المنطلقات، وتجفيف المنابع، وإحداث الشكوك، والاستفزاز نحو الاستعجال والارتجال، كما تستهدف إسقاط الرموز علميةً كانت أو عمليةً، وتشويه الإنجازات، وإحالة الحسنات إلى سيئات!!

فعلى كتائب العلم والإيمان أن يُرابطوا على ثوابتهم، وألَّا يعبأوا بجموع مخالفيهم، قال الله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥]، وعليهم أن يحسنوا الظن بأنفسهم، ويردوا الإفك والبهتان على قائليه ومروجيه؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، مستهدين بالله تعالى، ومستعينين به وبعبادته، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

ولـمَّا لقِينا عـصبةً تـغلبيـةً ... يقـودونَ جُـردًا للمنيـةِ ضُـمَّرَا
سـقيناهمُ كأسًـا سـقوْنا بمثلِهَـا ... ولكنَّنَـا كنَّـا على المـوتِ أَصْـبرَا

وأخيرًا، فإن الله تعالى سائلٌ كلَّ شيخ متبوع، وكلَّ داعٍ مسموع، وكلَّ راعٍ وإمام ومرشد ومسئول عن هذه الأمانة حَفِظَهَا وأحاطَهَا بنصحه، ونظر لمصالح أمته أم ضَيَّعَهَا؟! والتضييق الذي قد يلقاه الدعاة إلى الله إنما هو سنة جارية في خلق الله، به تقوى الدعوات، وتنتشر مع الثبات على المبادئ:

الله تعالى سائلٌ كلَّ شيخ متبوع، وكلَّ داع مسموع، وكلَّ راع وإمام ومرشد ومسئول عن هذه الأمانة حَفِظَهَا وأحاطَهَا بنصحه، ونظر لمصالح أمته أم ضَيَّعَهَا؟!

تَـاللهِ مَـا الدعـواتُ تُهزَمُ بـالأذَى ... أبـدًا وفي التـاريخِ بِـرُّ يميـنِي

ضَعْ في يديَّ القيـدَ أَلهِبْ أضـلعِي ... بالسوطِ ضَعْ عنقِي على السِّكِّين

لنْ تستطيعَ حـصارَ فكـرِيَ ساعةً ... أوْ نَـزْعَ إيمانِـي ونـورَ يقيـنِي

فـالنورُ في قلـبِي وقلـبِي في يَـدَيْ ... ربِّي وربِّي حـافظِي ومُعيـنِي

سـأظلُّ معتـصمًا بحبـلِ عقيـدَتِي ... وأمـوتُ مبتـسمًا لِيحيَـا دِيـنِي

تاسعًا: استنهاض المؤسسات الإسلامية الدولية والإقليمية:

في مثل هذه المخططات والحملات المسعورة على الإسلام والسنة يتعين على تلك الجهات الإسلامية الدولية والإقليمية أن تقوم بواجبها في المنافحة عن صحيح الدين، ودَعْمِ طوائف الدعاة والمرابطين في الثغور بفلسطين والعراق وبلاد الأفغان، وغيرها من البلدان، كما يُطلب منها مواجهةُ حملات التشكيك ودعاية المغرضين، ونُصْحُ وتصحيحُ عقائد ومناهج المخالفين، والحيلولة بينهم وبين التحالف مع أعداء الملة والدين.

وإذا كانت رابطة العالم الإسلامي، ومجمعها الفقهي، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ومجمعها الفقهي، وما انبثق عنهما من هيئات، وجهات دولية وإقليمية مدعوةً للقيام بهذا الواجب الشرعي؛ فإن المجامع الفقهية الأخرى، والروابط العلمية والإقليمية

والدعوية غير الرسمية- يتأكد في حقها تحريرُ البحوث النافعة، وإصدارُ الفتاوي الراشدة، والإصلاح بين طوائف الأمة، والانتصار للسنة وقمع البدعة.

وكما تُستنهض همةُ الروابط والهيئات الجماعية تُستنهض هممُ آحاد العلماء؛ فإن الواحد يسعه ما لا يسع الجماعة والطائفة، والعالِـم يحتاج إلى من يشد ظهره، ويقوي عزمه لا سيما في زمن الفتن المدلهمة.

في موقفٍ يُنْسِي الحليمَ سدادَهُ ... ويَطيشُ فيهِ النابِهُ البيطارُ

عاشرًا: مناصحة ومخاطبة الحكومات والأنظمة:

يجب أن تخاطب الحكومات في البلاد العربية والإسلامية بأنه ليس من مصلحة الأمة أن تباع لأعدائها بأبخس الأثمان.

يجب أن تخاطب الحكومات في البلاد العربية والإسلامية بأنه ليس من مصلحة الأمة أن تباع لأعدائها بأبخس الأثمان، وليس من الرشد أو النصح أن تُسَلَّمَ القيادةُ الدينيةُ في الشرق الأوسط إلى مَنْ لا يُؤتمنون على هذه القيادة، كما أن حفظ التوازن في المجتمعات لا يكون بترجيح كفةٍ خفيفةِ الوزنِ قليلة النفع[1].

وينبغي أن يُعْلَمَ أن هؤلاء الذين يتسنمون مراكز القيادة الدينية والتأثير العام اليوم، سوف يتجاوزون غدًا حدودَ بلادهم الجغرافية وأنظمتهم السياسية ليعبروا بأنفسهم وطوائفهم إلى الدول الأجنبية، متعدِّين كلَّ الخطوط الحمراء في تلقي دعم خاصٍّ أو ترتيبِ أمورٍ عملية في الخفاء! وتلك جريمة دينية وسياسية على حدٍّ سواء.

---

(١) ولقد تنبهت بعض الدول العربية إلى أن الصوفية قد بدأوا يستغلون ما يُسَمَّى بالحضرة الدينية، أو مجالس الذكر المبتدع؛ لتحقيق أهداف سياسية معينة، وتشكيل تكتلات تُخِلُّ بأمن الدولة، فأصدرت وزارة الأوقاف المصرية قرارًا يمنع من إقامة هذه الحضرات بمساجد القاهرة بعد صلاة العشاء.



لقد أثبتت دروس التاريخ القديم والحديث أن أهل السنة هم أهل الصدق والوفاء للدين والبلاد، وهم عدتها عند الشدائد وفي الملمات.

ولقد أثبتت دروس التاريخ القديم والحديث أن أهل السنة هم أهل الصدق والوفاء للدين والبلاد، وهم عدتها عند الشدائد وفي الملمات، فهم صمام أمان أمتهم بعد نبيهم ﷺ وصحبه الكرام رضي الله عنهم.

وأهل السنة مدعوون لتجلية هذه الحقائق عنهم وعن مخالفيهم، ومناصحة وتذكير الأمة بذلك حكامًا ومحكومين، والإفادة من مختلف وسائل البيان والإعلام والدعوة؛ لتكوين الرأي العام الإيجابي الصحيح في هذه القضية.

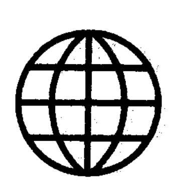




الفصل التاسع

9

استشراف المستقبل



استشراف المستقبل

انطلاقاً من الحقائق الشرعية والمنهجية والتاريخية يمكن القول بأن ما يراهن عليه الغرب إنما هو وهم أو سراب لن يلبث أن يزول، وحقائق الدين والتاريخ والواقع لن تخدم هذه المخططات بإذن الله تعالى، وفيما يأتي نظرة على مستقبل تلك المخططات:

أولاً: مستقبل التحالف (الغربي - البدعي):

إن مراهنة الغرب على إنعاش الفرق البدعية وإنهاضها في مواجهة السنة وأهلها أمرٌ لا يمكن الاستهانة بخطره أو التقليل من شأنه، والتحالف الرافضي مع الغرب ضد السنة وأهلها له سوابقه العسكرية والتاريخية؛ كما وقع في سقوط بغداد الأول ٦٥٦هـ، والثاني ١٤٢٣هـ؛ فإن التمالؤ الفكري والعقدي بين الرافضة وأعداء الإسلام أشدُّ وأخطر، وسابقاته أكثر وأشهر(١).

ولا شك أن الرهان الأكبر هو بدخول الفرق الكلامية مع الفرق المسلكية المنسوبة إلى السنة بالمعنى الأعم -أي: في مقابلة الرافضة- في تحالف مع الغرب، ليمهد ذلك لحرب فكرية ومنهجية على الطوائف الدعوية والجماعات الإسلامية في العالم الإسلامي بأسره.

وهنا يتعين التأكيد على فقه السياسة الشرعية وأثره في الحيلولة دون قيام هذا الثالوث [الغربي - الرافضي - البدعي] **وهذا من خلال أمور منها:**

- تحرير الموقف الشرعي الصحيح من أعداء الإسلام.
- تقوية عقيدة الولاء لله ورسوله والمؤمنين.
- التفريق بين الغلاة وغيرهم من المخالفين.
- الارتكاز على قاعدة الإسلام وأهل القبلة في مواجهة أعداء الدين.

وبحمد الله فإن التفاؤل قائم بأن يقوي هذا التحالفُ السنةَ وأهلَها وأن يكثر المنتسبين إليها بحق، وأن يزيد الثابتين عليها صمودًا.

---

(١) وقد صدر مؤخرًا كتاب عن د. تريتا بارسي الأمريكي، وهو أستاذ العلاقات الدولية في جامعة «جون هوكنز» عن التحالف الغادر (إيران - إسرائيل - أمريكا)، كشف فيه عن التعاملات السرية بين البلدان الثلاثة، وفسر بعض المواقف التي بدت إعلاميًّا متعارضة وإن كانت استراتيجيًّا متوافقة! وساق جملة من المفاجآت ضمن العروض الإيرانية المقدمة لأمريكا.

وأما محاولة شق الساحة الإسلامية إلى سلفية وأشعرية فلا تبدو مجدية أو مفيدة للغرب؛ فإن خلاف الأشعرية مع السلفية في قضايا عقدية لا يعني أن الأشعرية يُحَسِّنون عقيدةَ غير المسلمين، أو أنهم يعتقدونهم مؤمنين أو يوالونهم في الدين، وما يسمع من تصريحات في هذا الصدد لا بد من حملها على أنها تصريحات سياسية فحسب!

أما محاولة شق الساحة الإسلامية إلى سلفية وأشعرية فلا تبدو مجدية أو مفيدة للغرب

وبالجملة فإن أهل السنة يعتقدون الأشاعرةَ أقربَ فِرَقِ المتكلمين إلى السنة، وأن المكان الذي خلا عن أهل السنة فأهل السنة فيه هم الأشاعرة.

وبالجملة فإن أهل السنة يعتقدون الأشاعرة أقرب فرق المتكلمين إلى السنة، وأن المكان الذي خلا عن أهل السنة فأهل السنة فيه هم الأشاعرة.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن الأشاعرة: «وإن كان في كلامهم من الأدلة الصحيحة وموافقة السنة ما لا يوجد في كلام عامة الطوائف، فإنهم أقرب طوائف أهل الكلام إلى السنة والجماعة والحديث، وهم يعدون من أهل السنة والجماعة عند النظر إلى مثل المعتزلة والرافضة وغيرهم، بل هم أهل السنة والجماعة في البلاد التي يكون أهل البدع فيها هم المعتزلة والرافضة ونحوهم»[1]. وهذا من إنصافه رَحِمَهُ اللَّهُ مع أنه أَلَّفَ في الرد عليهم وصنَّفَ.

ولا شك أن الأشاعرة -على مَرِّ التاريخ- فيهم علماء مرموقون، وكان منهم حكام موفقون، وقواد مجاهدون، وعليه فينبغي أن يقطع السبيل على دعاة الفتنة، ومروجي الشقاق، وحين تكون المواجهة عملية بين أهل الإسلام والكفار

---

(١) بيان تلبيس الجهمية، (٨٧/٢)، ط: مطبعة الحكومة - مكة المكرمة، ط:١، ١٣٩٢.

فالحاجة ماسة لكل ساعد قوي من أهل القبلة، وما يطلب حال القلة والاستضعاف، يختلف عما يطلب حال التمكين والاستخلاف.

ولا شك أن الأشاعرة ـ على مَرّ التاريخ ـ فيهم علماء مرموقون، وكان منهم حكام موفقون، وقواد مجاهدون، وعليه فينبغي أن يقطع السبيل على دعاة الفتنة، ومروجي الشقاق.

ثانيًا: مستقبل الحرب الباردة:

الذي يبدو -والعلم عند الله- أن مشروع الحرب الباردة لن يزيد -في النهاية- أهل الإسلام إلا قوة، ولن يزيد الكفار إلا وهنًا، ثم يعودون لِكَرَّةٍ جديدة من العنف والدموية، وهكذا حتى يأذن الله بأفولِ باطلهم ودحر إفكهم(١).

على أن ما يُخبِرون به من بعض نبوءات كتبهم يجد المسلمون له أصلًا في أحداث آخر الزمان، ولكن الغلبة للحق الأبلج، وليس للباطل اللجلج.

فإن نبينا ﷺ قد بَيَّنَ أن الصراع مع الروم يمتدُّ زمانه، ويشتد أواره، فهو صراع بدأ مبكرًا، ولا يزيده الزمان إلا اشتعالًا.

يقول ﷺ فيما رواه نافع بن عتبة ﷺ عنه: «**تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدَّجَّال فيفتحه الله**». فقال نافع: يا جابر، لا نرى الدَّجَّال يخرج حتى تُفْتَحَ الروم(٢).

ويشهد له حديث ابن محيريز ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**فارس نطحة**

---

(١) هذه الحرب يعتمد الغرب فيها على آليات كثيرة منها: العولمة الفكرية والثقافية وفي هذا الصدد يحاولون جاهدين اختراق الشباب وطلبة العلم في جامعات العالم الإسلامي بتعليم اللغة الأجنبية مع ما يصحب ذلك من تعليم ثقافة الغرب واختراق العقل المسلم وتمييع الهوية الإسلامية، ومنها: التشجيع من جديد على الدراسات العليا بتلك البلاد في التخصصات الشرعية واللغوية، وفي هذا الصدد يجند عدد كبير من الأكاديميين بالجامعات الإسلامية كجامعة الأزهر وغيرها.

(٢) أخرجه مسلم، (٢٩٠٠).

أو نطحتان، ثم لا فارس بعدها أبدًا، والروم ذات القرون، كلما هلك قرن خلف مكانه قرن، أهل صخر وأهل بحر، هيهات لآخر الدهر! هم أصحابكم ما كان في العيش خير»[1].



يُستفاد من الحديثين أن أمة الإسلام تبقى في مواجهة الروم الذين يواصلون معاركهم معها حتى تأتي الملحمة الكبرى.

ويُستفاد من الحديثين أن أمة الإسلام تبقى في مواجهة الروم الذين يواصلون معاركهم معها حتى تأتي الملحمة الكبرى، وما أدراك ما الملحمة الكبرى؟!

هاجت ريح حمراء بالكوفة يومًا، فجاء رجل فقال: يا عبد الله بن مسعود جاءتِ الساعة، قال: فقعد -وكان متكئًا- فقال: «إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسَّمَ ميراث، ولا يُفرَح بغنيمة» ثم قال بيده هكذا (ونحَّاها نحو الشام) فقال: «عدو يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام». قلت: الرُّومَ تعني؟ قال: «نعم! وتكون عند ذاكم القتال ردة شديدة، فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة؛ فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كلٌّ غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة؛ فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان اليوم الرابع نَهَدَ إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل الله الدَّبْرَةَ عليهم فيقتتلون مقتلة -إمَّا قال: لا يُرى مثلُها، وإمَّا قال: لم يُرَ مثلُها- حتى إن الطائر ليمر بِجَنَباتهم فما يخلفهم حتى يخرَّ ميتًا، فيتعادُّ بنو الأب كانوا مئة فلا يجدونه بقي منهم إلَّا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يُفرَحُ، أو أي ميراث يُقاسَم، فبينما هم

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، (٢٠٦/٤)، والحارث في مسنده، (٧١٣/٢)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، (٣٩٩٩).

كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصَّرِيخُ: إن الدَّجَّال قد خلفهم في ذراريهم! فيرفضون ما في أيديهم، ويُقبلون، فيبعثون عشرة فوارس طليعةً، قال رسول الله ﷺ: **إني لأعرف أسماءهم، وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذٍ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذٍ»**(١).

والروايات في هذا الموضوع في الصحيح وغيره، وهي تتفق من وجه مع ما لدى القوم من نبوءات بوجود الملاحم قبل قيام الساعة، والفكر الصليبي الاستعماري يدور من نحو أربعة قرون -هي تاريخ الإنجيليين المتطرفين- على إقامة معركة «هرمجدون»؛ لأنها مدخلهم إلى الألفية السعيدة، والتي في أثنائها يعود المسيح عليه السلام ليحكم، وليملك اليهود شعب الله المختار في الأرض.

أما معاشر أهل الإسلام فينتظرون عودة المسيح إلى الأرض حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية(٢)، ويقتل الدَّجَّال بيده، حتى يريهم دمه في حربته(٣).

وبنزول عيسى عليه السلام وقتل الدجال تنتهي الحلقة الأخيرة في الصراع، وقبل هذه الحلقة حلقات متتابعات أخبر عنها النبي ﷺ، منها: حصار اقتصادي يضرب من الروم على أهل الشام ومصر والعراق.

وبنزول عيسى عليه السلام وقتل الدجال تنتهي الحلقة الأخيرة في الصراع، وقبل هذه الحلقة حلقات متتابعات أخبر عنها النبي ﷺ، منها: حصار اقتصادي يضرب من الروم على أهل الشام ومصر والعراق(٤).

---

(١) أخرجه مسلم، (٢٨٩٩) عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.
(٢) أخرجه البخاري، (٢٢٢٢)، ومسلم، (١٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.
(٣) أخرجه مسلم، (٢٨٩٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.
(٤) أخرجه مسلم، (٢٩١٣) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعًا.

ومنها: اقتتال مع الروم حتى يَنحسرَ الفرات عن جبل من ذهب[1]، ثم صُلْحٌ يعقبه غدرٌ من الروم، ثم مجيئهم تحت ثمانين راية، تحت كل راية مئة وعشرون ألفًا[2]؛ لتكون الملحمة الكبرى.

ومع إيماننا -معاشر المسلمين- بهذا؛ فإننا لا نستعجله ولا نعتسفه سعيًا إلى قتلٍ أو إراقة دماء، وكل الشواهد تدل على ذلك! فأين هذا ممن يتعطشون لحرب نووية دموية تبيد الأخضر واليابس!! ويصلون لا من أجل السلام ولكن من أجل الانتقام!!

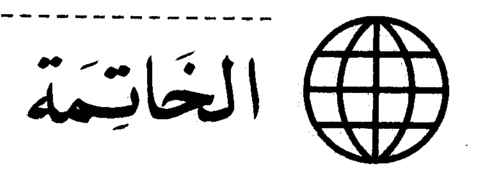
تمشي المناكرُ بينَ أيدِي خيلِهِ	أنَّى مشَى والبغيُ والإجرامُ
ويقودُهُ باسمِ الكتابِ أقِسَّةٌ	نشطُوا لما هو في الكتابِ حرامُ
عيسَى! سبيلُكَ رأفةٌ وبشارةٌ	للعالمينَ ورحمةٌ وسلامُ
ما كنتَ سَفَّاكَ الدماءِ ولا امرأً	هانَ الضعافُ عليهِ والأيتامُ



---

(١) حديث حسر الفرات عن جبل من ذهب أخرجه البخاري، (٧١١٩)، ومسلم، (٢٨٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري، (٣١٧٦)، والإمام أحمد، (٦/٢٢) عن عوف بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا.

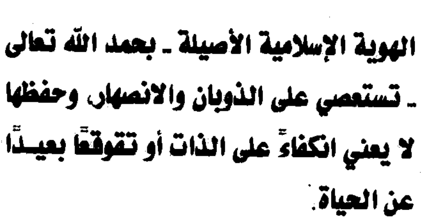


الخاتمة

وأخيرًا فإن معركة الأمة الإسلامية اليوم هي في حفظ هويتها إسلامية، لا شرقية ولا غربية، وإن مطلب انتقاص الهوية أو تغييرها وطمسها ما يزال مطلبًا أمميًا نصرانيًّا ويهوديًّا على حدٍّ سواء، ودون هذا المطلب خَرْطُ القتادِ!

ولقد عَبَّرَ هنتنجتون عن هذا المطلب الأممي بوضوح فقال: «المشكلة الحقيقية ليست هي الأصولية الإسلامية، إنه الإسلام!! هذا الدين ذو الحضارة المختلفة»[1].

والهوية الإسلامية الأصيلة -بحمد الله تعالى- تستعصي على الذوبان والانصهار، وحفظها لا يعني انكفاءً على الذات أو تقوقعًا بعيدًا عن الحياة ومجرياتها، كما يدعيه أعداؤها.



(١) حروب البترول الصليبية، عبد الحي زلوم، (ص١٠).

والأمة الإسلامية هي أمة التوحيد التي نفت غثائيةَ الفِرَقِ الباطنية في القديم، وهي التي تنفي غثائية الليبرالية والعلمانية وشَطْحَ الفِرَقِ وغيرها في الحديث.

ومثل هذه الأمة الولود مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره(١).

تَشابَهَ يوماهُ علينا فأشكَلا   فما نحنُ ندري أيَّ يوميهِ أفضلُ
أيومُ نَدَاهُ الْعُمْرِ أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ   ومَا منهُمَا إلَّا أغَرُّ مُحَجَّلُ(٢)

وهي في منافحتها عن عقيدتها وثوابتها أمةُ الوسطية؛ فليست من غلو النصارى بالرهبنة وبزعمهم الألوهية لعيسى ابن مريم عليه السلام في شيء، وليست من تفريط اليهود بقتل الأنبياء، ورميهم عيسى عليه السلام وأمه بالبهتان في شيء.

كانتْ هي الوسطَ المحميَّ فاكتنفتْ   بها الحوادثُ حتى أصبحتْ طَرَفًا

والسلفية الحقة هي الوسط بين فرق الأمة؛ فهي الوسط بدينها المنزل، ونبيها المرسل ﷺ، لا تجتمع على ضلالة، ولا تقر أحدًا على غواية، تشهد على الخلائق وتقيم عليهم الحجة في الدنيا والآخرة.

وهي على كلٍّ منصورة وظاهرة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣] وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

ولها البشارة الكاملة في الدنيا والآخرة، وفي الحديث: **«بشِّرْ هذه الأمة بالتيسير والسناء والرفعة بالدين والتمكين في البلاد»**(٣).

نحنُ الذينَ رَوَى التاريخُ قِصَّتَهُمْ   ونحنُ أعظمُ مَنْ في الأرضِ قدْ ظَهَرَا

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد، (٣/ ١٤٣)، والترمذي، (٢٨٦٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا.
(٢) من قصيدة لمروان بن أبي حفصة، يمدح معمر بن زائدة الشيباني.
(٣) حديث أخرجه أحمد، (٥/ ١٣٤)، وابن حبان، (٢/ ١٣٢)، والحاكم، (٤/ ٣٦٤) عن أبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعًا. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وفي الحديث: «**لن يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم فيه بطاعته إلى يوم القيامة**»(١).

فهـذَا الغـرسُ لـيسَ لَهُ نظـيرٌ   وحاشَـا أنْ يكـونَ لَهُ نظـيرُ
بمـاءِ الذكـرِ يُـسقَى كلَّ يـومٍ   وفي أحـضانِهِ تنمُـو البـذورُ

فيا أمة الإسلامِ اثبتي واصبري وصـابري وجاهـدي وتفـاءَلي وأبشري والنصر والغلبة لكِ.

فيـا أُمـةَ الإسـلامِ اثبـتي واصـبري وصـابري وجاهـدي وتفـاءَلي وأبـشري والنـصر والغلبـة لـكِ، قـال تعـالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

هـو الحـقُّ مَهْمَـا طَـغَى باطـلٌ   لهُ النـصرُ يـومَ الـنزالِ الأخـيرْ
ولله سـهمٌ سيمـضِي غَـدًا   ولـو كَـرِهَ المـستبدُّ الكفـورْ

وآخِرُ دَعْوَانا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالمِينَ.



(١) سبق تخريجه.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة